



المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة - الانتساب المطور

(عقد ١١٠)

مقرر التوحيد

المستوى الأول

أستاذ المادة:
د. سليمان السدلان

(المذكرات تم تفريغها سماعاً من المحاضرات الصوتية)

إعداد طلاب وطالبات كلية الشريعة

انتساب مطور

نسخة مدققة و مزيده

١٤٣٢هـ

(كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية)

﴿ تقديم ﴾

هذه الطبعة النهائية لمذكرات كلية الشريعة انتساب مطور تعليم عن بعد وقد اعتمدت بتوفيق من الله بعد أن تم تدقيقها أكثر من مرة من قبل طلاب وطالبات كلية الشريعة انتساب مطور واخترنا أفضلها تدقيقاً وتم تلوينها وتنسيقها لتكون هي الطبعة النهائية ولأنها جهد بشري لا يخلو من الخطأ ولا يصل للكمال فنرجو عند وجود خطأ أو ملاحظة

كتابة تنبيه في الموضوع المخصص لذلك في منتدى المستوى الخاص بالمذكرة
في منتدى مكتبة كلية الشريعة: www.imam8.com

وسوف يتم تصحيح الأخطاء بعد التنبيه عليها من قبل القائمين على إعداد المذكرات

ونسأل الله جزيل الثواب لكل من يعين على ذلك ويشاركنا فيه

(مجموعة إعداد مذكرات كلية الشريعة انتساب مطور)

الحلقة (١)

﴿مقدمة﴾

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله و حده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده و رسوله صلى الله عليه و على آله و أصحابه و سلم تسليماً كثيراً: أما بعد فإن أشرف العلوم علم العقيدة فهو أساس الدين وبه يعرف العبد ربه وما يجب عليه تجاه الباري عز وجل و بصحة العقيدة يصح الدين وتصح الأعمال، وإذا كانت هذه منزلة العقيدة فلا بد ان تعلم أن العقيدة الصحيحة هي ما كان عليه النبي وأصحابه رضوان الله عليهم اجمعين فليس كل عقيدة منجية إنما المنجي هي الالتزام بالعقيدة الصحيحة التي تركنا عليها النبي حيث يقول: (تركتمكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك) إلا أن النبي أخبرنا عن السنن وأن هذه الأمة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، وعندما وقع هذا التفرق طرأ على العقيدة الصحيحة الصافية التي كان عليها أصحاب النبي اختلاف و تحريف و تعطيل و تأويل وأمور منكرة فما كان من العلماء من أهل السنة والجماعة إلا أن انبروا لهذه العقائد الحادثة البدعية بإنكارها والرد على شبهاتها وتحذير الناس منها، مرة بتأليف المتون في العقيدة الصحيحة ومرة بالردود على أشخاص بأعيانهم أو على فرق معينة وهكذا توالى جهودهم في دحض كل ما يظهر ويظهر مخالفاً للاعتقاد الصافي الصحيح وهو ما كان عليه النبي وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

المرجع الرئيس في هذا المستوى هو: شرح العقيدة الطحاوية لأبن أبي العز الحنفي، وبقية كتب الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة هي المراجع المساندة لهذا المقرر.

العقيدة الطحاوية: لقد شرح متن العقيدة الطحاوية من أكثر من شارح وشرح ابن أبي العز لمن العقيدة الطحاوية هو أحد هذه الشروح، وعقيدة الطحاوي عقيدة موافقة في جل مباحثها لما يعتقده أهل السنة والجماعة أهل الحديث والأثر. ولقد ذكر عدد من أهل العلم أن أتباع المذاهب الأربعة ارتضوا هذه العقيدة (العقيدة الطحاوية) ذلك لأنها اشتملت على أصول الاعتقاد المتفق عليه بين أهل العلم وذلك في الإجمال، لأن ثم مواضع انتقدت على الطحاوي رحمه الله.

التعريف بالماتن صاحب العقيدة الطحاوية

نسبه: هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك الأزدي الحجري المصري الطحاوي المصري، نسبة إلى طحي وهي من قرى صعيد مصر.

مولده ووفاته: ولد في سنة ٢٣٩ هـ وتوفي رحمه الله في ٣٢١ هـ.

نشأته: نشأ في بيت علم وفضل فأبوه من أهل العلم والبصر في الشعر وروايته، وأمه معدودة في أصحاب الشافعي رحمه الله الذين كانوا يحضرون مجلسه، وخاله المزني أفقه أصحاب الشافعي وناشر علمه من بعده.

عاصر الطحاوي الأئمة الحفاظ من أصحاب الكتب الستة، ومن كان في طبقتهم وشارك بعضهم في مروياتهم، وقد عُذ الطحاوي من أقدر الناس وأمهرهم على التأليف والتصنيف، وذلك لما وهبه الله من وفرة المحفوظ من القرآن والسنة وأقوال أهل العلم، وكذلك تنوع المعارف وسرعة الاستحضار وكمال لاستعداد.

مصنفاته: وقد صنف الطحاوي كتب متنوعة في العقيدة والتفسير والحديث والفقه والشروط والتاريخ هي في غاية الجودة والأصالة وكثرة الفوائد، منها شرح مشكل الآثار، ومختصر الطحاوي في الفقه الحنفي على شاكلة مختصر المزني (أي خاله) في

مذهب الشافعي وكذلك سنن الشافعي، والعقيدة الطحاوية وهي مرجعنا في هذا المقرر.

والعقيدة الطحاوية التي ألفها هي متن صغير جداً، يحفظه صغار طلبة العلم لأنه عدد قليل من الكلمات مجموعة في مكان تدل على الاعتقاد، ولعلها كانت من قبيل الإملاء، فما يرد على قلبه رحمه الله أملاه، لذلك لم تكن هذه المسائل العقدية في هذا المتن مرتبة بل متفرقة والشارح ابن أبي العز تبع المؤلف في طريقته لكن الشارح قال في آخر الكتاب (ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد، وكذلك في الكلام في القدر ونحو ذلك، ولم يعتن فيه بترتيب وأحسن ما يُرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام، حين سألته عن الإيمان فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) الحديث فيبدأ بالكلام عن التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ثم بالكلام على الملائكة ثم... إلى آخر أصول الإيمان.

أبو جعفر الطحاوي رحمه الله كان صريحاً في الحق الذي يعتقده لا يجامل أحداً مهما علا شأنه وعظمت منزلته يظهر ذلك تحوله من المذهب الشافعي إلى المذهب الحنفي في بلد (أي مصر) لم يكن للمذهب الذي انتقل إليه فيه رواج. وهو رحمه الله من علماء الحديث المعروفين، ومن الفقهاء المشهورين فهو محدث فقيه وكان شافعي المذهب تفقه على خاله المزني تلميذ الشافعي، ثم انتقل في الفروع من مذهب الشافعية إلى مذهب الحنفية فصار حنفي المذهب إلا أنه لا يتعصب لأبي حنيفة ولا يقلده، بل صنيع العلماء المحققين أن يتابعه فيما ظهر فيه الدليل وأن يأخذ بالدليل إذا خالف قول الإمام كما ورد عن الأئمة أن قولهم إذا خالف قول النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يضرب بقولهم عرض الحائط، وكما ورد عن مالك رحمه الله أنه قال: كل يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر، يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

التعريف بالشارح

نسبه: هو أبو الحسن علي بن علاء الدين علي بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن شرف الدين أبي البركات محمد بن عز الدين أبي العز صالح بن أبي العز بن وهيب بن عطاء بن جبير بن جابر بن وهب الأذرعي الأصل الدمشقي الصالحي والحنفي المعروف بابن أبي العز.

مولده: ولد ابن أبي العز في سنة ٧٣١ هـ في أسرة علمية.

نشأته: تقلب في أعطاف العلم تعلماً ومدارسة مع ما منحه الله من استعداد فطري وذهن وقاد وتعطش شديد للمعرفة، فكان لذلك فيه الأثر الكبير في بلوغ منزلة عظيمة في العلم أتاحت له التدريس والخطابة والتأليف وتولي المناصب العلمية التي لا يناها إلا من قاربت معرفته الكمال وعظمت منزلته وارتاض بالمعرفة عقله.

مع أن أبي العز حنفي المذهب متأثراً بمحيطه و المذهب الذي يُلقنه في الصغر لكنه من الناس الذين عاودوا التفكير فيما لُقنوا وبحث ووازن بينه وبين غيره متجهاً اتجاهاً حراً يقوده إلى المعرفة الصحيحة والمنهج السوي فقها واعتقاداً.

من أقواله الرائعة رحمه الله:

أنه يقول "الواجب على من طلب العلم النافع أن يحفظ كتاب الله عز وجل ويتدبره وكذلك من السنة ما تيسر له ويتضلع منها ويرتوي ويأخذ معه من اللغة والنحو ما يصلح به كلامه، ويستعين به على فهم الكتاب والسنة، وكلام السلف الصالح في معانيها، ثم ينظر في كلام عامة العلماء، الصحابة ثم من بعدهم ما تيسر لهم من ذلك من غير تخصيص، فما اجتمعوا عليه لا يتعداه وما اختلفوا فيه نظر في أدلتهم من غير هوى ولا عصبية ثم بعد ذلك من يهد الله فهو المهتد ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً" انتهى كلامه رحمه الله.

نبذة عن المحنة التي تعرض لها:

تعرض الشارح ابن أبي العز للمحنة كما هي السنة فيمن يصدق بالحق فناله من الأذى ما نال شيخ الإسلام ابن تيمية وكذلك تلميذه ابن القيم وغيرهما فمن كان ينحو منحى التجديد في الدعوة الصحيحة وإعادتها لأصلها بعد ما أصابها التغيير والتحريف، وقد أهاجوا على ابن أبي العز ذوي السلطان بسبب ما علقه على قصيدة علي بن أبي أيك التقيباوي الناصري الدمشقي الأديب في مواضع مشكلة منها، فجرد من جميع وظائفه وحبس أربعة أشهر وعزر رحمه الله وحملوه على التراجع مع أن الحق كان في الأغلب معه.

فبعد هذه المحنة بقي الشارح ابن أبي العز ملازماً لبيتته إلى سنة ٧٩١ هـ حتى تقدم إلى الأمير سيف الدين يلغا ابن عبد الله الناصري الأتابكي أحد كبار الأمراء بطلب وظائفه وأن يرد إليه اعتباره، فرسم بذلك الأمير وعاد الشارح إلى وظائفه فخطب بجامع الأفرم ودرّس بالمدرسة الجوهريّة حتى توفي رحمه الله سنة ٧٩٢ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون بدمشق. ونستفيد مما سبق من عرض للماتن وعرض للشارح أهمية المعلومة التي ستتناول بالمطالعة والدراسة لهذا المتن فهو المرجع الأساسي المهم هنا نكتة وهي أن صاحب متن العقيدة الطحاوية وشارحها ابن أبي العز كلهم من المذهب الحنفي ومع ذلك يخالفون الأحناف في مسائل متعددة في الاعتقاد وإذا دعت الحاجة لإقناع أحد منهم فلا غنى عن الاستشهاد بأقوال هؤلاء العلماء.

ومن المهم أن يقتني الطالب كتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز، أفضل طبعة: طبعة وتحقيق وتعليق الدكتور عبد الله التركي والشيخ شعيب الأرنؤوط طبعتهما مؤسسة الرسالة فهي من أفضل وأجمع الطبقات.

✕ مصطلحات مهمة

أولاً: العقيدة على وزن فعيلة بمعنى مفعول، يعني معقوداً عليه. والمسائل تنقسم إلى أحكام وأخبار كما قال عز وجل { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا } تمت كلمة الله على هذين القسمين الصدق في الأخبار والعدل في الأوامر والنواهي. الأخبار يجب أن تصدق فما كان مرجعه إلى التصديق والإيمان به ولا دخل للأمر العملية به فإنه يسمى معتقداً أو عقيدة لأن مرجعه إلى القلب. فتسمى هذه العقيدة لأنه معقود عليها القلب، يعني كأن هذا العلم أو الخبر أو الأمر دخل إلى القلب فعقد عليه فلا يخرج منه لأنه عقد بشدة ولا ينفلت منه أبداً. ولفظ العقيدة راجع إلى علم القلب لأنه هو الذي يعقد الشيء الذي فيه، وأما العمليات فهذه من الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة أن العمل داخل في مسمى الإيمان، لكن موردها عمل الجوارح فلذلك لم تدخل في العقيدة. وستراد ألفاظاً مرادفة مثل: التوحيد، السنة، الشريعة وغير ذلك فمنها ما يكون مختصاً بالعقيدة كالتوحيد، ومنها ما يكون لها ولغيرها كالسنة والشريعة فإن لفظة الشريعة تشتمل على العقيدة أيضاً لأن الله عز وجل بين لنا أن الأنبياء اجتمعوا على شريعة واحدة.

يقول الله سبحانه وتعالى { شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } فهذه شريعة أجمع عليها المرسلين والمقصود بها التوحيد والعقيدة الواحدة، وتأتي الشريعة ويراد منها العمليات كما قال الله عز وجل: { لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا } وكما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الأنبياء إخوة لعلات، الدين واحد والشرائع شتى) نخلص من ذلك إلى أن التصانيف في العقيدة قد

تكون باسم العقيدة أو باسم التوحيد أو باسم السنة أو باسم الشريعة كما هو موجود فعلا في تصانيف أهل السنة والجماعة.

الحلقة (٢)

سبق تعريف مفردة العقيدة: وهي على وزن فعيلة بمعنى مفعول يعني معقود عليه وتأتي هذه الكلمة من العقد والشد والربط، عقد الحبل عندما تعقده وتشد عليه بقوة.

وأن المسائل تنقسم إلى أخبار وإلى أحكام فالله سبحانه وتعالى ذكر أن كلمته تمت على هذين القسمين صدق في الأخبار وكذلك العدل في الأوامر والنواهي، وأن مكان الاعتقاد في القلب ويصدق ذلك الجوارح، وتسمى العقيدة عقيدة لأن مرجعها إلى القلب الذي يعقد الشيء فيه، وأما الأمور العملية فهذه وإن كانت من الإيمان كما هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الأعمال داخلية في مسمى الإيمان لكن موردها عمل الجوارح لذلك لم تدخل في العقيدة.

وهناك ألفاظ سترد أثناء دراسة التوحيد وهي لفظ التوحيد، ولفظ السنة، ولفظ الشريعة، وأمثلة هذه الألفاظ فهي مرادفة تقريبا لمصطلح العقيدة، فمنها ما تكون مختصة بالعقيدة كالتوحيد وهو مختص بالعقيدة لا يدخل معه غيره، ومنها ما يكون للعقيدة ولغيرها كالسنة، فقد يقصد بها أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وقد يقصد بها العقيدة الصحيحة، وكذلك الشريعة فهو من الألفاظ التي تشمل العقيدة قال تعالى {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}. قال في بداية الآية {شَرَعَ لَكُم}، فهذه شريعة أجمع عليها الأنبياء والمرسلون كلهم أجمعوا على التوحيد وإن كانت شرائعهم مختلفة، وقد تأتي الشريعة ويراد منها الأمور العملية الفقه في الدين يقول سبحانه وتعالى {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} وكما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال: (الأنبياء إخوة لعلات، الدين واحد والشرائع شتى) والعلات هي الجارات فيجمعهم الدين وتختلف الشرائع والمراد بالشرائع هنا جمع شريعة والمراد بها الأمور العملية كالصلاة والزكاة والصيام وأمثلة ذلك.

ثانياً: مصطلح أهل السنة والجماعة

وقد ذكر الطحاوي في بداية كلامه (عقيدة أهل السنة والجماعة) فهذا اللفظ (لفظ أهل السنة والجماعة) لم يرد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم هكذا ولا ورد عن أصحابه رضي الله عنهم، وإنما كان في أواخر القرن الثاني الهجري حيث أطلق هذا اللفظ على أتباع أثر النبي صلى الله عليه وسلم المخالفين للفرق المختلفة التي خرجت عن طريقة الصحابة والتابعين، وأول من استعمله أحد مشايخ البخاري محمد بن إسماعيل (صاحب الصحيح)، وقد جمع بين لفظين لفظ السنة ولفظ الجماعة لأن هناك من يدعي إتباع السنة ولكنه لا يكون مع الجماعة وهناك من يدعو إلى الجماعة بلا إتباع السنة، فصارت طريقة أتباع أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأتباع السلف الصالح مشتملة على

❖ شيتين مهمين:

الأول: أتباع السنة والجماعة وكل من هاذين اللفظين (السنة والجماعة) لازم للآخر في الحقيقة فأتباع السنة هم أتباع الجماعة وأتباع الجماعة هم أتباع السنة، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم صح عنه في الحديث الذي في السنن عن ابن حبان أنه قال: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة وافتترقت أمي على ثلاث وسبعين فرقة)، يقول شيخ الإسلام هذا الحديث صحيح مشهور في السنن والمسانيد كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم قال عنه الحاكم هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وله شواهد، والشاهد من الكلام أن النبي صلى الله عليه وسلم صح عنه هذا الحديث أن أهل السنة والجماعة هم أهل الأثر وهم أتباع الصحابة في المعتقد، أتباع السلف

الصالح، ومن خلال هذا الحديث يتبين لنا أن كل الفرق في النار أي موعودة بالنار ومتوعدة بالنار، وهناك فرق بين الوعد والوعيد فالوعد بالخير أو بالجنة، والوعيد بالنار، فهذه الفرق متوعدة فلا يحكم عليها بالنار وإنما هي متوعدة بدخول النار والناجية هي فرقة واحدة هي الجماعة.

جاء هذا اللفظ عن النبي صلى الله عليه وسلم لفظ الجماعة، والجماعة هم المتبعون للسنة كما ورد في بعض ألفاظ الحديث في وصف الفرقة الناجية: (من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي) فالذي عليه النبي هي سنته يقول صلى الله عليه وسلم: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها عضا عليها بالنواجز).

فمصطلح أهل السنة والجماعة أتى من مجموع هذه الأحاديث، وإفراد أهل السنة يعني إفراد لفظ السنة عندما تقول أهل السنة يقابل به الرافضة والشيعة، فيكون هذا تفريق وتفريع آخر، لأن لفظ أهل السنة يطلق ويراد به ما يخالف التشيع، ويطلق أيضا ويراد به أهل الحديث والأثر، ولذلك زادوا في هذا الاصطلاح لفظة الجماعة مع أن كل من السنة والجماعة ملازم للآخر لأجل أن يكون هناك تحديد في الإطلاق فيكون المراد به ما يخالف الفرق كلها الرافضة والخوارج والجهمية والمرجئة والقدرية إلى آخر أصول الفرق المذكورة في كتب الفرق وهذا أمر مهم لابد من فهمه واستيعابه.

مصطلح: أصول الدين

المصطلح الآخر ورد في بداية الكتاب عندما قال الشارح: "أما بعد فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم وهو الفقه الأكبر" سمي العقيدة الفقه الأكبر،

نقف هنا عند كلمة (أصول الدين) هذه الكلمة يعبر بها عن العقيدة لأن التعبير عن العقيدة صار فيه اشتراك كما سبق التوضيح أن هناك ألفاظاً مرادفة لها، كالتوحيد والسنة والشرعية فهذا اللفظ (أصول الدين) قد يكون من المرادف لما ذكرنا من هذه العبارات وكذلك يعبر عنها عند المخالفين بعلم الكلام لأن أهل الكلام المخالفين لأهل السنة قدموا العقل على النقل فقدموا عقولهم وحكموا بها على ما جاء من عند الله في كتابه وجاء به رسوله صلى الله عليه وسلم في السنة فحكموا وجعلوا عقولهم حاكمة على الوحيين، هؤلاء يسمون هذا العلم بعلم الكلام، الذين تركوا الفلسفة وما أصله علماء الكلام في بيان العقيدة إلى ما دل عليه بعض المتقدمين منهم كالأشعري والماتوريدي، عدلوا عن كلمة علم الكلام فجعلوا مصطلحاً آخر وهو علم أصول الدين.

وهذا المصطلح فيه مخالفة للفظ مصطلح علم الكلام المذموم، وقد جاءت نصوص عن السلف تدم هذا العلم وتبين ضرره وفساده لدين الإنسان وضياح معتقده، أما كلمة أصول الدين ففيها توسط بين ألفاظ السنة والعقيدة والتوحيد والشرعية وبين علم الكلام، ولذلك يقال عن لفظ (أصول الدين) إن كان دليلاً ومأخذه هو مأخذ التوحيد والسنة والعقيدة والشرعية فلا بأس به وهو سائغ استعماله عند أهل السنة، ويريدون به الأصول التي جاء ذكرها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل في الحديث المشهور من أصول الإيمان الستة عندما قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) فتدرج تحته هذه المسائل الأصلية وما يتبعها من مسائل.

إذن كلمة: أصول الدين كلمة مركبة ومضافة، أضيف الأصل إلى الدين ومعناها العقيدة، ويراد بها ما يخالف ذلك كما يقوله الشارح رحمه الله: "فهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع" فهناك فقه أكبر وهو فقه الأصول، وفقه أصغر وهو فقه الفروع.

فقه الأصول يقصد به المسائل العقدية وأصول الإيمان، وفقه الفروع يقصد به العبادات والمعاملات وإلى آخره الواردة في

كتب الفقه.

ولفظ أصول الدين لفظ محدث ومصطلح لم يرد مع المصطلحات المرادفة الأولى لكنه اصطلاح عليه فلا مشاحة في الاصطلاح إذا لم يختص بأهل البدع فاستعمل هذا اللفظ علماء الحديث والسنة كما استعمله الطحاوي في متنه فيقول: "وما يعتقدون من أصول الدين" يعني أصول الإيمان المعروفة الواردة في حديث جبريل ولذلك قال ابن أبي العز: "فإنه لما كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ولهذا سمي الإمام أبو حنيفة رحمه الله ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين الفقه الأكبر" فحاجة العباد إلى الفقه الأكبر فوق كل حاجة، وأصول الدين والعقيدة هي بمثابة الأساس للبناء فإذا كان الأساس غير صحيح فلن يكون البناء صحيحاً ولن يستمر و سينهدم لا محالة، وكذلك الدين عموماً وإجمالاً إذا لم يكن الإنسان على عقيدة صحيحة فإنه لا ينفعه العمل وإن اجتهد فلا ينفع الاجتهاد في الأعمال والتعب إذا كان الإنسان على عقيدة غير صحيحة.

مثال: من أهم مباحث العقيدة مبحث الشرك الذي هو ضد التوحيد فإذا دخل الشرك على أي عمل أفسده فكذلك العقيدة هي بمثابة الأسس لبناء الدين ويقوم عليها سائر أمور الدين الأخرى.

فيقول: "**وضرورتهم إليه**" أي أنهم مضطرين إليه "**فوق كل ضرورة**" لأنه لا حياة للقلوب ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها و معبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون مع ذلك كله الله أحب إلى هذه النفوس مما سواه فيكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه، ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمته أن بعث الرسل بالدين والعقيدة معرفين وإلى طريق الله داعين فمن أجابهم فاز ونجا، ومن خالفهم ضل وهوى، فهؤلاء الرسل جعل الله لهم هذا الفقه الأكبر (العقيدة) جعلها مفتاح دعوتهم وزبدة رسالاتهم فجعل معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وما يجب له جل وعلا هي زبدة دعوة الرسل ومفتاح دعوتهم، فكل الرسل دعوتهم إلى التوحيد كما جاء في الحديث في البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الأنبياء إخوة لعلات الدين) فهم يختلفون في الشرائع لكن دعوتهم واحدة هي الدعوة للتوحيد.

المفردة الأخرى: وجوب الإيمان المجل على كل أحد.

ونلخص هذه المفردة فنقول: وجوب الإيمان بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إيماناً عاماً مجملاً على كل أحد، والمعرفة التفصيلية فرض كفاية، فهناك إيمان مجمل وعام وهناك إيمان مفصل فيجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيماناً عاماً، أما التفصيلية فإنها فرض على الكفاية فإن ذلك داخل بتبليغ ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم وداخل أيضاً بتدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة وحفظ الذكر والدعاء إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء إلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ونحو ذلك مما أوجبه الله سبحانه وتعالى على المؤمنين، فهو واجب على الكفاية منهم.

أما ما يجب على الأعيان فهو يتنوع بتنوع القدر والحاجات ومعرفتهم أيضاً وأمر به أعيانهم ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم وعن فهم دقيقه ما يجب على القادر على ذلك، فيجب على من سمع النصوص وفهمها من علم التفصيل ما لا يجب على من لم يسمعها ويجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك.

فالإيمان العام واجب على كل أحد أما التفصيلية فهي واجبة بحسب القدر وبحسب الأعيان وتتنوع بتنوع هذه القدرة وتتنوع بتنوع هؤلاء الأعيان فيجب على المفتي والمحدث والحاكم ما لا يجب على العامي من الناس.

الحلقة (٣)

حديثنا موصول عن ما تكلمنا فيه في الحلقة الماضية عن وجوب الإيمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب من الإيمان العام المجمل وما يجب على التفصيل وعلى من يجب.

ويتفرع من ذلك **مفردة أخرى** وهي كفاية عموم دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ووجوب طاعة النبي صلى الله عليه وسلم، فهذه المفردة من المنهج نتكلم عنها ولا نسهب فيها، حتى يكون التفصيل على معاني التوحيد إن شاء الله. فالواجب اتباع المرسلين عليهم الصلاة والسلام واتباع ما أنزله الله عليهم، وقد ختم الله الأنبياء والرسل بمحمد صلى الله عليه وسلم فجعله آخر الأنبياء وجعل كتابه مهيمنا على ما بين يديه من كتب السماء، (مهيمنا) أي: **حاكما على الكتب التي قبله** وهذا ما ورد في تفسير المهيمن لابن عباس رضي الله عنه، وإن كان قد جاء في تفسيرها أن (مهيمنا) أي **مؤتمناً عليه**، لكن القرآن جاء مهيمناً على ما قبله من الكتب فهو حاكم عليها.

وأنزل الله سبحانه وتعالى على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب والحكمة، وجعل دعوة محمد صلى الله عليه وسلم للثقلين الإنس والجن وهي باقية إلى يوم القيامة، وانقطعت به حجة العباد على الله، وقد بين الله سبحانه بالنبي كل شيء وأكمل له ولأمته صلى الله عليه وسلم الدين خبراً وأمرًا، وجعل طاعته طاعة لله، ومعصيته معصية لله، وأقسم الله بنفسه أن الناس لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم، وأخبر أن المنافقين يريدون أن يتحاكمون إلى غيره، وأنهم إذا دعوا إلى الله والرسول، المقصود بالدعاء هنا الدعاء إلى كتاب الله وسنة رسوله، يصدون صدوداً ويزعمون أنهم إنما أرادوا الإحسان والتوفيق.

وكما يقول كثير من المتفلسفة والمتكلمة من أهل الضلال والبدع وغيرهم، إنما نريد أن نحس الأشياء بحقيقتها أو ندرکها ونعرفها ونريد التوفيق بين الدلائل التي يسمونها العقلية، ويقدمون العقل على النقل، وهي في الحقيقة جهليات، بينها وبين الدلائل النقلية، يقولون نريد التوفيق بين الدلائل العقلية والدلائل النقلية المنقولة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو التوفيق بين الشريعة والفلسفة أو كما يقول المتصوفة الشريعة والحقيقة.

وكل هذه المصطلحات يريدون بها إضلال الناس، وكما يقول كثير من المبتدعة من الفلسفة والمتصوفة إنما نريد بالأعمال الإحسان بالجمع بين العلم والإيقان والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدعونه من الباطل الذي يدعونه بالحقائق وهذه كلها جهل وضلال. وكذلك كما يقول بعضهم إنما نريد الإحسان بالسياسة الحسنة والتوفيق بينها وبين الشريعة ونحو ذلك، كل هذا لا يغني من الحق شيئاً لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول تركتكم على المحجة البيضاء، وقبل ذلك يقول الله تعالى { **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** }. ومحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء (أنا خاتم الأنبياء لا نبي بعدي)، وكتابه خير الكتب حاكم ومهيمن على الكتب التي قبله، ناسخ لما جاء بالأوامر التي تخالفه فيها. فالقرآن حاكم على ما قبله من الكتب والنبي خاتم لمن قبله لا نبي بعده، قضي الأمر.

المفردة التالية: هي كفاية ما جاء به الرسول عما سواه، فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن أن ذلك حسن. وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين ما يخالفه فله نصيب من هذا. بل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كاف كامل يدخل فيه كل حق وإنما وقع التقصير في كثير من المنتسبين إليه، فلم يعلموا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم في كثير من الأمور الكلامية والاعتقادية ولا كثير في أمور الأحوال والعبادات ولا كذلك في الأمانة السياسية أو نسبوا إلى شريعة الرسول في ظنهم وتقليدهم ما ليس منها وأخرجوا عنها كثير مما هو منها. فبسبب جهل هؤلاء

وضلالهم وتفريطهم وعدوان أولئك ونفاقهم كثر النفاق ودرس كثير من علم الرسالة، إذن الجهل والتعدي بالابتداع على الدين هو ما جعل أموراً كثيرة تطرأ على العقيدة وينحرف كثير من الناس عن العقيدة الصحيحة.

يقول الشارح : "بل البحث التام والنظر القويم والاجتهاد الكامل فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ليعلم ويعتقد ويعمل به ظاهراً وباطناً فيكون قد تلي حق تلاوته وأن لا يهمل منه شيء. فإذا كان العبد عاجز عن معرفة بعض ذلك أو العمل به. فلا ينهي عما عجز عنه مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم. بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه. يعني يسقط عنه ما عجز عنه، أما ما يستطيعه فإنه يجب عليه. لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك ويود أن يكون قائماً به ولا يؤمن ببعضه ويترك بعضه، بل يؤمن بالكتاب كله وأن يصاب عن أن يدخل فيه ما ليس منه، من رواية أو رأي أو يتبع ما ليس من عند الله اعتقاداً أو عملاً كما قال تعالى { وَلَا تَلْسُؤُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } . هذه الطريقة كانت طريقة السابقين الأولين وهي طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين".

معنى علم الكلام: يعرف بأنه العلم الذي يقوم على إثبات العقائد الدينية عن طريق الأدلة العقلية بزعمهم لا عن طريق الأدلة النقلية الشرعية. هكذا زعموا وزعمهم باطل.

المفردة الأخرى في المنهج أن العلم بالكلام هو الجهل بالكلام، والكلام ليس المقصود به الكلام الحديث إنما الكلام الذي ذكرت بيانه قبل قليل فالعلم بالكلام هو الجهل بالكلام والوصول إلى علم الأصول لا يكون بغير إتباع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، هناك آثار عن السلف وردت في ذم علم الكلام، فعن أبي يوسف صاحب أبي حنيفة المحدث الكبير أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري كبير القضاة. صاحب أبي حنيفة أكثر من (١٧ عاماً). وتفقه به. وهو من أنبل تلامذة أبي حنيفة وأعلمهم. توفي سنة (١٨٢) للهجرة.

وذكر أنه قال لبشر المريسي -وبشر المريسي هو أبو عبد الرحمن خطيب متكلم من أهل الكلام وهو معتزلي رأس الطائفة المريسية التي قالت بخلق القرآن الذي أمتحن فيه إمام أهل السنة والجماعة الإمام أحمد رحمه الله- هذا المريسي أخذ الفقه عن أبي يوسف رحمه الله صاحب أبي حنيفة وتوفي سنة ٢١٨ هـ. قال عنه الذهبي في ميزان الاعتدال -وهو مبتدع ضال لا ينبغي أن يروى عنه ولا كرامة- لم يدرك الجهم بن صفوان صاحب مقالة التعطيل التي أخذها عن الجعد وإنما تقلد مقالته من غير إدراك له. تقلدها وهي القول بخلق القرآن واحتج لها ودعا لها وسيقها وجعل الخليفة يعتنقها ويمتحن الناس فيها. يقول أبو يوسف لبشر المريسي: العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام -أي بعلم للكلام- هو العلم، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل زنديق أو رمي بالزندقة.

أراد بالجهل به اعتقاد عدم صحته لا أن يعلم ليحذر منه كما يقول الشاعر:
عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه *** ومن لا يعرف الخير من الشر يقع فيه

فإن ذلك علم نافع أو أراد به الأعراض عنه وترك الالتفات باعتباره فإن ذلك يصون علم الرجل وعقله فيكون علماً بهذا الاعتبار، وعن أبي يوسف أيضاً أنه قال: من طلب العلم بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيماء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب، أي طلب علم العقيدة بعلم الكلام فإنه قد ضل في هذا العلم وتزندق وخرج من الدين، والزندقة هي الإلحاد بالله سبحانه وتعالى وإن كان علم الكلام بمجمله ليس بزندقة ولكنه يؤدي إليها، ويقول من طلب المال بالكيماء أفلس ومن طلب غريب الحديث كذب لأن الناس سيكذبونه بسبب ما يأتي به من غرائب.

ويروى عن الإمام الشافعي أيضاً: "حكى في أهل الكلام أن يضربون بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر والقبائل،

ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على علم الكلام".

وقال أيضا رحمه الله:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة *** إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا *** وما سوى ذاك وسواس الشياطين

وذكر الأصحاب في الفتاوى - هذا يقوله ابن أبي العز، بقول الأصحاب أي أصحابه الأحناف - : لو أوصى لعلماء بلده بشيء لا يدخل المتكلمون في معنى كلمة العلماء - أي يخرجون من هذا المصطلح، والعلماء هم أهل الحديث والفقه وغيرهم ممن يخدمون الشريعة لا يدخل فيهم المتكلمون أصحاب علم الكلام - لو أوصى لعلماء بلده - يعني أوصى بشيء سواء كان وقفا ريعه يكون للعلماء فإنه يصرف لأهل العلم إلا المتكلمين فإنهم لا يدخلون في هذا - يقول ولو أوصى إنسان أن يوقف من كتبه ما هو من كتب العلم، فأفتى السلف أن يباع فيها من كتب الكلام، لأن علم الكلام لا يدخل في العلم، وذكر ذلك فيما معناه في الفتاوى الظاهرية يقول:

فكيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول، ولقد أحسن القائل الذي يقول:

أيها المغتدي ليطلب علما *** كل علم عبد لعلم الرسول

تطلب الفرع لكي تصح أصلا *** كيف أغفلت علم أصل الأصول

كيف تطلب فرع لتصح أصلا ونبينا صلى الله عليه وسلم أوتي مجاميع الكلم وفوائده وجوامعه وخواتمه فبعث بالعلوم الكلية والجزئية الأولية والأخرية على أتم الوجوه، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة اتسعوا في جوابها على هذه البدعة فيكثر الكلام في العلم "العلم لا يكثر وإنما يكثر الكلام فيه"

فلذلك تجد أن الطحاوي ذكر المتن في وريقات صغيرة ثم بعد أربعمئة سنة أتى بعده ابن أبي العز وشرحه بمئات الصفحات العلم لا يتغير العلم هو ماجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال رحمه الله الشافعي:

العلم ما كان فيه قال حدثنا *** وما سوى ذاك وسواس الشياطين

والعلم حديث النبي صلى الله عليه وسلم وقبل ذلك القرآن الكريم فالعلم لا يتسع ولكن يتسع الكلام فيه، الشرح يكثر والتفريعات تكثر لذلك صار كلام المتأخرين كثيرا قليل البركة بخلاف كلام المتقدمين فإنه قليل كثير البركة لا كما يقوله ضلال المتكلمين وجهلتهم "إن طريقة السلف أسلم وإن طريقة الخلف أعلم وأحكم" وهذه مقولة قديمة للمبتدعة وفيها لمز للسلف وتزكية للخلف على خلاف منهج أهل السنة والجماعة، وكما يقوله من لم يقدرهم قدرهم ممن هم ينتسبون للفقه يقول "إنهم لم يتفرغوا يقصد المتقدمين لأستنباطه وضبط قواعده وأحكامه إشتغالا منهم بغيره، والمتأخرون تفرغوا لذلك فهم أفقه".

وهذا الكلام مخالف لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) ثم يأتي متأخر ويقول هذا الكلام الذي لا يقبله سني عاقل، فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف وعمق علومهم وقلة تكلفهم. وكمال بصائرهم رحمهم الله.

وتالله ما امتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف. والاشتغال بالأطراف التي كانت همة القوم مراعاة أصولها، المتقدمون اهتموا بالأصول والمتأخرون اهتموا بالفروع التي لا تغني عن الأصول شيئا وضبط قواعدها وشد معاقدها وهم مشمرة إلى المطالب العالية في كل شيء فالتأخرون في شأن والقوم في شأن وقد جعل الله لكل شيء قدرا.

ويعلق الشارح على المتن يذكر ابن أبي العز أن هذه العقيدة شرحها غير واحد من العلماء يقول: "لكني رأيت بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم بعبارتهم" بعض شراح الطحاوية وهم كثر وكتبهم مخطوطة إلى الآن وبعضها طبع، خالفوا الطحاوي رحمه الله فيما يعتقد وهم شرحوا وأضلوا الناس ببعض شرحهم.

المفردة الثالثة: هي مفردة التوحيد ومعاني التوحيد.

معنى كلمة التوحيد: توحيد مصدر وَحَّد يُوْحِد تَوْحِيداً أي جعلك الشيء واحداً. وقد جاء في السنة عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله). وجاء في قول الصحابي رضي الله عنه: (فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد في قوله لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) الشاهد من هذا قوله صلى الله عليه وسلم (فأهل صلى الله عليه وسلم بالتوحيد).

معنى التوحيد في اللغة: جعلك الشيء واحداً، أي جعلك الله واحداً في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات. والنصوص دلت على أن الله واحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

فالتوحيد إذن في الكتاب والسنة راجع إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات على التقسيم المشهور الذي تمت دراسته في المدارس.

بعض أهل العلم قسم التوحيد إلى تقسيم آخر إلى قسمين، وذكر ذلك شارح الطحاوية أنه قسمه إلى قسمين،

الأول: توحيد في المعرفة والإثبات، والثاني: توحيد في القصد والطلب.

الحلقة (٤)

سنتكلم إن شاء الله - وحديثنا موصولاً عما كان في الحلقات الماضية - سنتكلم عن التوحيد ومعانيه وعما يتعلق بذلك.

مصدر التوحيد: وحد، يوحد، توحيد، أي: جعلك الشيء واحداً، قد جاء في السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث معاذ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه، أن يوحدوا الله)، وجاء أيضاً في قول الصحابي - جابر - رضي الله عنه حيث قال: "فأهل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتوحيد، في قوله: لبيك الله اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك" التلبية المعروفة، هذا ما يتعلق بلفظ التوحيد كما جاء ذكرها في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

معنى التوحيد في اللغة: جعلك الشيء واحداً، أي: أن تفرد الشيء، تجعله واحداً،

فتوحيد الله سبحانه وتعالى، أن تجعل الله واحداً في ربوبيته وأسمائه وصفاته وألوهيته سبحانه وتعالى، وعلى ذلك دلت النصوص

التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما قسمه كثير من أهل العلم، وكما هو التقسيم المشهور:

○ توحيد الربوبية،

○ توحيد الألوهية،

○ توحيد الأسماء والصفات، هذا التقسيم هو المشهور، لكن بعض أهل العلم قسم تقسيماً آخر، قسمه على قسمين:

◀ توحيد في المعرفة والإثبات؛ المقصود توحيد في المعرفة أي: بأفعال الله سبحانه وتعالى في الربوبية، وفي الإثبات: إثبات ما أثبتته الله لنفسه، وأثبت له رسوله - صلى الله عليه وسلم - من الأسماء والصفات.

◀ توحيد في القصد والطلب؛ يراد به توحيد الألوهية.

هذا ما يتعلق بالتقسيم الآخر، هذه الأقسام الثلاثة المشهورة أو على التقسيم الآخر، جاءت في عبارات المتقدمين، من أئمة الحديث والأثر، فجاء عند أبي جعفر الطبري في التفسير وغيره وكلام ابن بطة وكلام ابن مندة رحمه الله وكلام ابن عبد البر، وغيرهم من أهل العلم، من أهل الحديث والأثر؛ خلافاً لمن يزعم من المبتدعة المتأخرين أن هذا من إنشاء ابن تيمية ومن تبعه وسار على نهجه، مثل ما حدث في الدعوة الإصلاحية (دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله) وهذا يعرفه كل منصف اطلع على كتب أئمة السلف ورجع إليها.

إذا نسير على التقسيم المشهور وهو تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

□ النوع الأول: توحيد الله سبحانه وتعالى بأفعاله، الذي هو التوحيد الخبري العلمي، توحيد في المعرفة وهو التوحيد الاعتقادي، هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من التوحيد، ولا يكفي وحده للدخول في الإسلام، فقد كان المشركون مقرين به، فلم ينفعهم ذلك ولم يدخلهم في الإسلام، لأنهم أشركوا في توحيد الألوهية، كما سيأتي بيان ذلك، لصرفهم بعض أنواع العبادة لغير الله عز وجل، كالذبح والطواف وغير ذلك مما كانوا يصرفونه لمعبوداتهم من دون الله عز وجل. يقول الله سبحانه وتعالى: { قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } ، وتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، فمن أقر بأن خالقه من العدم هو الله ومالكة ورازقه، وأن الله هو المتصرف بجميع أموره المدبر لها يلزمه أن يشكر الله سبحانه وتعالى على ذلك بأن يوحد بالعبادة وأن يطيع أوامره وأن يجتنب نواهيه، ويحرم عليه الشرك الذي هو ضد التوحيد في عبادة الله سبحانه وتعالى.

هذا التوحيد له أدلة من الفطرة، فقد فطر الله سبحانه وتعالى على الإقرار بربوبيته، وأنه هو الخالق الرازق، المحي المميت، وله أيضاً أدلة في دلالة الأنفس، فالنفس آية كبيرة من آيات الله الدالة على ربوبيته سبحانه وتعالى، أيضاً يدل على توحيد الربوبية، دلالة الآفاق، فلو تأمل الإنسان الآفاق وما أودع الله، فيها من الغرائب والعجائب لأدرك أن هناك خالقاً لهذه الأكوان، يقول الله سبحانه وتعالى: { سَرِّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } [فصلت: (٥٣)]، يدل أيضاً على توحيد الربوبية وعلى هذا النوع من أقسام التوحيد، الأدلة العقلية على توحيد الربوبية، لا نحتاج إلى الأدلة العقلية؛ ولكن البعض من لم يدخل في هذا الدين من الملحدين الذين يدعون أنهم لا يعبدون شيئاً، وهم يعبدون أهواءهم، يحتاج إلى مثل هذه الأدلة العقلية، لإثبات توحيد الربوبية.

فإن هم أنكروا الكتاب والسنة وأنكروا جميع الدلائل التي سبق ذكرها قبل قليل، يتحتم علينا أن نورد عليهم هذا الدليل، عسى أن ينفعهم به الله عز وجل، ويقروا بالله سبحانه وتعالى، ويتلو ذلك ما بقي من أنواع التوحيد. هذا الدليل مشهور عند أهل النظر [المتكلمين]، يوجد عندهم دليل التمانع وهو باختصار: أنه لو كان لهذا العالم خالقان؛ فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم ويريد آخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه ويريد الآخر إماتته أو يريد أحدهما رفعه والآخر يريد خفضه، وهكذا؛ أي: أنهما يختلفان على أمر محدد؛ إذا حصل هذا الخلاف، فإن ما سيحصل أحد أمور ثلاثة:

- الأمر الأول: أن يحدث مرادهما؛ أي: يحدث التحريك والتسكين مع بعضهما؛ وهذا ممتنع، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين.
- الأمر الثاني: أن يحصل مراد واحد منهما؛ أي: يحصل إما التحريك أو التسكين.

■ **الأمر الثالث:** أن لا يحصل مراد أحد منهما؛ أي: لا يحصل لا التحريك ولا التسكين، لا يحصل مراد أحد منهما وهذا **ممتنع أيضاً** إذ لو حصل هذا لما صلح أن يكون أحدهما إله، وهو ممتنع أيضاً لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون، فالجسم إما ساكن وإما متحرك، وأيضاً يلزم منه أن الاثنين كل منهما عاجز، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً. (وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر، فالذي يحصل مراده هو الإله، والذي لا يحصل مراده هو الذي لا يصلح للإلهية والألوهية)، هذا دليل التمانع باختصار.

يزعم أهل النظر أن هذا الدليل (دليل التمانع)، هو معنى قوله تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}، لأنهم يعتقدون أن توحيد الربوبية الذي قرره هو توحيد الألوهية الذي بيّنه القرآن الكريم ودعت إليه الرسل قاطبة، وليس الأمر كما يظن أهل الكلام، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وآخرهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ونزلت به الكتب، هو توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقولون بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق الرازق، وكفار العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يعتقدون أن الأصنام التي يعبدونها من دون الله أنها مشاركة لله في خلق العالم؛ بل كان حالهم، كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه التماثيل تماثيل قوم صالحين ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله عز وجل.

هذا النوع من التوحيد (توحيد الربوبية)، وقع فيه الإلحاد والجحود ووقع فيه الشرك:

من الذين وقعوا في الإلحاد في توحيد الربوبية [فرعون] كيف؟ بأنه ادعى لنفسه الربوبية، فقال: "أنا ربكم الأعلى"، هذا الإلحاد وجحود لهذا النوع من أنواع التوحيد، أيضاً وقع الإلحاد من القائلين (بالصدفة)، الذين يقولون إن هذا العالم لا خالق له، إنما وجد هذا العالم صدفة من غير خالق، أيضاً وقع من الطبايعيين، الذين يقولون الطبيعة هي التي تخلق، فصرفوا الأفعال التي هي من اختصاص الباري جل وعلا، صرفوها للطبيعة، ولم يجعلوا لله سبحانه وتعالى حظ منها تعالى عما يقولون، كذلك الماركسية الشيوعيون في العصور المتأخرة، ينكرون أن الله سبحانه وتعالى موجود، وينكرون أن الله هو الرب سبحانه وتعالى، ويرون أن هذه الحياة مادة، يقولون: لا إله، والحياة مادة، والدين أفيون الشعوب، فشابهوا الطبايعيين في ذلك، بأنهم جحدوا توحيد الربوبية.

وقع أيضاً الشرك في توحيد الربوبية، ومن الذين وقعوا في الشرك في توحيد الربوبية:

الثنوية من المجوس، أصحاب الاثنين الأزليين، فيزعمون أن النور والظلمة إلهان قديمان، يقولون: بأن هناك إله للنور وإله للظلمة، ويقصدون بإله النور (الله) سبحانه وتعالى، تعالى الله عما يقولون وعما يشركون، فأثبتوا أن الله الربوبية، وأن معه ربا غيره، لم يجحدوا ويلحدوا مثل السابقين، إنما أشركوا، أي: أثبتوا لله جزء من الربوبية، وجعلوا معه رب آخر، فوقع الاشتراك. وأيضاً من المشركين في توحيد الربوبية، المثلثة من النصارى، القائلين بالتثليث، الذين أثبتوا للعالم ثلاثة أرباب، فقالوا: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقلام، تعالى الله عما يقولون، فيقولون: باسم الأب والابن وروح القدس ثلاثة في واحد إلهنا وربنا، إذن هم أثبتوا ثلاثة أرباب، وجعلوه واحداً، والنصارى مختلفون فيما بينهم، لا يكادون يتفقون على عقيدة، فكيف ثلاثة يكون واحد؟ تعالى الله عما يقول الضالون، الذين سماهم الله سبحانه وتعالى بالضالين، إذ لم يهتدوا إلى الحق، هؤلاء النصارى قالوا بالتثليث، وهم يقصدون بالأب (الله) سبحانه وتعالى، والابن (عيسى) عليه السلام، وروح القدس (جبريل عليه السلام)، فهم أثبتوا للأب كما يدعون، لله ثلثا من الربوبية، والابن شريك ثلث، ولروح القدس ثلث، فوقع الشرك

منهم في الربوبية، فجعلوا لله ثلث حقه، تعالى الله عما يقولون.

القدرية، وقع منهم الشرك في الربوبية، كيف وقع الشرك منهم في الربوبية ؟

أن لازم مذهب القدرية، الذين ينكرون القدر، ويقولون الأمر أنف ويقولون أن العبد هو خالق فعل نفسه، وليس الله سبحانه وتعالى، أنهم يثبتون أن مع الله خالقا وهو الإنسان، إذ يخلق فعل نفسه.

الحاصل: أن القدرية وقعوا في الإشراك في الربوبية، حيث أثبتوا مع الله خالقا وهو الإنسان، والله سبحانه وتعالى يقول: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}، فالله سبحانه وتعالى، أثبت للإنسان خلقا، داخلا في خلقه، فالله خلق الصانع وصنعتة، فهم ينفون أن الله هو الخالق، وينفون العلم عن الله سبحانه وتعالى، ويقولون: إن العبد هو الذي يخلق فعل نفسه.

وأيضاً وقع شرك الربوبية من بعض عبدة الأصنام من مشركين العرب وغيرهم، بعضهم كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تنفع وتضر في الحياة الدنيا، فيتقربون إليها، وينذرون لها ويتبركون، على أنها تملك النفع والضرر، فيعتقدون أنها تنزل المطر، وتحي وتميت، وهذا في البعض وليس السائد عند العرب.

وأيضاً، من يقول من الرافضة: بأن الدنيا والآخرة، للإمام يتصرف فيها كيف يشاء، وغير ذلك مما هو من خصائص الربوبية التي يجعلونها لغير الله سبحانه وتعالى.

أيضاً، من النصيرية من غلا في (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه وأرضاه، وقالوا: بأنه هو المتصرف بالكون، والله وحده المتصرف بالكون، فجعلوا علياً رضي الله عنه، متصرفاً مع الرب سبحانه وتعالى، تعالى الله عما يقولون.

أيضاً، وقع ذلك من الدروز الذين غلوا في الحاكم بأمر الله (العبيدي) في الدولة الفاطمية، ومن ذلك قولهم: بأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولا يعلم الغيب إلا الله.

وفي نهاية الحلقة أعاد الدكتور شرح دليل التمانع وهو من الأدلة العقلية التي يستدل بها أهل الكلام على توحيد الألوهية والواقع أنه يدل على توحيد الربوبية

الحلقة (٥)

□ النوع الثاني من أنواع التوحيد وهو توحيد الألوهية

تعريفه: هو توحيد الله سبحانه وتعالى بأفعاله وتوحيد الله سبحانه وتعالى بالعبادة، يقول الشيخ حافظ حكيم في منظومته سلم الوصول

هذا وثاني نوعي التوحيد أفراد رب العرش عن ندي
أن تعبد الله إلها واحدا معترفا بحقه لا جاحدا

ولهذا النوع وهذا القسم أسماء أخرى يسمى بها، فهو توحيد الألوهية باعتبار إضافته إلى الله عز وجل أو باعتبار الموحّد، وهو توحيد العبادة باعتبار إضافته إلى الموحّد وهو العبد ولتضمنه إخلاص العبادة لله وحده، وأيضاً هو توحيد الإرادة لتضمنه الإخلاص والمراد فهو مبني على إرادة وجه الله بالأعمال، وهو توحيد القصد والطلب لتضمنه الطلب والدعاء من العبد لله وإخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، أيضاً هو توحيد الفعل والعمل لتضمنه لأفعال القلوب والجوارح ومبني على إخلاص العمل لله عز وجل، إذن هو توحيد الألوهية باعتبار الموحّد، وهو توحيد العبادة باعتبار إضافته إلى الموحّد وهو العبد، وهو توحيد الإرادة لتضمنه الإخلاص، وهو توحيد القصد والطلب لتضمنه الدعاء والطلب من العبد لله، وهو توحيد الفعل والعمل لتضمنه أفعال القلوب والجوارح، هذا النوع من التوحيد وهذا القسم من أقسام التوحيد أهم

أنواع التوحيد، فمن أجل تحقيق هذا النوع من التوحيد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لعباده إلى الجن والإنس لتحقيق هذا النوع وأنزل الكتب من السماء لتحقيق أيضا هذا النوع وسلت سيوف الجهاد من أجل هذا النوع من أنواع التوحيد وفرّق هذا التوحيد بين المؤمنين والكافرين وقبول الأعمال متوقف عليه.

وهو متضمن لجميع أنواع التوحيد فكلها تدخل فيه، فمن اعتقده فهو معتقد لغيره من أنواع التوحيد، توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، ومن اكتفى بغيره دونه لم يدخل في الإسلام، وعلى ذلك حارب النبي صلى الله عليه وسلم قومه كفار قريش عندما لم يوحدوا هذا التوحيد، والله سبحانه وتعالى يقول {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وقال {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت} وقد جاء في السنة ما رواه البخاري رحمه الله ومسلم وغيرهما من حديث معاذ رضي الله عنه حيث قال : (كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال: يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. فقال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا. قلت: أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلموا) هذا فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لمن يحقق هذا النوع من التوحيد.

النبي صلى الله عليه وسلم دعا إلى هذا النوع من التوحيد دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله لا يعبد إلا الله سبحانه وهي كلمة التوحيد، وهنا نستطرد في معنى كلمة التوحيد، والتي هي أساس الدين لا إله إلا الله وأنها أول ركن من أركان الإسلام، وأعلا شعبة من شعب الإيمان لا إله إلا الله كما ورد ذلك في الحديث، وهي أول واجب على المكلف، وآخر ما على المسلم أن يقوله قبل موته (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة).

وقبول الأعمال متوقف على النطق بها والعمل بمقتضاها، ومعنى هذه الكلمة لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله، ولا يجوز أن نقول إن معناها لا خالق إلا الله أو لا موجود إلا الله كما ورد ذلك عن بعض النحويين من أنه لا بد من تقدير أي لا إله في الوجود إلا الله وهذا باطل، فإن المعنى الصحيح لها أنه لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله.

وكلمة (إله) في لغة العرب: فعال بمعنى مفعول كغراس بمعنى مغروس وفراش بمعنى مفروش وكتاب بمعنى مكتوب فإنه فعال بمعنى مفعول، أي مألوه، والتأله في لغة العرب معناه التنسك والتعبد، فمألوه معناه معبود، ومنه قول رؤبة: لله در الغانيات المدة *** سبحن واسترجعن من تألهي

وكفار قريش المشركين في الجاهلية كانوا لا ينكرون أنه لا خالق إلا الله وعندما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم قولوا لا إله إلا الله قالوا: أجعل الآلهة إلها واحدا.

هذه الكلمة لها ركنان:

■ الأول: نفى في قوله "لا إله"

■ الثاني: إثبات في قوله "إلا الله"

فـ"لا إله" نفى الألوهية عن كل ما سوى الله و"إلا الله" أثبتت الألوهية لله وحده لا شريك له، وهذا الأسلوب يعرف في لغة العرب بأسلوب القصر، والقصر في كلمة التوحيد هو النفي والاستثناء.

هذه الكلمة لها شروط، وشروطها لا تصح إلا إذا اجتمعت واستكملها العبد والتزمها دون مناقضة لشيء منها، وليس المراد بهذه الشروط عد ألفاظها وحفظها، لكن المقصود العمل بها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزم بها ولو قيل له عداها لم يحسن ذلك، وكم من حافظ لهذه الشروط تراه يقع كثيرا في مخالفتها أو ما يناقضها، وهذه الشروط مستخرجة بالتتبع

والاستقراء وقد نظمها الشيخ حافظ حكيم رحمه الله في منظومة (سلم الوصول) بقوله:

العلم واليقين والقبول *** والأنقياد فادر ما أقول

والصدق والإخلاص والمحبة *** وفقك الله لما أحبه

وقد زيد شرط ثامن:

وزيد ثامن الكفران منك بما *** سوى الإله من الأوثان قد أله

وهو مستنبط من قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه) إذن

نقول هذه التقسيمات والشروط ونظمها وجمعها المقصود من ذلك هو التزامها والعمل بها، لا المقصود عد الألفاظ والحفظ.

هذه الشروط السبعة هي شروط لا إله إلا الله التي يجب على كل قائل بهذه الكلمة أن تتوفر فيه حتى تقبل منه، هذا فيما

يتعلق بتوحيد الألوهية على سبيل الإجمال والاختصار.

□ النوع الثالث من أنواع التوحيد هو توحيد الأسماء والصفات

المراد به: هو أن يوصف الله سبحانه وتعالى ويسمى بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم أو رسله

عليهم السلام، وينفي عنه ما نفى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله عليهم السلام، إذن نثبت لله ما أثبت لنفسه ونفي عن الله ما

نفاه عن نفسه.

باختصار: أي نثبت لله من الأسماء والصفات ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم أو رسله عليهم السلام،

ونفي عن الله ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله عليهم السلام

هذا بيان المعنى أما التعريف أو مذهب السلف في توحيد الأسماء والصفات مذهب أهل السنة والجماعة لأننا سنجد اختلافا

كثيرا، لأن هذا التوحيد طرأ عليه من البدع والحوادث ما الله به عليم، وخالف فيه من خالف من أهل الكلام وغيرهم من

المبتدعة الذين ضلوا طريق الحق.

❖ مذهب أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات:

أنهم يثبتون لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تكيف ومن غير تشبيه ومن غير تمثيل

ومن غير تحريف ومن غير تعطيل ومن غير تأويل، هذا هو مذهب السلف الصالح أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء

والصفات، وبيان التعريف ما يلي:

نقول السلف الصالح يثبتون لله ما أثبتته لنفسه أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تكيف.

١- **التكيف:** هو حكاية كيفية الصفة، فالسلف الصالح ينفون إثبات ذلك، يعني لا يثبتون لله سبحانه وتعالى كيفية الصفة،

وإنما يثبتون الصفة على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، إذن يختلف أهل السنة والجماعة عن المشبهة والمجسمة في توحيد

الأسماء والصفات: أن المجسمة أنهم يقولون في صفات الله أن لله حياة كحياة الإنسان، أو يقولون مثلاً أن لله يداً كيد

الإنسان وهنا وقع التشبيه والتجسيم.

أهل السنة يقولون لله يد تليق بجلاله سبحانه وتعالى، كيف؟ الكيف ممنوع لأننا لا ندرك هذه الكيفية، كما قال الإمام مالك

في حادثة الاستواء عندما سئل قال: الكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب، إذن الكيفية منفية، لكننا نثبت

حقيقة الصفة، ونثبت الصفة لله على وجه الكمال، على وجه يليق بالله سبحانه وتعالى، وبيان ذلك سيرد علينا أثناء الحلقات

القادمة.

٢- ينفون أيضا التشبيه والمشابهة لا تقع بين الخالق والمخلوق.

٣- وينفون كذلك التمثيل هم يثبتون لله الأسماء والصفات، لكن من غير تمثيل، والتمثيل هو إثبات المثل للشيء.

وكذلك ينفون عن الله سبحانه وتعالى ما نفاه عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

٤- من غير تحريف أو تأويل أو تعطيل، فالتحريف تغيير النص لفظاً أو معنى، مثل ما فعل أهل الكلام عندما قالوا: الرحمن

على العرش استوى قالوا: الرحمن على العرش استوى، استوى بمعنى استولى، فحرفوا النص.

التعطيل معنى كلمة التعطيل أي التوقيف "وبئر معطلة" أي مهجورة، فالتعطيل هو إنكار ما يجب لله سبحانه وتعالى من

الأسماء والصفات، أو إنكار بعضاً منها، فالتعطيل هو جحود لأسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته أو لبعض منها.

التأويل ينفون عن الله سبحانه وتعالى ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تأويل، المقصود

التأويل الفاسد الذي هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح من غير دليل، وليس بمعنى التفسير الذي دعا به

النبي لابن عباس.

فالمقصود بالتأويل الذي ينفونه السلف الصالح عن أسماء الله وصفاته هو التأويل المذموم، الذي هو صرف اللفظ عن

الاحتمال الراجح إلى المرجوح من غير دليل.

❖ وهناك أسس يقوم عليها أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والصفات:

▪ أولها: أن أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته توقيفية، وما لم يرد به النص يتوقف فيه ويستفصل عن معناه.

فمثلاً: إثبات الجسم لله سبحانه وتعالى من الألفاظ الحادثة، فنتوقف لنقول هل لله جسم أو ليس له جسم -سيأتي بيان

ذلك- ولكن يقال لهم نتوقف في ذلك ويقال لهم ما مرادكم بالجسم؟ إن تقصدون أن الله سبحانه وتعالى له الأسماء

الحسنى ومتصف بالصفات فنحن نؤمن بذلك، وإن كنتم تقصدون بالجسم أنه ما يحتوي على لحم ودم وعظم فهذا منفي عن

الله سبحانه وتعالى، إذن أسماء الله وصفاته توقيفية.

▪ الثاني: أن كل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فهو حق على حقيقته لا يحتاج إلى من

يفسره، فالأسماء والصفات من قبيل المحكم، وإنما الكيفية هي التي من قبيل المتشابه.

▪ الثالث: أيضاً الكلام في الصفات كالكلام في الذات للباري جل وعلا.

▪ الرابع: أن تنزيه الله عن النقائص والعيوب هو تنزيه بلا تعطيل لمعاني الصفات ولا لمدلولاتها.

▪ الخامس: أيضاً الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات كيف؟ إجمال في النفي كما جاء في القرآن { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } {

إجمال، والتفصيل في الإثبات تمام الآية { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } فالإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات، إذ النفي المحض لا

كمال فيه بل هو ذم، فطريقة أهل السنة والجماعة هي الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات.

◀ هناك قواعد في صفات الله سبحانه وتعالى كالمفاتيح لكم:

١- أن صفات الله سبحانه وتعالى صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

٢- أن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، وذلك لأن كل اسم متضمن لصفة، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله،

وأفعاله سبحانه وتعالى لا تنتهي لها.

❖ هناك تقسيم للصفات:

أن صفات الله سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين: ثبوتية ومنفية.

◀ **الثبوتية:** ما أثبتته الله لنفسه في كتابه أو أثبتته له رسوله صلى الله عليه وسلم.

◀ **المنفية:** هي ما نفاه الله عن نفسه ونفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم.

◀ **الثبوتية تنقسم أيضاً إلى قسمين:**

○ **ذاتية:** هي التي لم يزل الله ولا يزال متصفا بها، وهي التي لا تنفك عنه كالعلم والحياة والقدرة.

○ **فعلية:** هي التي تتعلق بمشيئته سبحانه إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء والنزول فالله سبحانه وتعالى يستوي على عرشه وينزل إلى السماء الدنيا.

وقد تكون الصفة ذاتية وفعلية باعتبارين:

كصفة الكلام لله عز وجل، فباعتبار أصل هذه الصفة هي صفة ذاتية لله سبحانه وتعالى لم يزل متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام فهي صفة فعلية لأن الكلام يتعلق بمشيئته سبحانه وتعالى، فيتكلم بمشيئته متى شاء وبما شاء.

بعض الفرق التي أشركت أو ضلت بهذا التوحيد توحيد الأسماء والصفات وسيأتي ذكرها:

منها **الجهمية** أتباع الجهم بن صفوان الذين ينكرون الأسماء والصفات.

ومنهم **المعتزلة** أتباع واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الذين يثبتون الأسماء وينكرون الصفات.

ومنهم **الأشاعرة** أتباع أبي الحسن الأشعري وهم يثبتون الأسماء وبعض الصفات وقالوا إن لله سبع صفات على ما سيرد تفصيل ذلك.

الماتريدية أصحاب أبي منصور الماتوريدي الذين يثبتون الأسماء وبعض الصفات وإن كان هذا الإثبات مخالف لعقيدة أهل السنة.

المثلية الذين ضلوا في توحيد الأسماء والصفات، وأثبتوا صفات لله كصفات المخلوقين، وقيل أن أول من قال بذلك هو هشام بن الحكم الرافضي.

الحلقة (٦)

سنتكلم عن قول الله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وعن قول المؤلف: "ولا شيء مثله"

فاتفق أهل السنة والجماعة على أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، لكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً وهنا لعل أبيه، فالله سبحانه وتعالى عندما قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} هذا راجع لنفي المماثلة، والذي جاء في الكتاب والسنة أن يُنفي عن الله عز وجل أن يماثل أحداً أو شيئاً من خلقه، وكذلك يُنفي عن المخلوق أن يكون مماثلاً لله عز وجل، وإذا كان ذلك كذلك، فالمماثلة أو التمثيل أو المثلية: تعرّف بأنها المساواة في الكيف أو الوصف [كيفاً أو وصفاً].

فالمساواة في الكيفية راجعة إلى أن يكون اتصافه بالصفة من جهة الكيفية مماثلاً لاتصاف المخلوق كقولهم تعالى الله عن ذلك: [يد الله كأيدينا وسمعه كأسماعنا] وأشبه ذلك، أما المماثلة في الصفات فهي أن يكون معنى الصفة بكماله التام في الخالق كما هو في المخلوق.

إذا اتضح ذلك فإن اعتقاد المماثلة في الكيفية أو في الصفة على النحو الذي ذكرته لك هذا تمثيلٌ يكفر صاحبه أي [يكفر بالله عز وجل] ولهذا كَفَر أهل السنة النصارى، وكَفَر أهل السنة المُجسمة، لأن النصارى شبهوا المخلوق بالخالق، وشبهوا عيسى عليه السلام بالله عز وجل، و المُجسمة شبهوا الله ومثلوه بِخَلْقِهِ، يقولون: "يد الله كأيدينا" هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني الفرق بين الماثلة والمثلية وبين التشبيه.

◀ ما الفرق بين الماثلة وبين التشبيه ؟

في قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، المثل هنا في نص الآية الله سبحانه وتعالى ليس كشيء شيء ونقول ليس كمثله، ولتقرير ذلك يجب أن نتنبه أن الذي جاءنا في الكتاب هو الماثلة وليس الشبه أو المشابهة، لم يأت نفي المشابهة وإنما الماثلة، فنفي المشابهة [مشابهة الله سبحانه وتعالى لخلقه] فإنها لم تنف في الكتاب والسنة، لأن المشابهة تحتل أن تكون مشابهة تامة أو مشابهة ناقصة، فإذا كان المراد المشابهة التامة فإن هذه معناها [التمثيل] إذن لم يرد في الكتاب والسنة نفي المشابهة، وإنما ورد نفي الماثلة، والمشابهة التامة هي بمعنى الماثلة إذن لفظ المشابهة ينقسم إلى قسمين:

١- موافق للماثلة وهي [المشابهة التامة].

٢- غير موافق للماثلة وهي [المشابهة الناقصة].

يعني يشترك معنى الشبيه والمثيل ويكون معنى واحد، وإذا أُريد بالمشابهة التامة في الكيفية وتتمام معنى الصفة، أما إذا كان المراد بالمشابهة الناقصة أي [يشبه من وجه] وهي الاشتراك في أصل معنى الاتصاف فإن هذا ليس هو التمثيل المنفي. إذن هناك مشابهة تامة وناقصة، فلا ينفي هذا المعنى الثاني، أي [المشابهة الناقصة]، وتكون هناك مشابهة بأن يكون هناك اشتراك في أصل المعنى، وإذا كان كذلك فإن لفظة الشبيه والمثل بينهما فرق، ولفظ المشابهة لفظ مجمل لا ينفي ولا يثبت، وأهل السنة إذا قالوا إن الله عز وجل لا يماثل شيء ولا يشابه شيء يعنون بالمشابهة الماثلة.

أما المشابهة التي هي الاشتراك في المعنى، فنعلم أن الله عز وجل لم ينفها عن نفسه، لأنه سبحانه وتعالى سمي نفسه بالملك {مَالِكِ يَوْمَ الدِّينِ} في قراءة وقال {الْمَلِكُ الْحَقُّ}، وسمى بعض خلقه بالملك {وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ} وسمى نفسه العزيز وسمى بعض خلقه بالعزيز، وكذلك جعل نفسه سمياً وأخبرنا بصفة السمع له والبصر والقوة والقدرة والكلام وأشباه ذلك، وأثبت هذه الأشياء للإنسان فيما يناسبه منها، فهذا الكلام دقيق، فدل على أن الاشتراك في اللفظ وفي بعض المعنى ليس هو التمثيل الممتنع، لأن كلام الله عز وجل حق وبعبه يفسر بعض، فنفي الله سبحانه الماثلة {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وأثبت اشتراكهما في الصفة فقال {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}.

إذا قلنا اشتراك ليس معنى ذلك من الأسماء المشتركة في الصفات، لكن أثبت اشتراكاً في الوصف، فإن الإنسان له ملك والله عز وجل له الملك والإنسان له سمع معلوم والله سبحانه وتعالى له سمع يليق بجلاله وبصر يليق بجلاله سبحانه وتعالى، فليس ثمة شبه بين سمع المخلوق وسمع الخالق سبحانه وتعالى، لكن إثبات هذا فيه قدر من المشابهة، لكنها مشابهة في أصل المعنى، وليست مشابهة في تمام المعنى ولا في الكيفية.

فيتحصل من ذلك أن المشابهة ثلاثة أقسام:

• القسم الأول: مشابهة في الكيفية وهذه ممتنعة أن يشابه المخلوق الخالق سبحانه وتعالى، فتكون كيفية يد الإنسان ليست ككيفية يد الله سبحانه وتعالى، كيفية يد الإنسان معلومة وأنها ضعيفة، ويد الخالق لها كيفية تليق بجلاله وله الكمال في ذلك سبحانه وتعالى من غير إثبات الكيفية.

• القسم الثاني: مشابهة في تمام الاتصاف ودلالة الألفاظ على المعنى لكماها وكذلك هذا ممتنع.

• القسم الثالث: مشابهة في معنى الصفة، أصل المعنى، وهو مطلق المعنى، وهذا ليس بمنفي، ولهذا صار لفظ التمثيل ونفي التمثيل ونفي المثلية شرعية، لأنه واضح ودلالته غير محتملة، لذلك جاء في القرآن نفي المثلية لا نفي التشبيه، أما لفظ

المشابهة فإن دلالة مجملته، فلذلك لم يأت نفيه في القرآن.

لذلك نقول إن الله سبحانه وتعالى لا يماثله شيء ولا يشابهه شيء سبحانه وتعالى، ونعني بقولنا لا يشابهه شيء: بمعنى المماثلة في الكيفية أو المماثلة في تمام الاتصاف بالصفة وتمام دلالة اللفظ على معناها، هذا فيما يتعلق بقول المؤلف: "ولا شيء مثله".

يقول الشارح: "والموجود في الخارج لا يوجد كلياً بل يوجد معيناً مختصاً"، فإذا اتفقنا في مسمى الوجود والعلم والقدرة فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان، أي [الوجود والعلم والقدرة] لا في الأعيان والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه أي [الموجود في الذهن يختلف عن الموجود في الواقع في الأعيان] وهذا الموضع موضع اضطراب بين كثير من المتكلمين، حيث يتوهمون أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد، أي أنك إذا تصورت يداً فإن هذا التصور الذي في ذهنك لا يحق لك أن تطبقه على كل الأعيان الموجودة في الخارج، مثال: فإنك إذا تصورت يد قط في ذهنك لا يحق أن تطبقه على الجمل فهي مختلفة يد الجمل تختلف عن يد القط.

فإذا اتفقنا على هذا، فإن هذا الموضع اضطرب فيه أهل الكلام، وضلوا فيه، فكان مزلة قدم لهم، حيث أنهم توهموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء -يعني هذه يد... وهذه يد فهذه يد قط.. وهذه يد بعوضة.. وهذه يد بعير، تختلف لكنها كلها تشترك في أنها يد- توهموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد، العبد موجود، له وجود يختص به، وكذلك الخالق سبحانه وتعالى له وجود يليق بجلاله سبحانه وتعالى وتقدس في أسمائه وصفاته.

طائفة ظنت أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك اللفظي وكابروا عقولهم، فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم، كما يقال الموجود ينقسم إلى واجب وممكن وقديم وحادث، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام، واللفظ المشترك كلفظ [المشتري] يقع على الكوكب -كوكب المشتري الذي في السماء- ويقع على المبتاع -الذي يشتري من أحد- فلفظ المشتري هذا من قبيل اللفظ المشترك.

واللفظ المشترك ليس هو المنفي المثلية كما جاء عن الله {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ليس داخل في هذا، لذلك هم يقولون لا ينقسم المعنى، ولكن يقال لفظ المشتري يقال على كذا وعلى كذا، العين الباصرة والعين الجسوس وعين الماء هذا من اللفظ المشترك، وأمثلة هذه المقالات التي بُسط الكلام عليها في المواضيع، إذن لانفصل ولكن نوضح كلام الشارح أنهم وقعوا في الزلل عندما قالوا بالاشتراك اللفظي فيقولون [هذه يد... وهذه يد] فهنا هذا مختلف، وفي الحقيقة أن هناك يجب أن يوجد في المشابهة أصل المعنى، وليس تمام المشابهة كما فصلنا في النقطة الماضية.

وأصل الخطأ أنهم توهموا هذه الأشياء العامة الكلية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعين وهذا المعين، أي [إذا قلت يد يجب أن تكون يد البعوضة كيد البعير وهذا محال، وإنما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً لا يوجد إلا معيناً مختصاً] [فإذا قلت يد لا يجوز أن تطلق يد وتطبقها على كل شيء، فهناك اختلاف، فالذي يوجد في الذهن يختلف عما يوجد في الخارج، فما يوجد في الخارج لا يوجد إلا معيناً مختصاً] وهذه الأسماء إذا سُمي الله بها كان مسماها معيناً -هنا الشاهد- كان مسماها معيناً مختصاً به، فإذا سمي العبد كان مختصاً به، إذا قلت يد العبد ينصرف ذهنك إلى هذه اليد، وإذا قلت يد الله سبحانه وتعالى لا تعلم كيفيتها، فينصرف ذهنك إلى يد لها الكمال وتليق بجلال الخالق الباري سبحانه وتعالى، إذن هناك اختصاص، الموجود في الخارج مختص ويكون معين، فوجود الله سبحانه وتعالى لا يُشاركه فيها غيره، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشاركه فيه غيره، إذا كان في حق المخلوق فكيف بحق الله سبحانه وتعالى.

ألا ترى أنك تقول هذا هو ذاك، فالمُشار إليه واحد ولكن بوجهين مختلفين، يقول الشارح وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى وزادوا فيه على الحق فضلوا، وأن المعطلة أخذوا نفي الماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا، وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه.

فالفئة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه وتعالى عن التشبيه بشيء من خلقه، لكنهم أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله عز وجل [في نفس الأمر].

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات لكن أساءوا في زيادة التشبيه.

فالفئة نفوا عن الله سبحانه وتعالى نزوهه بأن نفوا عنه التشبه بأنه لا يشبهه شيء، لكنهم أساءوا في نفي المعاني، سميع بغير سمع، أو بصير بغير بصر، أساءوا بذلك، أيضا المشبهة أحسنوا بأنهم أثبتوا لله سبحانه وتعالى الصفات لكنهم زادوا فشبهوها بالمخلوق فهنا وقع الزلل والخطأ.

إذن الفئة وقعوا في الزلل بأنهم غالوا في النفي والمثبتة المجسمة المشبهة غالوا، حتى وقعوا في التشبيه المذموم المنكر، الذي يجعلون فيه الخالق مشابهاً للمخلوق في كل شيء، هذا بالنسبة إلى ما يتعلق بهذه المفردة من المنهج وهي [الموجود في الخارج] لا يوجد كلياً بل يوجد معيناً مختصاً.

النقطة التي تليها هي: (توقف فهم المعاني عند المخاطب على معرفة عين مسماها أو ما يناسب عينها).

يجب أن تعلم أن المخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها [لا بد أن يعرف العين التي تتحدث عنها] المخاطب لا يعرف، [مثل أن تأتي بإنسان لا يعرف جهاز الراديو أو على بداية اختراعه فتقول له جهاز الراديو أو المذياع فهو لا يعرف ذلك، حتى تشير إليه وتريه هذا الجهاز وما هو وما مكونه وما معناه وما فائدته فعند ذلك يتبين له ذلك].

فالمخاطب لا يفهم المعاني المعبر عنها باللفظ إلا أن يعرف عينها، يراها بعينه ويعرف ماهيتها، أو ما يناسب عينها [أن تصف له فوائدها أو ماهيتها] ويكون بينهما قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى، لذلك الله سبحانه وتعالى ذكر فاكهة الجنة فيها مشابهة للموجود في الدنيا، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت)، فالاسم واحد لكن هناك مشابهة في هذا الأمر فلا يمكن أن تفهم المخاطب بدون هذا قط، حتى في أول تعليم معاني الكلام [بتعليم معاني الألفاظ المفردة] مثل عندك تربية الصبيان، والمؤلف أشار إلى هذا المثل مشهودا بالإحساس الظاهر أو الباطن فيقال له هذا لبن [فيشار إلى هذا الشراب الأبيض الخالص ويقال هذا خبز وهذه أم وهذا أب وهذه سماء وهذه أرض وهذه شمس] يشار إليها مع العبارة أي [كل مسمى من هذه المسميات] وإن لم يفهم معنى هذا اللفظ ومراد الناطق به، وليس أحد من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي كيف و آدم أبو البشر أول ما علمه الله تعالى أصول الأدلة السمعية وهي (الأسماء كلها) وكلمه وعلمه بخطاب الوحي ما لا يعلمه بمجرد العقل، (إذن يتوقف فهم المعاني المعبر بها باللفظ على معرفة عينها).

الحلقة (٧)

مفردات هذه الحلقة:

- الحقائق الشرعية وكيفية دلالة الألفاظ عليها
- قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء
- التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية وهو سبيل أهل السنة

- المعطلة الذين يعرضون عن ما قاله الشارع من الأسماء والصفات
- معنى الأول والآخر

مفردة [الحقائق الشرعية وكيفية دلالة الألفاظ عليها]

أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما بين لنا أموراً لم تكن معروفة قبل ذلك عندنا وعند الصحابة وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها أتى بألفاظ تناسب هذه المعاني، وجعلها أسماء لها، فيكون بينها قدرٌ مشترك كالصلاة والزكاة والصيام والإيمان والكفر، كذلك الرسول عليه الصلاة والسلام لما أخبر بأمور تتعلق بالإيمان بالله سبحانه وتعالى وباليوم الآخر، الناس لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها، أخذ من اللغة الألفاظ التي تناسب لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية والمعاني الشهودية التي يبصرونها ويعرفونها، وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد، كتعليم الصبي، كما قال ربيعة الرأي: (الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم).

وما يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من الأمور الغائبة _ على نوعين:

النوع الأول: فقد يكون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم كإخبارهم بأن الريح أهلكت عاداً، فإن عاداً من جنسهم بشر من مثلهم، والريح من جنس الريح التي عندهم وإن كانت أشد، فهذا فهم، وكذلك غرق فرعون في البحر، فرعون بشر فلا يحتاجون إلى تبين لأنه من جنسهم، وكذلك البحر معروف عند الناس، كذلك الأخبار عن الأمم الماضية ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا كما يقول الله سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}.

النوع الثاني: وقد يكون مما لم يدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجه، لكن يشبه مفردات الناس في بعض الوجوه كما يخبرنا الله سبحانه وتعالى بالأمور المتعلقة به سبحانه وتعالى جل وتقدس في أسمائه وصفاته وعن اليوم الآخر، فلا بد أن يعلموا معنى مشتركاً وشبهها بين مفردات تلك الألفاظ كما ذكرت الفاكهة في الدنيا والفاكهة في الآخرة هي ليست كما هي في الدنيا، لكن قدرٌ مشترك بينها.

وبين هذه المفردات ألفاظ مما علموه في الدنيا بحسهم وعقلهم، فاكهة الرمان في الدنيا معلوم عند الجميع الرمان الذي ينبت من الشجر وبداخله حب وطعمه حلو، وفي الآخرة من فاكهة الجنة "الرمان" أخبر الله سبحانه وتعالى في القرآن أنها من فاكهة الجنة، فـ"رمان في الجنة" ليس كـ"رمان الدنيا"، لكن هناك قدر مشترك بين رمان الدنيا ورمان الآخرة. كذلك الخمر، هناك خمر محرم وشربه من الكبائر في الدنيا، وهو من لذة أهل الجنة في الجنة، هناك أنهار من خمر، لكنه خمر ليس كخمر الدنيا، فهناك قدر مشترك.

مفردة [قدرة الله عز وجل وأنه لا يعجزه شيء]

لكمال قدرته سبحانه وتعالى أخبر الله عن نفسه: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، {وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا}، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}، ويقول الله تعالى: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {وَلَا يَئُودُهُ} أي: لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه، فهذا النفي لشبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لشبوت كمال ضده، كقوله تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}، لكمال عدله، {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} لكمال علمه، وقوله تعالى: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} لكمال قدرته، {لَا تَأْخُذُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} لكمال حياته وقيوميته، و{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه، [يعني أنك تنفي نفياً صرفاً هذا يعتبر من الذم] ومن ذلك قول الشاعر قيس بن

عمرو يصف قبيلته يقول:

قُبَيْلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةِ *** وَلَا يَظْلُمُونَ النَّاسَ حَبَةَ خَرْدَلٍ

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيره بقوله "قُبَيْلَةٌ" عُلِمَ أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم.

يعني { وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ } الذي يكظم الغيظ هو الذي يستطيع أن يفعل ومع ذلك يكظم غيظه، { الْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ } من الذي يستطيع أن يعفو هو الذي يستطيع أن يبطش، فلما استطاع أن يبطش عفا فكانت له هذه المنزلة وهي العفو عن الناس، إذن يتبين من قول الشاعر أنه أراد هجاءهم وذمهم بأنهم على قدر كبير من الضعف، ويقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد *** ليسوا من الشرفي شيء وإن هانا

أي شر كان لا يكونون فيه وإن كان سهلاً، وإن كان هذا البيت فيه نظر من حيث الدلالات الأخرى له لكن المقصود هنا أن النفي المحض، النفي الصرف هو من الذم، لكن هنا النفي في حق الله سبحانه وتعالى إنما هو لكمال إثبات الضد، فالله سبحانه وتعالى ينفي عن نفسه التعب واللغوب لكمال قدرته، وينفي عن نفسه السِّنة والنوم لكمال حياته وقيوميته التي أثبتتها لنفسه.

لذلك يأتي الإثبات للصفات مفصلاً في كتاب الله، والنفي مجملاً، على عكس طريقة أهل الكلام المذموم: فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، يقولون: الله ليس بجسم ولا بشبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا طعم ولا رائحة ولا بذي حرارة ولا برودة ولا يسكن ولا يتحرك ولا يتبعض وليس بجوارح وليس له أعضاء، وليس له جهات، ... كل هذا إنما هو من مخالفة للطريق الصحيح والصواب وهو الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات.

هذا ما يتعلق بقدرة الله سبحانه وتعالى والكلام على هذه النقطة وهي قدرة الله سبحانه وتعالى و يظهر ذلك لمن يعرف الكتاب والسنة، وأن هذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، وفيه إساءة أدب مع الله سبحانه وتعالى، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزال، تريد أن تمدحه، ولا حجام ولست بكذا...، فإنه لن يحمل ذلك منك إلا على سوء الأدب، وإن كنت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي: فقلت أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، وهكذا فتكون أجملت في النفي وأجملت في الأدب.

مفردة [التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية وهو سبيل أهل السنة والجماعة]

التعبير بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة السلف الصالح، لكن المعطلة يعرضون عما قاله الشارع الله سبحانه وتعالى من الأسماء والصفات، ولا يتدبرون معانيها، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده.

[وأهل السنة وأهل الإيمان الحق يجعلون ما قاله الله وقاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده]. والذي قاله هؤلاء إما أن يعرضوا عنه إعراضاً جملياً أو يبينوا حاله تفصيلاً، ويحكم عليه بالكتاب والسنة، [ولا يحكم به على الكتاب والسنة]

ولعلكم تلاحظون أن ما سيمر علينا في المنهج من نقاط صعبة وفيها صعوبة وليست تستصعب على الفهم، إنما هي من قبيل ما أورده أعداء أهل السنة المبتدعة على هذه العقيدة الصافية، وإلا فالعقيدة سهلة ميسرة {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ

فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ{.

الله يسر دينه ويسر الأمور التي يجب أن تعتقد فيه سبحانه وتعالى ويسرها للناس، لكن الناس عسروها على أنفسهم وعلى بني جنسهم زعما بأنهم بذلك نزهوا الباري جل وعلا، وإنما هم أوقعوهم في الضلال. إذن كل ما يأتي من مسألة فيها صعوبة تمر علينا في هذا المنهج، إنما هذه الصعوبة جاءت لبدعة أحدثت أو لمقالة قيلت، فيها مخالفة للكتاب والسنة، إنما ما جاء به القرآن والسنة هو سهل واضح تقول في النفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وتقول في الإثبات { وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } سهولة ولا يوجد فيها أي صعوبة، إذن هناك نفي وهناك إثبات واضح وليس عليه إشكال، إنما الإشكال جاء من فهم من أعاروا عقولهم لعقول الفلاسفة وأهل الكلام وحشروا عقولهم بمزاحمة النقل الذي جاء عن الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المقصود: أن غالب عقائدهم [المبتدعة] مبنية على الأسلوب، ليس بكذا، ليس بكذا، وأما الإثبات فهو قليل، وهي أنه عالم قادر حي، وأكثر النفي المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة، ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات، فإن الله تعالى قال: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ففي هذا الإثبات ما يقرر معنى النفي، ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال، فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه، ووصفه به رسله، ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله، مما أخبرنا به من صفاته، وله صفات لم يطلع عليها أحد من خلقه، وكما قال رسوله الصادق صلى الله عليه وسلم في دعاء الكرب: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَ بِهِ نَفْسُكَ أَوْ أُنْزِلَتْ فِي كِتَابِكَ..) إلى آخر الحديث الذي أخرجه أحمد وحسنه الحافظ وابن القيم _ في شفاء العليل...، وسيأتي التنبيه على فساد طريقة [المبتدعة] في الصفات إن شاء الله تعالى كما سيأتي في بقية المنهج.

وليس قول الطحاوي: "ولا شيء يعجزه" من النفي المذموم، فإن الله سبحانه وتعالى قال قال {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا} فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز، وهو كمال العلم والقدرة، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريد الفاعل، وإما من عدم علمه به، والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة، وهو على كل شيء قدير، وقد علم ببداءة العقول والفطر كمال قدرته وعلمه، فانتفى العجز لما بَيَّنَّه وبين القدرة من التضاد، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهًا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. هذا ما يتعلق بالتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية هو سبيل أهل السنة، وكذلك المعطلة إنما يُعرضون عما قاله الشارع من الصفات والأسماء بالسلوب.

مفردة [وهي معنى الأول والآخر] وعبر عنه الطحاوي رحمه الله: [قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء] وسيأتي الكلام على لفظة القديم، يقول الله سبحانه وتعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} وقال صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ).

فقول الشيخ رحمه الله: "قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء" هو معنى اسمه الأول والآخر، وهو من المعاني الناقصة، والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقر في الفطر، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي إلى واجب الوجود لذاته، قطعاً للتسلسل، وسيأتي مبحث التسلسل إن شاء الله.

فإننا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك، هذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة، فإن الممتنع لا يوجد، ولا واجبة الوجود بنفسها، فالواجب الوجود يقصد به الله تعالى لا يقبل العدم، وهذه مقدمة منطقية لا

نحتاج إليها.

أيضا يقول الله سبحانه وتعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ}، فأثبت الضعف للمخلوقين وبضده كمال القدرة والخلق له سبحانه وتعالى وأنه هو الأول فليس قبله شيء، فالله سبحانه يقول: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} أَحَدَثُوا مِنْ غَيْرِ مُحَدَّثٌ أَمْ هُمْ أَحَدَثُوا أَنْفُسَهُمْ؟ ومعلوم أن الشيء المحدث لا يوجد نفسه.

وإذا تأملت غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطرق العقلية، وجدت أن الصواب منها يعود إلى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يوجد عندهم مثله، قال تعالى: {وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}.

ولا نقول لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة الطويلة، فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية، فربما ظهر لبعض الناس ما خفي على غيره، ويظهر للإنسان الواحد في حال ما خفي عليه في حال أخرى. المتكلمون أدخلوا لفظة القديم وتبعهم الطحاوي رحمه الله مخطئا في ذلك بإدخال هذه اللفظة وجعلها من أسماء الله سبحانه وتعالى.

القديم ليس من أسماء الله الحسنى، لأنه لم يرد به الكتاب ولم ترد به السنة، هذا ابتداء ونكتفي بهذا، ولكن إذا تنزلنا معهم في النقاش والمناقشة فنقول القديم في لغة العرب التي نزل بها القرآن لم يُستعمل في هذا، استعمل في المتقدم على غيره، فيقال: هذا قديم للعتيق وهذا حديث للجديد.

لم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدم على غيره، لا فيما لم يسبقه عدم، كما قال تعالى: {حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ}، والعرجون القديم الذي يبقى إلى حين وجود العرجون الجديد الثاني، فإن وجد الجديد قيل للأول: قديم، وقيل للثاني جديد، وقال تعالى: {وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ}، أي متقدم في الزمان.

يقول الله تعالى: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ} فالأقدم مبالغة في القدم، ومنه القول القديم والجديد للشافعي رحمه الله تعالى، وقوله تعالى {يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أي يتقدمهم.

إذا ظهر لك هذا فإن لفظ القديم لم يكن مستعملاً قبل، فإدخال لفظ القديم في أسماء الله تعالى مشهور عند أكثر أهل الكلام، فقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلف، والحق معهم ومنهم ابن حزم [أنكر ذلك]، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدم، فإنما تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم عن غيره.

لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل على خصوص ما يمدح به، والتقدم في اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها، فلا يكون من الأسماء الحسنى، وقد جاء الشرع باسم الأول، وهو أحسن من القديم، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه وتابع له، بخلاف القديم، والله تعالى له الأسماء الحسنى لا الحسنة.

الحلقة (٨)

معنى قول المؤلف رحمه الله "لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد"

والرد على القدرية والمعتزلة باختصار وكذلك الفرق بين الإرادتين [الإرادة الدينية والإرادة الكونية]

قوله: "لا يفنى ولا يبيد"

إقرار بدوام بقاءه سبحانه وتعالى، فالله يقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} والفناء والبيد متقاربان في المعنى والجمع بينهما في الذكر للتأكيد، وأيضا مقرر ومؤكد لقول المؤلف: "دائم بلا انتهاء".

ويقول المؤلف: "ولا يكون إلا ما يريد" يقصد الله سبحانه وتعالى وفي هذا رد على القدرية والمعتزلة

-وبالمناسبة القدرية يشترك فيها أكثر الفرق، القول بمقولة القدر والابتداع في القدر يدخل فيه كثير من الفرق، فعندما نقول الجهمية فهم في الحقيقة قدرية، وكذلك المعتزلة هم قدرية، وكذلك الأشاعرة عندهم خلل في القدر وقول بما ينافي ما جاء بالكتاب والسنة في أمر القدر فإذن عندهم مخالفة في هذا وعندهم انحراف في هذا الباب المهم من أبواب الاعتقاد الذي إذا سلبه الإنسان سلب الإيمان كله، فلا يذوق طعم الإيمان من لا يؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره- "ولا يكون إلا ما يريد" رد على القدرية والمعتزلة وغيرهم ومن نحا نحوهم، فإنهم زعموا بأن الله أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر، وقولهم فاسد مردود بمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح.

سموا قدرية لأنكارهم القدر، وكذلك تسمى الجبرية قدرية لأنهم محتجون بالقدر، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب، يعنى الجبر ادعوا بأن الإنسان مقدر عليه كل شيء وأنه مجبور على كل شيء، فيسمون من هذا الوجه جبرية.

أما أهل السنة فيقولون إن الله وإن كان يريد المعاصي قدرا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها ويكرها وينهى عنها وهذا قول السلف قاطبة.

فيقولون ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولهذا اتفق الفقهاء على أن الحالف لو قال: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لم يحنث إذا لم يفعله، وإن كان واجبا أو مستحبا، ولو قال إن أحب الله، حنث إذا كان واجبا أو مستحبا.

← ننتقل إلى مسألة تقسيم الإرادة إلى نوعين

▪ النوع الأول: الإرادة القدرية الكونية الخلقية

▪ والنوع الثاني: الإرادة الدينية الأمرية الشرعية

الإرادة الشرعية [النوع الثاني] هي المتضمنة للمحبة والرضا.

أما الإرادة الكونية [النوع الأول] فهي شاملة لجميع الحوادث، وهذا كقوله تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} ويقول الله سبحانه وتعالى: حكاية عن نوح: {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ}، ويقول الله تعالى: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

وأما الإرادة الثانية الإرادة الشرعية تتضح في قول الله سبحانه وتعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}، وقوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا} {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ} {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ}، فهذه الإرادة المذكورة، مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يريد الله سبحانه وتعالى، أي: ما لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمر به.

أما الإرادة الكونية فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

الفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل، وبين إرادته من غير أن يفعل، فإذا أراد الفاعل أن يفعل فعلا فهذه الإرادة معلقة بفعله، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الإرادة لفعل الغير، وكلا النوعين معقول للناس، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك، وإن كان مريدا منه فعله.

• مفردة [تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين] "لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام"

الله سبحانه وتعالى قال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، قال صاحب الصحاح: توهمت الشيء: ظننته وفهمته وعلمته، فمراد الشيخ رحمه الله في كلامه "لا تبلغه الأوهام" أي: لا ينتهي إليه وهم، ولا تصور ولا يحيط به علم، قيل الوهم: ما يرجى به كونه، أي يظن أنه على صفة كذا، والفهم: ما يحصله العقل ويحيط به، والله تعالى لا يعلم كيف إلا هو، كما سبق بيان ذلك، وإنما نعرفه سبحانه وتعالى بصفاته وأنه أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِي الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

والله سبحانه وتعالى "لا يشبه الأنام"

فهذا تنزيه لله سبحانه وتعالى عن مشابهة المخلوقين، وفيه رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، سبحانه وتعالى:

: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}

وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع، فمن كلام أبي حنيفة في الفقه الأكبر أنه قال: "لا يشبه شيئا من خلقه، ولا يشبهه شيء من خلقه". ثم قال بعد ذلك: "وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا". انتهى من كلام أبي حنيفة.

ويقول نعيم بن حماد الخزاعي المروزي من أهل الري -أول من جمع المسند في الحديث وكان من أعلم الناس بالفرائض- رحمه الله: "من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه".

ويقول إسحاق بن راهويه رحمه الله: "من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله فهو كافر بالله العظيم"، ويقول أيضا إسحاق رحمه الله: "علامة جهم وأصحابه؛ دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة".

دعوى المشبهة: أن أهل السنة هم المشبهة هذه لها قدرها، يعني كل من يخالف أهل السنة يرميهم بالتشبيه، وهذا لاشك أنه محض افتراء، فعندما ننظر إلى سلم الابتداع من أوله: الفلاسفة يرون أن المعتزلة مشبهة، والجهمية يرون أن المعتزلة مشبهة لأنهم يثبتون الأسماء، والمعتزلة الذين يثبتون الأسماء وينكرون الصفات يرون أن الأشاعرة مشبهة لأنهم يثبتون بعض الصفات، وكذلك الأشاعرة والماتوريدية يرون أن أهل السنة مشبهة لأنهم يثبتون جميع الصفات.

انظروا إلى هذا القرب والبعد من الحق، الأشاعرة أخف من المعتزلة، والمعتزلة أخف من الجهمية، فالمسألة كل يرمي أهل السنة بأنهم مشبهة لأنهم يثبتون جميع الأسماء والصفات، وهذا محض افتراء، والله سبحانه وتعالى أثبت ذلك لنفسه، وأثبت له أيضا رسوله صلى الله عليه وسلم، في العصور التي تلت بعد ذلك أصبح أهل السنة يُرمون بألفاظ أخرى غيرها وهي قولهم: بالحشوية لأنهم حشوا بالكلام وما إلى ذلك من هذه الألفاظ، أحببت أن أبين هنا أن أهل السنة يُرمون دائما بالمشبهة من عصر إسحاق رحمه الله، يقول: "دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أولعوا به من الكذب أنهم مشبهة، بل هم المعطلة".

والسلف يقولون: علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة، فإنه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبهاً، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غلاة الزنادقة؛ والقرامطة والفلاسفة، وقال: إن الله لا يقال له عالم ولا قادر، يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه، لأن الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه، ومن أثبت الاسم وقال هو مجاز،

كغلاة الجهمية، يزعم أن من قال إن الله عالم حقيقة، قادر حقيقة فهو مشبه، وهكذا بالتدرج الذي ذكرته لكم قبل قليل. الذين يفسرون القرآن بالرأي كالقاضي عبد الجبار والزحشري وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤية مشبهاً، وهذا الاستعمال غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف.

المشهور عند أهل السنة والجماعة أن استعمال هذا اللفظ: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبي حنيفة قبل قليل، وأنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرنا، ويرى لا كرؤيتنا. وهذا معنى قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فنفي المثل وأثبت الوصف، فهذه الآية فيها الرد الشافي والكافي.

والله سبحانه وتعالى حي لا يموت، يقول الطحاوي: "حي لا يموت قيوم لا ينام" وهذا ظاهراً مأخوذ من قول الله سبحانه وتعالى في آية الكرسي: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ}، فنفي السَّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، ويقول الله سبحانه وتعالى: {الْم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ} ويقول {وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} ويقول الله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى النَّحْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} ويقول الله سبحانه وتعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}، ويقول المبعوث رحمة للعالمين محمد الأمين صلى الله عليه وسلم: {إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام} الحديث أخرجه مسلم.

لما نفى الشيخ رحمه الله التشبيه، أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به تعالى دون خلقه فمن ذلك أنه حي لا يموت والعباد يموتون، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به سبحانه وتعالى دون خلقه، {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}..

ومنه: أنه قيوم لا ينام، والعباد ينامون، إذن هو مختص بعدم النوم والسَّنة دون خلقه، فإنهم ينامون، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد به نفي الصفة، بل سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته سبحانه وتعالى.

إذن إيراد هذا النفي، إنما هو لإثبات ضده، فالحي بجملة باقية لا يشبه بالحي بجملة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولها ولعباء، {وَأِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ}، ولا يقال: فهذه الحياة الآخرة كاملة وهي للمخلوق لأننا نقول: الحي الذي الحياة من صفات ذاته اللازمة لها، والذي وهب المخلوق تلك الحياة الدائمة فهي دائمة بإدامة الله لها.

العبد عندما تكون حياته دائمة في الجنة، ونسأل الله العافية، الكافر في النار حياته دائمة، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، أن النار والجنة خالدتان باقيتان، فالحياة هنا إنما كانت بما وهبه الله سبحانه وتعالى لهذه المخلوقات، لأن الدوام وصف لازم لذات الله سبحانه وتعالى، بخلاف هذه الحياة، حياة الرب سبحانه تعالى الوصف لها لازم لذاتها، وكذلك سائر صفاته سبحانه وتعالى، بعكس المخلوقين الذين هم حياتهم زائلة، وإن كان فيها بقاء فهي بإدامة الله سبحانه وتعالى لها.

واسم الحي والقيوم، مذكوران في القرآن معاً في ثلاثة سور، وأغلب الظن أنهما الاسم الأعظم، الذي إذ دعي الله به سبحانه وتعالى أجاب، فلا يغفل إنسان يدعو الله سبحانه وتعالى، بأن يطلب الله سبحانه وتعالى بهذين الاسمين لله سبحانه وتعالى، ومدار الأسماء الحسنی كلها على هذين الاسمين، وإليها يرجع معانيها، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة، أما اسم القيوم لله سبحانه وتعالى فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته، فإنه القائم بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه، المقيم لغيره فلا قيام لغيره إلا بإقامته، فانظم هذان الاسمان صفات الكمال أتم انتظام.

قول المؤلف رحمه الله: "خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة"

فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} ويقول الله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}، وقوله: {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ}، {قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُ وَلَا يُطْعَمُ}، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقُصُ المحيط إذا دُخِلَ البحر) الحديث رواه مسلم.

وقول المؤلف: "رازق بلا مؤنة" بلا مؤنة: بلا ثقل ولا كلفة.

مفردة [المحي الباعث] يقول الطحاوي رحمه الله: "محييت بلا مخافة، باعث بلا مشقة"

الموت صفة وجودية، خلافا للفلاسفة ومن وافقهم، يقول الله سبحانه وتعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، خلق الموت والحياة، والعدم لا يوصف بكونه مخلوقا، وفي الحديث (إنه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار) وهو وإن كان عرضا فالله تعالى يقبله عينا يوم القيامة، كما ورد في العمل الصالح: (أنه يأتي صاحبه في صورة الشاب الحسن، والعمل القبيح على أقبح صورة) كما في حديث البراء بن عازب، وورد: (أنه يأتي على صورة الشاب الشاحب اللون)، وكذلك قراءة القارئ إلى آخر ذلك من هذه الأدلة الواردة في موضعها، وكذلك فيما يكون في وزن أعمال العباد.

الحلقة (٩)

■ قوله: "لم يزل متصفا بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل"

■ الصفات هل هي زائدة على الذات

■ الاسم غير المسمى

■ الرد على الجهمية والمعتزلة باختصار في الصفات

■ بحث التسلسل

أولاً: اختلف الناس في اتصاف الباري جل وعلا في صفاته، هل هو متصف بها بعد ظهور آثارها وهذه مسألة مهمة، وأسماء الرب تعالى سُمي بها بعد ظهور آثارها أم قبل ذلك؟ هذه المسألة ومسألة التسلسل من أصعب ما سيواجهكم في مقرر التوحيد، فيجب الانتباه هنا في الشرح وأنا أمشي نقطة نقطة حتى يتبين هذا الأمر ويقرب إلى أذهانكم، لأنها من مسائل الكلاميات وليست من صلب عقيدة أهل السنة والجماعة، وإنما خاض فيها أهل السنة والجماعة عندما خاض فيها المبتدعة، وأراد أهل السنة أن يردوا عليهم ويبينوا الحق في ذلك.

◀ أقول المسألة اختلاف الناس في اتصاف الباري جل وعلا بصفاته، هل هو متصف بها بعد ظهور آثارها؟ وأسماءه سبحانه وتعالى هل سُمي بها بعد ظهور آثارها أم قبل ذلك؟

❖ الناس في ذلك مذاهب:

• المذهب الأول: فهو مذهب الجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم فهم يقولون: أنه عز وجل لم يصل له صفات ولا أسماء إلا بعد أن ظهرت آثارها، فلما خلق صارت له صفة الخلق، وصار من أسمائه الخالق، وذلك على الأصل الذي عندهم وهو أن

أسماء الله عز وجل مخلوقة، فلما خلق سبحانه سماه الناس الخالق، وخلق له اسم وهو الخالق تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فعندهم أن الزمان لما ابتدأ فيه الخلق أو الرزق أو الإنشاء صار بعده له اسم الخالق، وقبل ذلك لم يكن له هذا الاسم ولم تكن له هذه الصفات، فقبل أن يكون هناك أي سامع لكلامه فليس هو سبحانه متكلماً فلما خلق سامعاً لكلامه خلق كلاماً - عند المعتزلة والجهمية على معتقدهم بالقول بخلق القرآن - فأسمعهم إياه فصار له اسم المتكلم أو صفة الكلام لما خلق من يسمع كلامه، وكذلك صفة الرحمة يؤولونها أو أنواع النعم والمنعم والمحيي كل هذه لا تطلق على الله عندهم إلا بعد أن وُجد الفعل منه على الأصل الذي ذكر عنهم، أن الأسماء عندهم والصفات مخلوقة، تعالى الله عن هذا الضلال علواً كبيراً.

• المذهب الثاني: هو مذهب الأشاعرة والماتريدية ومذهب طوائف أهل الكلام في أن الرب جل وعلا كان متصفاً بالصفات وله الأسماء، ولكن لم تظهر آثار صفاته ولا آثار أسمائه بل كان زمناً طويلاً معطلاً عن الأفعال تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يقول أصحاب هذا المذهب الثاني له صفة الخلق وليس ثمة ما يخلقه، وله صفة الفعل ولم يفعل شيئاً، وله صفة الإرادة وأراد أشياء كونية مؤجلة غير منجزة وهكذا.. وهذا مذهب باطل، فمن أسمائه عند هؤلاء الخالق ولكنه لم يخلق، ومن أسمائه عندهم وصفاته الكلام ولكنه لم يتكلم، ومن صفاته الرحمة بمعنى إرادة الأنعام وليس ثمة منعم عليه، ومن أسمائه المحيي وليس ثمة من أحياء، ومن أسمائه الباري وليس ثمة من برأ، وهكذا حتى خلق الله عز وجل هذا الخلق المنظور الذي تراه من الأرض والسماء وقص علينا في كتابه ثم بعد ذلك ظهرت آثار أسمائه وصفاته، تعالى الله عن هذا البهتان العظيم علواً كبيراً..

فعند أصحاب المذهب الثاني أن الأسماء والصفات متعلقة بهذا العالم المنظور أو المعلوم دون غيره من العوالم التي سبقتها، وقالوا هذا القول وهذه الشنيعة فرارا من قول الفلاسفة الذين زعموا أن هذا العالم قديم وأن المخلوقات قديمة متناهية أو دائمة من جهة الأولوية ومن جهة القدم مع الرب، إذا هم فروا من قول الفلاسفة فوقعوا في الضلال، هذا بيان المذهب الثاني في هذه المسألة.

• المذهب الثالث: وهو المذهب الحق إن شاء الله هو مذهب أهل الحديث والأثر وأهل السنة أعني عامة أهل السنة وهو أن الرب عز وجل أولٌ بصفاته، كما عبر الماتن هنا يقول: "كان بصفاته" وأن صفات الرب عز وجل لا بد أن تظهر آثارها لأنه سبحانه وتعالى فعّال لما يريد، والرب عز وجل له صفات الكمال المطلق، ومن أنواع الكمال المطلق أن يكون ما أراد سبحانه، فما أراد كونه لا بد أن يكون وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومذهب أهل السنة والجماعة أنه سبحانه يجوز أن يكون خلق أنواعاً من المخلوقات وعوالم أخرى غير هذا العالم، ظهرت فيها آثار صفاته وآثار أسمائه سبحانه وتعالى، فجنس مخلوقات الله عز وجل أعم من أن تكون هذه المخلوقات الموجودة الآن، فلا بد أن يكون ثم مخلوقات أوجدها سبحانه وأفناها ظهرت فيها آثار أسمائه وآثار صفاته، فإن أسماء الرب وصفاته لا بد أن يكون لها أثرها لأنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد، فما أراد الله سبحانه وتعالى فعله ووصف نفسه بهذه الصفة على صيغة المبالغة الدالة على الكمال بقوله {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}. هذا تسلسل وسيأتي بحث التسلسل لكن يعني في الأولوية والآخرة فهو سبحانه وتعالى كما كان بصفاته أزلياً يقول الطحاوي "وكما كان بصفاته أزلياً لا يزال عليها أبدياً" وهذا منهم - يعني من أهل الحديث والأثر و السنة - هذا القول منهم لأجل إثبات الكمال للرب سبحانه وتعالى.

▪ القول الأول وهو قول المعتزلة والجهمية وفيه تعطيل للرب عن أسمائه وصفاته، يعني أن الله عز وجل كان بلا صفات وبلا

أسماء، تعالى الله عن هذا الكفر، وأنه لما فعل وجدت صفات الرب عز وجل، وهذا نسبة النقص لله عز وجل، لأن الصفات هي عنوان الكمال الله سبحانه له الكمال في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى.

■ **المذهب الثاني** مذهب الأشاعرة والماتريدية ومن نحى نحوهم فهم أيضاً وصفوا الرب سبحانه وتعالى بالنقص كيف ذلك؟ لأن أولئك يزعمون أنه متصف ولا أثر للصفة، له اسم ولا أثر للاسم.

المذهب الأول أنكروا الأسماء والصفات وأن الله سبحانه ليس له صفات إلا بعد أن ظهرت آثارها، المذهب الثاني أن الله متصف بالأسماء والصفات ولكنه معطل عنها حتى ظهرت آثارها.

■ **أما المذهب الثالث:** وهو مذهب أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى متصف بصفات وله أسماء سبحانه وتعالى وآثارها ظاهرة، لم يتعطل عن آثار أسمائه أو آثار صفاته سبحانه وتعالى، فلا بد أن تظهر آثارها لأن الله {فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ}. أصحاب المذهب الثاني قالوا قولهم هذا لأنهم تعلقوا بالعالم المنظور والعالم المنظور المكون من السماء والأرض وخلقتها ولم يعلموا بأن هناك عالماً آخر إنما نظروا نظرة قاصرة.

فوجود هذا العالم وإن كانت مدته وعمره طويل لكنه بالنسبة إلى الزمن المطلق قريب، لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) فالتقدير كان قبل أن يخلق هذه الخلائق مع أن له عرش وكان على الماء، وهي مدة محدودة، لا يحده زمان سبحانه وتعالى فهو أول سبحانه بلا انتهاء وبلا انقطاع، الله سبحانه ليس قبله شيء، وهذا إقرار لأنه من جهة الأولية يتناهى الزمان في إدراك المخلوق وتنتقل من الزمان المنسوب إلى الزمان المطلق، وهذا تتقاصر عقولنا عن إدراكه، أما العالم المنظور فهو محدث، حد لنا النبي صلى الله عليه وسلم متى حدث، وبين النبي صلى الله عليه وسلم لنا أن الله قدر المقادير قبل أن يخلق هذا العالم أو السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ولذلك قول الأشاعرة والماتريدية بأنه متصف بصفات وله الأسماء ولكن لم تظهر آثارها ولم يفعل شيئاً إلا بعد أن أوجد هذا العالم، نقول معناه أن ثمة زمان مطلقاً طويلاً جداً ولم يكن الرب عز وجل فاعلاً، ولم يكن لصفاته أثر، ولم يكن لأسمائه أثر في مريوباته سبحانه وتعالى، وهذا من الباطل، ولا بد أن الله عز وجل له سبحانه من يعبد من خلقه، ولا بد أن يكون له عز وجل مخلوقات لأنه سبحانه وتعالى فعال لما يريد وهذه صفة مبالغة مطلقة في الزمن كله، لأن ما اسم موصول والأسماء الموصولة تعم ما كان في حيز صلتها.

بقي أن يقال أن قولهم "أراد ولكن إرادته كانت معلقة غير منجزة" يعني أنه أراد عندما كان معطلاً تعالى الله عن ذلك، ولم يكن مريداً إلا بعد أن ظهرت آثار صفاته سبحانه، وهذا تحكم في الله سبحانه وتعالى لأن هذا مما لا دليل عليه إلا الفرار من قول الفلاسفة ومن نحى نحوهم، القائلين بقدم العالم وعدم تناهي ذلك، هذا الإلزام من أصحاب المذهب الثاني لا يلزم أهل السنة والجماعة والأثر، لأننا نقول أن العوالم التي سبقت هذا العالم كثيرة وليس واحداً، بل متعددة لا نعلمها، الله سبحانه وتعالى أعلم بها، وهذا ما قيل أنه يسمى بقدم جنس المخلوقات أو ما يسمى بالقدم النوعي للمخلوقات، وهذا من المسائل الكبار.

◀ **تكلم الشارح عن مسألة: هل الصفة زائدة عن الذات أم لا ؟**

وهذه من المسائل التي ترد كثيراً عند أهل الكلام، الماتن وهو الطحاوي يقول : "ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه" ما زال بصفاته أي لم يزد بكونهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزلياً كذلك لا يزال عليها أبدياً.

هذه لفظة محملة لفظ الغير يعني هل الصفة غير الذات أم لا ؟ أي أنها فيها إجمال لا بد أن نتوقف عندها ونستفصل ما

المراد؟ فإن كان المراد حقاً أثبتناه وإن كان المراد بها باطلاً نفينا، ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله تعالى لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيره ولا أنه ليس غيره، لأن إطلاق الإثبات قد يُشعر أن ذلك مباين له، وإطلاق النفي قد يشعر بأنه هو هو، إذا كان لفظ الغير فيه إجمال فلا يطلق إلا مع البيان والتفصيل، فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بذاتها أو قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها فهذا غير صحيح، نقول لهم ما تريدون بأن الصفة غير الذات، إن كنتم تريدون بأن هناك ذاتاً مجردة ليس لها صفات مستقلة فهذا غير صحيح، وإن كنتم تريدون بأن الصفات زائدة عن الذات التي يفهم من معناها غير ما يفهم من معنى الصفة فهذا حق، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفة، وليس في الوجود ذات ليس لها صفة، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة، لذلك قال المؤلف هنا "ما زال بصفاته" ولم يقل ما زال وصفاته، لأن بصفاته الباء للمصاحبة، يعني أن الله صاحب الرحمة والقوة، فالباء للمصاحبة والواو للمغايرة لأنها من حروف العطف، فهنا نقول الذهن لا يفرض ذاتاً ووجوداً لها مستقلاً من غير صفات ولا يتصور هذا، بل لا ينفك أحدهما عن الآخر في الخارج.

◀ ومسألة: هل الاسم عين المسمى أم غيره؟

يقولون الاسم عين المسمى أو غيره، ما موقف أهل السنة من هذه المقولة، وطالما غلط كثير من الناس في ذلك وجهلوا الصواب فيه، فالاسم يراد به المسمى تارة ويراد به اللفظ الدال عليه تارة أخرى، وهذا هو الجواب. فإذا قلت سمع الله لمن حمده ونحو ذلك فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحمن من أسماء الله تعالى، فالاسم هاهنا للمسمى لا عين المسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال فإن أريد بالمغايرة فإن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه وتعالى كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله سبحانه وتعالى. الماتن أبو جعفر الطحاوي رحمه الله هنا قال "ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه" بصفاته هنا انتبهوا إلى هذه اللفظة بصفاته قلنا الباء للمصاحبة، إلى آخر كلامه في الرد على المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة فإنهم قالوا إن الله تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً، وأنه قلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي، وعلى ابن كلاب الأشعري ومن وافقهم فإنهم قالوا إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً، على ما ذكرنا في تقسيم أصحاب المذاهب الثلاثة، وقولهم المذهب الثاني: أنه سبحانه وتعالى معطل عن أسمائه وصفاته حتى ظهرت آثارها.

الحلقة (١٠)

◀ مسألة التسلسل

وهي من أصعب المسائل في مقرر التوحيد وهي مرتبطة بما قبلها ارتباطاً كبيراً أو بل هي أساسها، والتسلسل يأتي أولاً. يقصد بالتسلسل: أنه لا يكون شيئاً إلا وقبله شيء ترتب عليه، أو لا يكون شيء إلا وبعده شيء ترتب عليه، فعندنا خط له رأسان سهم من هنا وسهم من هنا، التسلسل إذن معناه أنه لا يكون شيء إلا وقبله شيء ترتب عليه ولا يكون شيء إلا وبعده شيء ترتب عليه، التسلسل في الماضي والتسلسل في المستقبل.

التسلسل له اعتبارات أو على اعتبارات:

☒ **الجهة الأولى:** هي التسلسل في صفات الباري جل وعلا وهي من أهم الاعتبارات، الناس في التسلسل المتعلق بصفات الرب جل وعلا على مذاهب:

○ **المذهب الأول:** من قال إن الرب جل وعلا يمتنع تسلسل صفاته في الماضي، ويمتنع تسلسل صفاته في المستقبل، فلا بد من أمد يكون قد ابتدأت صفاته ولا بد أيضاً من زمن تنتهي إليه صفاته، وهذا قول الجهمية عياداً بالله من هذا القول، وكذلك طائفة من المعتزلة أمثال أبي الهذيل العلاف وجماعة منهم، إذن يمتنع التسلسل في الماضي ويمنعون التسلسل في المستقبل.

○ **المذهب الثاني:** هو أن التسلسل في الماضي ممتنع وفي المستقبل لا يمتنع، يعني أن الاتصاف بالصفات لا بد أن يكون له زمن ابتداء فيه، يعني أن الاتصاف بالصفات لا بد أن يكون له زمن ابتداء فيه وآثار الأسماء والصفات، وفي المستقبل هناك تسلسل في الصفات يعني عدم انقطاع للصفات، وهذا هو قول أهل الكلام الأشاعرة والماتوريدية.

○ **المذهب الثالث:** مذهب أهل السنة والجماعة والحديث أن التسلسل ثابت في الماضي والمستقبل، وثبوتها في الماضي غير متعلق بخلق تسلسل فيهم الصفات، أو تظهر فيهم آثار الصفات، بل تتنوع التعلقات باختلاف العوالم، يعني أن الباري جل وعلا -على المذهب الثاني- لم يتصف بصفة الخلق إلا بعد أن خلق هذا العالم، وإلا فقبل ذلك كان معطلاً، أهل السنة يقولون إن الباري جل وعلا أول بصفاته، أي متصف بصفة الخلق وهو فعال لما يريد، فهو أول بصفاته ومتصف بصفاته قبل أن يخلق هذا العالم المنظور، وقد خلق عوالم أخرى، ولا بد أن هناك من ظهور آثار صفاته جل وعلا، فهذا يختلف باختلاف العوالم، يعني لا ننظر إلى هذا العالم المنظور فقط، وفي المستقبل يقول أهل السنة أيضاً أن التسلسل واقع في صفات الباري جل وعلا يعني في الآخرة، هناك تسلسل في صفات الباري من جهة المستقبل، كما أنها في الماضي كذلك في المستقبل، إذا تبين هذا فهذه مسألة التسلسل بُحثت قبل مسألة مذاهب الناس في الصفات وتعلقها بالخلق، وهل الباري متصف بالصفات بعد ظهور آثارها أم لا، يعني هذه المذاهب التي ذكرتها بحثت أيضاً هناك، كما ذكرنا قول الجهمية وكذلك قول الأشاعرة الماتوريدية، ثم قول أهل السنة والجماعة، فهاتان المسألتان مرتبطتان ببعضهما.

☒ **الجهة الأولى:** المعتبرة في صفات الباري

☒ **الجهة الثانية:** المعتبرة في التسلسل: جهة المخلوقات أو التسلسل في المخلوقات، وللناس فيه مذهبان:

○ **المذهب الأول:** يقولون بالتسلسل في الماضي، يعني أن العالم لا ينقطع، ليس شيء إلا وقبلة شيء يترتب عليه، وهو قول الفلاسفة، فقول المذهب الأول "أن التسلسل في المخلوقات في الماضي" ممتنع عند عامة الناس، إلا عند قوم هم الفلاسفة، الذين قالوا لا عالم إلا هذا العالم، وأن هذا العالم لم يزل في الماضي، وهذا خلاف ما جاء في السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وما جاء عن الله سبحانه وتعالى أن الله كان ولم يكن معه شيء من هذا العالم المنظور حالياً، وهذا العالم ترتب التسلسل فيه الآخر على الأول والثاني عن ما قبله وليس ثمت شيء غيره كما يقول الفلاسفة، إذن التسلسل في الماضي لا يقول به إلا الفلاسفة ويخالفهم عامة الناس يعني اتفق أهل السنة والمعتزلة على أن تسلسل المخلوقات في الماضي ممتنع فقط، الفلاسفة هم الذين يقولون بأن المخلوقات متسلسلة في الماضي، الفلاسفة كما هو معلوم خارجون عن الملة لأنهم يرون قدم هذا العالم مطلقاً، وأن المؤثر فيه الأفلاك بعقل مختلفة.

إذن المذهب الأول: قول بالتسلسل في الماضي وهذا لم يقل به إلا الفلاسفة.

○ المذهب الثاني: أن التسلسل في المخلوقات واقع فقط في المستقبل ليس في الماضي، وهذا عند جمهور الناس إلا عند جهم وبعض المعتزلة، قالوا خالفوا من جهة، قالوا أن تسلسل الحركات والمخلوقات في المستقبل أيضاً ممتنع، ولأنهم لا بد أن يصيروا إلى عدم التأثير وإلى سكون.

إذن هذا هو المذهب الثاني هو أن التسلسل في المستقبل، الأول قالوا بأن التسلسل في الماضي وهم الفلاسفة وخالفهم الناس، والمذهب الثاني أن التسلسل يكون في المستقبل، وهذا خالف فيه جهم وبعض المعتزلة، قالوا إن المخلوقات والحركات تكون إلى سكون أو عدم، فهناك عندهم أن التسلسل في المستقبل يخالفون فيه، ومن هذا نتج قولهم بفناء الجنة و النار، فجهم يقول بفناء الجنة والنار، ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة أنهما باقيتان لا تفنيان، فنتج من الدخول في المباحث الفلسفية المقيتة التي تعذب العقول ولا تنفع العقلاء، نتج منها هذا الضلال، الذي يخالف النصوص المتظاهرة على إثبات أن الجنة باقية وأن النار باقية، وأهلها مخلدون فيها كما هو المشهور من مذهب أهل السنة والجماعة.

✚ الجهة الثالثة: هي تسلسل الأثر والمؤثر، والسبب والمسبب، والعلة والمعلول، وأشهر مذاهب الناس فيه اثنان:

○ المذهب الأول: مذهب نفاة العلل والأسباب الذين يقولون لا أثر لعل في معلولها، ولا أثر لسبب في مسبب، وإنما يفعل الله عند - ونضع تحت كلمة عند عشرة خطوط - وجود العلة لا لكونها علة، فعندهم أنك عندما تمر السكين على الخبز فإن السكين لا تقطع، وإنما عندما أمرت السكين على هذا الخبز حدث عند ذلك القطع، وليس في السكين خاصية القطع، وليس في الخبز خاصية الانقطاع إذا أمرت عليه هذه الآلة، وهذا مذهب مشهور عند الأشاعرة وكسب الأشعري، وهذا مما لا يعقل، وهو مذهب نفاة التعليل وهو مذهب الأشاعرة والقدرية وابن حزم وجماعة.

○ المذهب الثاني: أن الأسباب تنتج مسبباتها، ويتسلسل ذلك، وأن العلة تنتج معلولا، ويتسلسل ذلك يعني جوازاً، لكن ذلك كله بخلق الله سبحانه وتعالى له، والتسلسل في الآثار ناتج عن المؤثرات ليس لذاتها، وإنما لسنة الله عز وجل التي أجزاها في خلقه والله سبحانه وتعالى يقول { فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا }.

إذن هذا المذهب هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو المذهب الذي تقبله العقول ولا تقبل سواه، فالسكين لها خاصية القطع لأن الله جعل فيها هذه الخاصية، وجعل هذا سنة، وهي من سنن الله سبحانه وتعالى، فالتسلسل في الآثار ناتج عن المؤثرات ليس لذاتها بل لسنة الله عز وجل، هذا ما أجمله لكم في مبحث التسلسل وهذا المبحث كما ذكرت لكم من أصعب المباحث لا لضعف آلة العقول عند أهل السنة والجماعة وإنما إدخال أهل الكلام مصطلحات القوم ومصطلحات لا يعرفها الناس واستعمال بعض الألفاظ غير الدارجة عند أهل السنة والجماعة، وإنما هي من مصطلحات الفلاسفة فلذلك يُغربون، فيصعب فهم مسائلهم، لكن الله سبحانه وتعالى قيض من أئمة السنة والجماعة من ينبري لهذه المسائل ويرد عليها كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وكذلك تلميذه ابن القيم وغيرهم من أهل العلم، كذلك شارح العقيدة الطحاوية هو أثر من آثار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

◀ مسألة: قول المؤلف "صفتا الخالق والبارئ":

يقول المؤلف: " ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية إستفاد اسم البارئ "

قال المؤلف هذا تحاشيا لمذهب الأشاعرة والماتوريدية الذين يقولون ويعطلون صفات البارئ جل وعلا، فيقولون هي في توقف وتعطل حتى يخلق فتظهر آثار هذه الصفات، فظاهر كلام الشيخ أنه يمنع تسلسل الحوادث في الماضي، ويأتي في كلامه ما يدل على أنه لا يمنعه في المستقبل، وهو قوله أيضاً والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبديدان، وهذا مذهب

الجمهور، ولا شك في فساد قول من منع ذلك في الماضي والمستقبل كما ذهب إليه الجهم وأتباعه وقال بفناء الجنة والنار. يقول الشارح "وأما قول من قال بجواز حوادث لا أول لها من القائلين بحدوث لا آخر لها، فأظهر في الصحة من قول من فرق بينهما، فإنه سبحانه لم يزل حيا والفعل من لوازم الحياة، فلم يزل فاعلا لما يريد كما وصف بذلك نفسه حيث يقول: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ}"

قال الطحاوي رحمه الله "له معنى الربوبية ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق" يعني أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب، وموصوف بأنه الخالق قبل أن يوجد مخلوق، وقال الطحاوي "وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحياء، استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم" يعني أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم، إلزاماً للمعتزلة ومن قال بقولهم. يقول أيضاً الماتن رحمه الله "ذلك بأنه على كل شيء قدير وكل شيء إليه فقير، وكل أمر عليه يسير، لا يحتاج إلى شيء، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير"

يقول الشارح "ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه، والكلام على (كل) وشمولها شمول الكل في كل مقام بحسب ما يحتف بها من القرائن، يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله في هذا الفصل". فالمعتزلة حرفت المعنى المفهوم والله على كل شيء قدير، فقالوا إنه قادر على كل ما هو مقدور له، أما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا هل يقدر على مثلها أم لا؟ لو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يُقال هو عالم بكل ما يعلمه، وخالق لكل ما يخلقه، لا أنه على كل شيء قدير ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها، فسلبوا صفة كمال القدرة عن البارئ جل وعلا.

أما أهل السنة فعندهم أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير وكل ممكن فهو مندرج في هذا، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجودا معدوما في حال واحدة، فهذا لا حقيقة له ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئا باتفاق العقلاء، وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكما لها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير.

هذا الكلام في مسألة القدر، والمؤلف رحمه الله وزع الكلام في القدر وكذلك الشارح تبعه فعلي أقدم لكم في مقدمة يسيرة عن معنى القدر.

فمعنى القدر في اللغة: هو تهئية الشيء لما يصلح له، إذا هيئت شيئا لما يصلح له فقد قدرته، وتقول أقدر أن يكون كذا يعني هيئت هذا الأمر على أن يكون كذا وكذا، فتكون داخلا في هذا الأمر بتقدير إذا دخلت فيه بتهيئة، وهذا المعنى اللغوي العام كما قال الله سبحانه وتعالى {وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمٍ} وآيات في القدر كثيرة {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِإِقْدَارٍ} ونحو ذلك من الآيات.

أما في الشرع فالقدر سر الله عز وجل الذي لم يُطلع عليه أحداً، لم يُطلع عليه ملكا مقربا ولم يُطلع عليه نبيا مرسلا، بل هو سر الله عز وجل الذي لا يعلمه على وجه الكمال أحد، وتعريف القدر اختلف فيه الناس، حتى تعريفه عند المنتسبين إلى السنة مختلف، لكن عُرِفَ بتعريف أخذ من مراتب القدر التي جاءت الأدلة على مفرداتها،

فقال في تعريف القدر عند أهل السنة والجماعة: أنه علم الله السابق بالأشياء قبل وقوعها، وكتابته لذلك في اللوح المحفوظ قبل خلقها وإيجادها، ومشيئته النافذة الشاملة، وخلق عز وجل لكل ما قدر، أو خلقه عز وجل لكل شيء.

الحلقة (١١)

٧ **فمعنى القدر في اللغة:** هو تهيئة الشيء لما يصلح له، إذا هيأت شيئاً لما يصلح له فقد قدرته، وتقول أقدر أن يكون كذا وكذا يعني هيأت هذا الأمر على أن يكون كذا وكذا، فتكون داخلاً في هذا الأمر بتقدير إذا دخلت فيه بتهيئة، وهذا هو المعنى اللغوي العام كما قال الله سبحانه وتعالى {وَقَدَّرَ فِيهَا أَفْوَاقَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ} والآيات في هذا المعنى كثيرة {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ}.

٨ **أما المعنى في الشرع** فالقدر سر الله عز وجل الذي لم يطلع عليه أحداً، لم يطلع عليه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا، بل هو سر الله عز وجل الذي لا يعلمه على وجه الكمال أحد.

أما تعريف القدر فقد اختلف فيه الناس، وحتى أهل السنة على خلاف في تعريفه، لكنه عُرف بتعريف أخذ من مراتب القدر التي جاءت الأدلة على مفرداتها.

ف قيل في تعريف القدر عند أهل السنة والجماعة: أنه علم الله السابق بالأشياء قبل وقوعها، وكتابته لذلك في اللوح المحفوظ قبل خلقها وإيجادها، ومشيتته النافذة الشاملة، وخلق عز وجل لكل ما قدر أو خلقه عز وجل لكل شيء.

هناك فرق اختلفت في القدر، وقعت في الضلال في القدر، كما أن أهل السنة نجو من هذا الضلال، فالفرق في القدر لا بد من معرفتها قبل أن نتكلم أو نضع تصوراً عاماً وتفصيلاً لمسألة القدر.

فالفرق في هذا الباب المنتسبة للأمة ثلاث فرق:

الأولى هي القدرية / والثانية هي الجبرية / والثالثة هي أهل السنة والجماعة.

القدرية طوائف كثيرة منهم الغلاة ومنهم المتوسطون، وكما ذكرت في الحلقات الماضية أن القدر قد يكون داخل في فرق كثيرة، يعني من المعلوم والمستقر عند كثير من الناس أن الأشعرية ليسوا قدرية، لكنهم وقعوا في الخلل في مسألة القدر، وإن كان ضلالهم ليس كضلال المعتزلة، المعتزلة أعظم وأطم فمصيبتهم وضلالهم في القدر أكبر وأعظم.

القدرية طوائف كثيرة منهم الغلاة ومنهم المتوسطون وإذا قلنا قدرية نعني به نفاة القدر، ننسبهم للقدر لأنهم نفوه، يقول أهل العلم عنهم قدرية لأنهم نفوا القدر:

١- منهم من نفى صفة العلم لله

٢- ومنهم من نفى عموم المشيئة.

٣- ومنهم من نفى عموم خلق الله سبحانه وتعالى لكل شيء.

٤- ومنهم الجبرية الذين قالوا أن العبد مجبور، وهي الفرقة الثانية.

٥- وكذلك منهم الغلاة كالجهمية وغلاة الصوفية الذين يقولون هو كالريشة في مهب الريح.

٦- ومنهم المتوسطون الذين يقولون مجبور في الباطن مختار في الظاهر وهم الماتوريدية والأشاعرة وقولهم في القدر قول ضلال وقول بدعة.

والطحاوي رحمه الله صاحب المتن في الجملة في المسائل المشككة ينتهي إلى الماتوريدية، ولهذا يجب أن تنتبه لكلامه في المواطن ذات الزلل كمسألة القدر، لا بد أن تحقق فيها، لأن المؤلف وافقهم في هذا، وقد قررهما على وجه الجبر، فيجب أن تلاحظ كلام المؤلف هل قررهما على وجه الجبر أم على وجه كلام أهل السنة والجماعة، نلاحظ كلامه يقول مجبور في الباطن ومختار في الظاهر وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى.

◀ مسألة: وهي معنى إضلال الله سبحانه وتعالى من أضل، وهدايته سبحانه لمن هدى

في خطبة الحاجة كما ذكرها عمر واعترض عليه العلي النصري، فقال إن الله لا يضل أحداً، فنهى عمر وأجلسه، خطبة الحاجة ورد فيها تقرير هذه العقيدة فدائماً ما يذكر فيها (من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له)، وإذا كنا نقول إن الإنسان غير مجبور على الضلال، وغير مجبور على الهدى، فما معنى قوله تعالى {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}؟ وهذا من احتجاجات القدرية الجبرية المردود عليها، وما معنى {مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}؟ وما معنى {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي} {مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ}؟ ونحو ذلك من الآيات التي فيها لفظ الإضلال والاهتداء لله عز وجل وفق مشيئته سبحانه وتعالى وإرادته.

هذه المسألة ضل فيها الناس ومن أجلها ضلت الجبرية والقدرية، وهي مرتبطة في بيانها بمسألة التوفيق والخذلان، والله عز وجل علق الإضلال بمشيئته وعلق الهداية بمشيئته، وتعلمون أن الله ما شاء كان وما لم يشأ الله لم يكن، وإذا كان كذلك فإن حدوث الهداية وحدث الضلال نتيجة لأشياء، ولذا جاء لفظ التوفيق والخذلان في النصوص الشرعية، جاء لفظ التوفيق في القرآن في قوله تعالى {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ} ونحو ذلك، فالله عز وجل يوفق من يشاء ويخذل سبحانه وتعالى من يشاء.

فما معنى وفق وخذل؟ وما صلتها بـ {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}؟ إذا تبين لك معنى التوفيق والخذلان فإنه سيتبين لك بوضوح معنى أن الله عز وجل يضل من يشاء ويهدي من يشاء سبحانه وتعالى.

التوفيق عند أهل السنة والجماعة فهو إمداد الله عز وجل بعونه العبد، يعني بإعانتة وتسديده وتيسير الأمر وبذل الأسباب المعينة عليه، إذن التوفيق فضل ومنة من الله عز وجل وكرم، أما الخذلان فهو سلب التوفيق وسلب الإعانة، يعني التوفيق إعطاء ومنة وكرم والخذلان فهو عدل وسلب، لأن العبد أعطاه الله عز وجل أعطاه القدر وأعطاه الصفات، أعطاه ما يحصل به الهدى، أعطاه الآلات، يسر له، وأنزل عليه الكتب، فلذلك هو بالآلات التي معه قامت عليه الحجة، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}. ولكن الله عز وجل ينعم على من يشاء من عباده بالتوفيق ويعينهم ويسددهم ويفتح لهم أسباب تحصيل الخير، ويمنع من يشاء ذلك فلا يسدده ولا يعينه ولا يفتح له أسباب الخير بل يتركه ونفسه، وهذا معنى أنه عز وجل يخذل، يعني لا يعين، يترك العبد وشأنه ونفسه، ومعلوم أن العبد عنده آلات يحصل بها الأشياء، لكن هناك أشياء ليست في يده، هناك أشياء لا يمكن له أن يحصلها فهذه بيد من؟ بيد الله عز وجل، لأن الإنسان مرتبط بقدرة بأشياء كثيرة من الأسباب التي تفتح له باب الخير، مثل أن يكون ذا أصحاب أو يُيسر له أصحاب يعينونه على الخير، مثل أن لا يكون في طبعه الخلقي مزيد شهوة، إما شهوة كبر من كبائر القلوب أو من كبائر الدين، هذه الأشياء موجودة فيه خلقاً خارجة عن اختياره وتصرفه، فكل ميسر لما خلق له والله عز وجل يوفق بعض العباد بمعنى يعينهم على الأمر الذي يريدونه، إذا انفتح له باب خير وأراده فيحس العبد أنه أُعِين على ذلك، إذا أراد فعل أمر ما من الخير ييسر الله عز وجل له أسباباً تعينه فانفتح له طريق الخير، وآخر حضرته الشياطين وغلبته على مراده وأطاعها، لأنه لم يُزود بوقاية، بإعانة، بتوفيق، يمنعه من ذلك.

صار عندنا مسألة إضلال الله عز وجل من يشاء هو بخذلان الله للعبد وهداية الله سبحانه وتعالى من يشاء بتوفيقه بعض العباد، يعني أعان هذا وترك ذاك ونفسه، كونه عز وجل أعان هذا هو بمشيئته، فإذا من يشأ الله يضلله ومن يشأ يسلب عنه التوفيق فيخذله، فينتج من ذلك أن الله عز وجل سلب عنه إعانتة، سلب عنه تسديده، سلب عنه أسباب الخير، وغلق أبواب الشر من الكفر وما دونه. فإذاً يكون ضالاً لا يفعل نفسه لأنه وكل إلى نفسه، لأن الله عز وجل لم يمن على هذا

بمزيد توفيق.

فإذن مسألة الإضلال في كلام أهل السنة والجماعة عدل، ومسألة الهداية فضل، فلهذا أعظم الفضل والنعمة والإحسان نعمة التوفيق، الذي هو في الحقيقة نعمة الهداية، فإذن نقول إن ربنا عز وجل منّ على عباده المؤمنين فوفقهم وأعانهم وسددهم وهباً لهم الأسباب التي توصلهم إلى الخير، حبيب لهم العلم والجهد والحكمة وحبيب لهم امتثال الأمر واجتناب النهي، وحبيب لهم أهل الخير وحبيب لهم كل خير، هذا التوفيق درجات يكون في البداية فتح باب ثم يزداد، فبعض الناس إذا انفتح له باب التوفيق تكون نفسه الأمارة فيها نوع قبح فتنازعه للشر فيكون بين هذا وهذا، وآخر نفسه أقل أمراً بالسوء وإنما هي تدله على الخير، فمن الخير الذي معه أنه ينتقل من توفيق إلى توفيق أعظم منه، حتى يصل بسبب عمله أن الله عز وجل ينعم عليه بتوفيق زائد، ثم أكثر فأكثر.

مثل هذا ما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره (وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به - كنت سمعه يعني وُفق في سمعه - وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها) هذا كله توفيق، ومزيد إعانة في هذه الجوارح التي سيحاسب عليها.

إذن فحقيقة إضلال الله سبحانه وتعالى من شاء ليست جبراً، وهداية الله عز وجل من شاء من عباده ليست جبراً أيضاً، وإنما العبد خوطب بالتكليف، وعنده الآلات، لو كانت جبراً لصارت التكليف بعث الرسل وإنزال الكتب والأمر والنهي والجهاد لكان كل ذلك عبثاً، والله عز وجل منزّه عن العبث، لأن العبث سلب للحكمة وشر، والله عز وجل الشر ليس إليه لا في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته عز وجل.

يقول الله تعالى {لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًَا لَآتَخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧)} بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ { فالله سبحانه وتعالى منزّه عن العبث أن يضل جبراً ويسلب العبد الاختيار بالمرّة ثم يحاسبه وينزل عليه الكتب ويرسل عليه الرسل ويأمره بالتكليف.. هذا لا يكون أبداً، يكون كالغريق الذي أُلقي في الماء، ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وهذا في الحقيقة هو حقيقة قول الجبرية، وهذا ينزه عنه الحكيم الخبير جل جلاله، فمن عرف صفات الله عز وجل وعلم حكمته فإن القول بالجبر في حقيقة الأمر إبطال للتكليف أو رجوع إلى أفعال الله عز وجل بأنها لعب ولا حكمة فيها، ولا توافق في غايات محمودة، والله عز وجل منزّه عن ذلك.

◀ مسألة: الله سبحانه وتعالى بعلمه المطلق وله صفة الكمال في العلم سبحانه وتعالى،

فهو علم ما سيختار هذا الرجل، علم أنه سيختار طريق الضلالة فقدّر له الضلال، وعلم أن هذا سيختار طريق الهداية فقدّر له الهداية، ولذلك يُنازع القدرية بمسألة العلم، إذا خاصمتهم بالعلم غلبتهم وخصمتهم، لأن الله سبحانه وتعالى له كمال العلم، فيعلم ما كان وما يكون وما سيكون، ولأن الله علم ما سيكون فإنه كتب على هذا العبد، سواء الهداية أو الضلال، كتبها عليه وقدرها عليه، وذلك لكمال علمه سبحانه وتعالى.

القدرية من المعتزلة قالوا بأن العبد يخلق فعل نفسه، والله سبحانه وتعالى يقول {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} فالله سبحانه وتعالى خلق العبد وخلق فعله، خلق الصانع وصنعتة، فلذلك هم أيضاً ضلوا في هذا الأمر.

◀ مسألة: فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق بعلمه أي أوجد وأنشأ وشرع، ويأتي خلق أيضاً بمعنى قدر، والخلق مصدر هنا

وهو هنا بمعنى المخلوق، يقول الشارح رحمه الله: "وقوله: {يَعْلَمُهُ} " في محل نصب حال أي خلقهم عالماً بهم، ويقول تعالى {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ويقول الله تعالى {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ} لعلنا هنا أذكر قصة وهي: أن الإمام عبد العزيز المكي أو الكناني صاحب الإمام الشافعي وجليسه، ذكر في كتابه الحيدة والزاماته على بشر المريسي، فبشر معتزلي ينكر جميع الصفات، حكى مناظرته لبشر عند المأمون الخليفة العباسي حيث سأله عن علم الله سبحانه وتعالى فقال بشر: أقول لا يجهل، لا يريد أن يثبت صفة العلم لله عز وجل، فحاد عن الجواب بشر وقال لا يجهل، فجعل الكناني يكرر الكلام عن صفة العلم تقريراً لها، وبشر يقول لا يجهل ولا يعترف له أنه عالم بعلم، فقال الإمام عبد العزيز الكناني: نفى الجهل لا يكون صفة مدح، فإن قولي هذه الاسطوانة -يعني العمود- لا تجهل ليس هو إثبات العلم لها، وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا بنفي الجهل، فمن أثبت العلم فقد نفى الجهل ومن نفى الجهل لم يثبت العلم، وعلى الخلق أن يثبتوا ما أثبتته الله لنفسه، وينفوا ما نفاه ويمسكوا عما أمسك عنه، والدليل العقلي على علمه سبحانه أنه يستحيل إيجاد الأشياء مع الجهل، ولأن إيجاد الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة والإرادة مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعلم، وفاقد الشيء لا يعطيه.

الحلقة (١٢)

وفي هذه الحلقة سنتحدث إن شاء الله عن قول الماتن الطحاوي رحمه الله "فقدر لهم أقدارا وضرب لهم آجالاً" وما يتعلق بذلك من مسائل.

فقول المؤلف رحمه الله: "قدر لهم أقدارا" يقول الله عز وجل {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا} ويقول الله تعالى {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} ويقول الله تعالى {وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا} وقال تعالى {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى} وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء).

قول المؤلف رحمه الله: "وضرب لهم آجالاً" يعني أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال تعالى {إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} ويقول تعالى {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا} وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود أن أم حبيبة رضي الله عنها زوج النبي عليه الصلاة والسلام قالت: "اللَّهُمَّ أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (قد سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله ولن يؤخر شيئاً عن حله، لو كنت سألت الله أن يعيدك من عذاب في النار وعذاب في القبر كان خيراً وأفضل).

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر وقضى أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بالهدم، وهذا بالحرق وهذا بالغرق، وغيره من الأسباب فالله تعالى خلق الموت والحياة وخلق سبب الموت وسبب الحياة.

عند المعتزلة قاتلهم الله المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، انظروا إلى هذا الضلال فكان له أجلان، وهذا باطل لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى، أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، فكيف يكون أجله، أو يجعل أجله أحد الأمرين كفعل الجاهل بالعواقب، يعني إن قتل فهذا أجله، وإن سلم من هذا القتل فأجله آخر، فهذا كفعل

الجاهل بالعواقب، ووجوب القصاص والضمان على القاتل لا ارتكاب المنهي عنه ومباشرته السبب المحذور، وعلى هذا يخرج قوله صلى الله عليه وسلم (صلة الرحم تزيد في العمر) أي سبب طول العمر وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بها السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما سبق وذكر الشارح الكلام على القتل وعدمه.

فإن قيل هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك أم لا؟ الجواب أن ذلك غير لازم لقوله صلى الله عليه وسلم لأُم حبيبة رضي الله عنها: (قد سألت الله تعالى آجالاً مضروبة) الحديث، فعلم أن الأعمار مقدرة لم يشرع الدعاء بتغييرها، بخلاف الدعاء بالنجاة من العذاب في الآخرة فإن الدعاء مشروع له نافع فيه، ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمن النفع الأخروي شرع، كما في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (اللَّهُمَّ بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفي إذا كانت الوفاة خيراً لي) إلى آخر الدعاء، ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في صحيحة من حديث رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه) نعوذ بالله من الذنوب ومغبتها، وفي الحديث رد على من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعمة، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه (نهى عن النذر وقال إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل)، فاعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً في بعض الأشياء دون غيرها، ولهذا لا يجب الله المعتدين في الدعاء، وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول "هذا أمر قد فرغ منه".

«مسألة: -وهي ليست في المنهج- وهي قول المؤلف: "لم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم"، الله سبحانه وتعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، الله سبحانه يعلم ما كان في الماضي، وما يكون في الحاضر، وما لم يكن يعني حتى المستحيل الذي لم يكن لو كان كيف يكون، ويقول تعالى {وَلَوْ رَدُّوْا لَعَادُوْا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ} وإن كانوا لا يردون لكنه أخبر أنهم لو ردوا لعادوا لما كانوا عليه، كما قال تعالى {وَلَوْ عَلِمَ اللّٰهُ فِيْهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ} وفي ذلك رد على الرافضة والقدرية الذين قالوا إنه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده وهي من مسألة القدر.

«المسألة -التي معنا في المنهج- هي مشيئة الله: قول المؤلف "وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان وما لم يشاء لم يكن".

يقول الله سبحانه {وَمَا تَشَاءُوْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا} ويقول الله تعالى {وَمَا تَشَاءُوْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ} ويقول تعالى {وَلَوْ أَتَيْنَا نَزْلًا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ وَلَكَّمْهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ} ويقول الباري {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوْهُ} ويقول الباري {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيْعًا} ويقول تعالى {فَمَنْ يُرِدِ اللّٰهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ} وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللّٰهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ} ويقول تعالى {مَنْ يَشَأِ اللّٰهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ} إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكيف يكون في ملكه ما لا يشاؤه، ومن أضل سبيلاً وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

هاهنا إشكال قد يرد على بعض الناس في بعض الآيات، فالله سبحانه يقول في الآية الأولى {سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا} ويقول سبحانه {وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} ويقول الله تعالى {وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبْدْنَا هُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ} فقد ذمهم الله تعالى حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله، وكذلك ذم إبليس حيث أضاف الإغواء إلى الله إذ قال {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ}. وأجيب على هذا بأجوبة من أحسن هذه الأجوبة، أن الله أنكر ذلك عليهم لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد الله عليهم، فرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. وأنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به، وأنه أنكر عليهم معارضة شرعة وأمره الذي أرسل به رسله ونزل به كتبه بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة والجهال إذا أمروا أو نهوا احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر، فقال: "وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره" ويشهد لذلك قوله تعالى في الآية {كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} فاعلم أن مرادهم التكذيب، فهو من قبل الفعل من أين له أن الله لم يقدره أطلع الغيب؟! فالمنتفي هو مشيئة الله الشرعية لأن الله تعالى نهاهم عن الشرك على السنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهي تمكينهم من ذلك قدرا فلا حجة لهم فيه، لأن الله خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعبادة الكفر، وله في ذلك حجة بالغة وكلمة قاطعة. العلامة ابن القيم رحمه الله يقول: "وهاهنا أمر يجب التنبيه عليه والتنبه له، وبمعرفة نزول إشكالات كثير تعرض لمن يحيط به علما، وهو إن الله سبحانه له الخلق والأمر، وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري / وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحيط وبما يحبه وبما يكرهه كله داخل تحت مشيئته، كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله، وأما محبته ورضاه فمتعلقة بالأمر الديني وشرعه الذي شرعه على السنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعا، فهو محبوب للرب واقع بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته، وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني، وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة، فإذا عرفت هذا فقله تعالى {وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ} وقوله تعالى {وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ} وقوله {وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق". انتهى كلامه رحمه الله.

يقول الشارح: "فإن قيل فما تقولون في احتجاج آدم على موسى عليهم السلام بالقدر؟ إذ قال أتلومني على أمر كتبه الله علي قبل أن أخلق بأربعين عاما، وشهد النبي صلى الله عليه وسلم أن آدم حج موسى"، أي غلبه بالحجة، يقول الشارح رحمه الله: "قيل نتلقاه بالقبول والسمع والطاعة"، أي هذا الخبر نتلقاه بالقبول لصحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نتلقاه بالرد والتكذيب لراويه، كما فعلت القدرية ولا بالتأويلات الباردة، بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب وهو الأكل من الشجرة وعصيان الله سبحانه، وهو أعلم بربه وبذنبه بل آحاد بني من المؤمنين لا يحتج بالقدر، فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبأمره من أن يلوم آدم عليه السلام على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتبه وهداه، وإنما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم عليه السلام بالقدر على المصيبة لا على

الخطيئة، فإن القدر يُحتج به على المصائب لا عند المعايب، وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث، فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له، فإنه من تمام الرضى بالله ربا، وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب عليه أن يستغفر ويتوب من المعايب و يصبر على المصائب، يقول تعالى {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} ويقول تعالى {وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا} أما قول إبليس {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} إنما ذم على احتجاجه بالقدر لا على اعترافه بالقدر وإثباته له، ألم تسمع قول نوح عليه السلام {وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ولقد أحسن القائل: فما شئت كان وإن لم أشأ وما شئت إن لم تشأ لم يكن، وعن وهب بن منبه بن كامل الإمام الإخباري القصصي يقول: نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت، فوجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه، وأجهلهم به أنطقهم فيه.

يقول الماتن الطحاوي رحمه الله: "يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلا و يضل من يشاء ويخذل ويبتلي عدلا" وهذا ذكر بداية المحاضرة وفيه رد على المعتزلة قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهدى والإضلال التي تكلمنا عنها قبل قليل.

قالت المعتزلة الهدى من الله بيان طريق الصواب، والإضلال تسمية العبد ضالا، أو حكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه، وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم، أي أن العبد يخلق فعل نفسه، والدليل قوله تعالى {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه صلى الله عليه وسلم، لأنه صلى الله عليه وسلم بين لمن أحب وأبغض الطريق وقوله تعالى {وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا} ويقول تعالى {يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ولو كان الهدى من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة، وكذلك قوله تعالى {وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ} وكذلك قوله {مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

يقول الماتن الطحاوي رحمه الله: "وكلهم يتقلبون في مشيئته بين فضله وعدله" فإنهم كما قال الله تعالى {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} فمن هداه إلى الإيمان فبفضله وله الحمد، ومن أضله فبعده له الحمد، وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح إن شاء الله.

يقول الشارح رحمه الله فإن الشيخ يقصد الطحاوي رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد، بل فرقة فأتيت به على ترتيب الشيخ.

الحلقة (١٣)

في هذه الحلقة نتكلم عن مسائل النبوة...

◀ المسألة الأولى يقول المؤلف: "وإن محمدا عبده المصطفى، ونبيه المجتبي، ورسوله المرتضى"

فالأصطفاء والاجتباء والارتضاء متقاربة في المعنى، واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله سبحانه وتعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقا لعبودية ازداد كماله واعتلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم، يقول الله تعالى {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}، وذكر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باسم العبد في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ}

وقال تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} وقال تعالى {فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ} وقال {وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا} وبذلك استحق التقديم على الناس في الدنيا والآخرة صلى الله عليه وسلم.

ولذلك يقول المسيح ابن مريم عليه السلام يوم القيامة إذا طلبوا منه الشفاعة يقول: اذهبوا إلى محمد، فعبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى واصطفاء الله له، قال الماتن: وإن محمدا بكسر الهمزة عطف على قوله إن الله واحد لا شريك له، لأن الكل معمول القول، أعني قوله "نقوله في توحيد الله".

◀ المسألة الثانية: وهي دلائل النبوة..

ودلائل النبوة كثيرة، والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، ولكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء حتى أنهم أنكروا كرامات الأولياء الثابتة، وكذلك السحر ونحو ذلك من خرق العادات، ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل على النبوة غير محصور في المعجزات، والذين يدعون النبوة أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس الصادق بالكاذب إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن من يدعي النبوة تُعرب عنه، وتُعرف به، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، من يدعي شيء وهو غير صادق به في أقل من النبوة يظهر ذلك على وجهه وعلى قسما وجهه ومن كلامه وما يدعي به، فكيف بأمر النبوة، وما أحسن قول القائل:

لو لم يكن فيه آيات مبينة *** كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور، واستحوذ الشياطين عليهم ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فالرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور، ولا بد أن يفعل أمور يبين بها صدقه، والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به وما يخبر عنه، وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادعيا أمرا أحدهما صادق والآخر كاذب، فلا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) قال تعالى {هَلْ أَنتَبِّحُكُمْ عَلَىٰ مَن نَّزَّلَ الشَّيَاطِينُ * نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ} فالكهان ونحوهم وإن كانوا أحيانا يخبرون بشيء من الغيبيات فيكون صدقا، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس عن ملك وليسوا بأنبياء، ولهذا لما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن الصياد: قد خبأت لك خبيثة، وقال: الدخ، قال النبي صلى الله عليه وسلم (اخسأ فلن تعدو قدرك)، يعني إنما أنت كاهن وقال: يأتيني صادق وكاذب وقال أرى عرش على الماء وذلك هو عرش الشيطان، وبين الله أيضا أن الشعراء يتبعهم الغاؤون، والغاوي هو الذي يتبع هواه وشهوته، وإن كان ذلك مضرا له بالعاقبة.

فمن عرف الرسول وصدقه ومطابقة عمله بقوله، علم علما يقينيا أن النبي ليس بكاهن وليس بشاعر، والناس يميزون من الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة، حتى فيمن يدعي الصناعات والمقالات، كمن يدعي الفلاحة والنساجة والكتابة، أو علم النحو والطب والفقه، فهو سرعان ما يظهر لغير المتخصص كذبه وبطلان دعواه.

أيضا النبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بد أن يتصف بها الرسول، وهي أشرف العلوم والأعمال، فكيف يشتبه الصادق بالكاذب، ولا ريب أن المحققين على أن خبر الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترن به من القرائن ما يحصل معه العلم الضروري، كما يُعرف الرجل رضا الرجل وحبه وبغضه، وفرحه وحزنه، وغير ذلك مما في نفسه بأمر تظهر على وجهه قد لا يمكن التعبير عنها باللسان، قال تعالى {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} وقد قيل: ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، إذا كان صدق المخبر وكذبه يُعلم بما يقترن به من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله؟ كيف يخفى صدق هذا من كذبه، وكيف لا يتميز الصادق في ذلك والكاذب بوجوه من الأدلة؟! ولهذا لما كانت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها تعلم من النبي صلى الله عليه وسلم أنه الصادق البار، قال لها: لما جاءه الوحي (أني قد خشيت على نفسي) فقالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق، فهو صلى الله عليه وسلم لم يخف من تعمد الكذب، فهو يعلم من نفسه أنه لم يكذب، إنما خاف أن يكون قد عرض له عارض سوء، وهو المقام الثاني، فذكرت خديجة ما ينفي هذا وهو ما كان مجبول عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وقد علم من سنة الله أنه من جبله على الأخلاق المحمودة، ونزعه عن الأخلاق المذمومة، فإنه لا يخزيه أبدا.

وكذلك قال النجاشي لما قدم عليه وفد المهاجرين، واستخبرهم وأخبروه، واستقرأهم القرآن فقرءوه عليه، قال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

وكذلك ورقة بن نوفل لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رآه، وكان ورقة قد تنصر، وكان يكتب الأنجيل بالعربية، فقالت خديجة: أي عم اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى، فقال: هذا هو الناموس الذي يأتي موسى.

وكذلك هرقل ملك الروم فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كتب إليه يدعو على الإسلام، طلب من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قبل إسلامه قدم في طائفة من قريش في تجارة إلى الشام، وسألهم عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم، فسأل أبا سفيان وأمر الباقون إن كذب أبو سفيان أن يكذبه، فصاروا بسكوتهم موافقين له في الإخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن أحواله، سألهم هرقل: هل كان في آبائه من ملك؟ أجابوا: لا، ثم سألهم هل هذا القول قاله أحد قبله؟ قالوا: لا، وسألهم هل هو ذو نسب فيكم؟ قالوا: نعم، سألهم هل تتهمون به قبل أن يقول ما قال؟ قالوا: ما جربنا عليه الكذب، بل كان اسمه الأمين-قبل أن يأتيهم بالحق- وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرفهم؟ فردوا: بل الضعفاء من اتبعوه، وسألهم هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكروا: أنهم يزيدون، وسألهم هل يرجع أحد منهم عن دينه سخطة بعد أن يدخل فيه؟ قالوا: لا، وسألهم هل قاتلتموه؟ قالوا: نعم، وسألهم عن الحرب بينه وبينهم؟ قالوا: يدال علينا مرة وندال عليه مرة أخرى، وسألهم هل يغدر؟ قالوا: لا، وسألهم بماذا يأمركم؟ فقالوا: يأمرنا بأن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، وينهانا عما كان يعبد آباءنا ويأمرنا بالصدق والعفاف والصلة.

ثم بين هرقل ما في هذه المسائل من أدلة فقال: سألتكم هل كان من آبائه من ملك قلتم: لا، قلت لو كان في آبائه ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه، سألتكم هل قال: هذا القول فيكم أحد قبله فقلت: لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله قلت: رجل أتم بقول قيل قبله، وسألتكم هل تتهمون بالكذب قبل أن يقول ما قال قلتم: لا، قلت قد علمت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يكذب على الله تعالى، وسألتكم هل ضعفاء الناس يتبعونه أم أشرفهم قلتم بل ضعفاءهم،

قلت: كذلك هم أتباع الرسل في أول مرهم يتبعهم الضعفاء، وسألتكم هل يزيدون أم ينقصون، قلت: بل يزيدون كذلك الإيمان حتى يتم، وسألتكم: هل يترد أحد منهم عن دينه سخطة؟ أي يغضب من دينه سخطة بعد أن يدخل فيه، فقلت: لا، قلت كذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد.

وهذا من أعظم علامات الصدق والحق فإن الكذب والباطل لا بد أن ينكشف في آخر الأمر، فيرجع عنه أصحابه ويمتنع عنه من لم يدخل فيه، والكذب لا يروج إلا قليلا ثم ينكشف، يقول هرقل: وسألتكم كيف الحرب بينكم وبينه، فقلت: إنها دول وكذلك الرسل تبلى وتكون العاقبة لهم، وسألتكم هل يغدر، فقلت: لا، وكذلك الرسل لا يغدرون، وهو لما كان عنده من علمه بعدد الرسل وسنة الله فيهم، أنه تارة ينصرهم وتارة يبتليهم وأنهم لا يغدرون، علم أن هذه علامات الرسل وأن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء، لينالوا درجة الشكر والصبر، كما جاء في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)، والله تعالى قد بين في القرآن الكريم ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة، قال تعالى: {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} وقال تعالى {الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ}، وغير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته وحكمته التي بهرت العقول.

يقول هرقل: وسألتكم عما يأمر به، فقلت: يأمرنا بعبادة الله ولا نشرك به شيئا، ويأمركم بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم وهذه صفة نبي، -من يأمر بهذه الأشياء لا يكون إلا نبيا- وقد كنت أعلم أن نبيا يبعث -والكلام لهرقل- ولم أكن أظنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه لولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدي هاتين، -وكان المخاطب الصحابي الجليل أبو سفيان بن حرب قبل إسلامه، وكان من أشد الناس بغضا للرسول- قال: فقلت لأصحابي ونحن خروج، لقد أمر أمرُ بن أبي كبشة -يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم- إنه ليعظمه ملك بني الأصفر -يقصد هرقل- ومازلت موقنا بأن أمر النبي صلى الله عليه وسلم سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام وأنا كاره.

ومما ينبغي أن يعرف أنه ما يحصل في القلب مجموع أمور قد لا يستقل بعضها به، بل ما يحصل للأنسان من شبع، وري، وشكر، وفرح، وغم، بأمور مجتمعة لا يحصل ببعضها، لكن بعضها قد يحصل بعض الأمر، وكذلك العلم بخبر من الأخبار، فإن خبر الواحد يحصل للقلب نوع ظن، ثم الآخر يقويه، إلى أن ينتهي إلى العلم، حتى يتزايد ويقوى، وكذلك الأدلة على الصدق والكذب ونحو ذلك، وأيضا فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله لمكذبيهم من العقوبة، فتواتر الطوفان وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر الله سبحانه قصص الأنبياء في سورة الشعراء كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول في آخر كل قصة: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهْوُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}.

وبالجملة فالعلم (بأنه كان في الأرض من يقول إنه رسول الله وأن أقواما اتبعوه وأن أقواما خالفوه وأن الله نصر الرسل والمؤمنين وجعل العاقبة لهم وعاقب أعداءهم) هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل أخبار هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس وعلماء الطب، كبقراط وسقراط وغيرهم وأتباعهم، ونحن اليوم إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم، علمنا يقينا أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة، منها أنهم

أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أعدائهم وبقاء العقابة لهم، وهذا ظاهر في انتشار الإسلام وبقائه بعد النبي صلى الله عليه وسلم لمدة ألف وأربعمائة سنة، ومنها ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عُرف الوجه الذي حصل عليه كغرق فرعون لما كذب وحارب موسى عليه السلام، وغرق قوم نوح لما كذبوه، وبقية أحوالهم عُرف صدق الرسل، ومنها أن من عرف ما جاء به الرسل من الشرائع وتفصيل أحوالهم، تبين له أنهم أعلم الخلق وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل، وأن فيما جاءوا به من الرحمة والمصلحة والهدى والخير، ودلالة الخلق على ما ينفعهم، ومنع ما يضرهم ما يبين أنه لا يصدر إلا عن راحم بَرٍّ يقصد غاية الخير والمنفعة للخلق، ولذكر دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كتب مؤلفة منها "دلائل البهقي" وغيرها، الحاصل أن بسط مثل هذه الأمور يطول ويُرجع إلى هذه الكتب، لعل أختتم هذه الحلقة واكتفي بما ذكرت من هذه النقاط من المنهج.

الحلقة (١٤)

في هذه الحلقة سنتكلم عن النبي صلى الله عليه وسلم "هو خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء" فالنبوة خُتِمت بمحمد، يقول الله سبحانه: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ} ويقول صلى الله عليه وسلم: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل قصر أحسن بناؤه وترك منه موضع لبنة، فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنائه إلا موضع تلك اللبنة لا يعيرون سواها، فكنت أنا سدوت موضع تلك اللبنة، خُتِمَ بي البنيان وخُتِمَ بي الرسل) وأصل الحديث في الصحيحين، ويقول صلى الله عليه وسلم: (إن لي أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدي، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي) وفي صحيح مسلم عن ثوبان قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (وإنه سيكون من أممي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي).. الحديث ولمسلم أيضا أن الرسول قال: (فُضِّلَتْ على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون).

أما قول الماتن الطحاوي رحمه الله "إمام الأتقياء": فالإمام الذي يؤتم به أي يقتدى به، والرسول صلى الله عليه وسلم بُعث للاقتداء به لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء، والرسول كما يقول الماتن الطحاوي: "وسيد المرسلين" يقول الرسول: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع) وفي أول حديث الشفاعة يقول: (أنا سيد الناس يوم القيامة)، وروى مسلم والترمذي عن واثنة بن الأصقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)، هذا ما يتعلق بالكلام عن قول المؤلف رحمه الله: خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء وسيد المرسلين.

« مسألة وهي مسألة التفضيل بين الأنبياء: التفضيل بين الأنبياء جاء به النص كما قال عز وجل {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} والرسل كثيرون، وأفضلهم أولوا العزم من الرسل وهم خمسة، من ناحية الزمان: نوح ثم إبراهيم ثم موسى وعيسى ثم محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جاء ذكرهم في سورتي الأحزاب والشورى، وهؤلاء الخمسة أفضلهم محمد، فقد فُضِّلَ إبراهيم بالخلعة، {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا}، والله عز وجل جعل محمد خليلا له كما ثبت ذلك في السنة، ففضل إبراهيم جاء لمحمد، وفضِّلَ موسى بالتكليم، ومحمد مُكَلِّمٌ كما في حديث المعراج.

« مسألة: إن الفضل والتفاضل والتخير بين الأنبياء له حالتان:

١- حالة عامة

٢- وحالة خاصة كما ساقها المؤلف وكما سنقرؤها بعد قليل.

فالحالة العامة : يجوز فيها ذلك بمعنى أن يُقال محمد أفضل المرسلين، سيد المرسلين، أشرف الأنبياء والمرسلين،

أما الحالة الخاصة: في مقابلة نبي بذاته، فهذا يكون خصوص فلا يجري التفضيل على وجه الاختيار، ولهذا جاء في السنة إن النبي قال: (لا تخيروني على موسى، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفقق فإذا أنا بموسى آخذ أو قال باطش بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور) فقوله (لا تخيروني على موسى) وفي رواية (لا تفضلوني على موسى) دل على عدم جواز التفضيل الخاص.

أيضا مسألة التفضيل أن هذا البحث (بحث التفضيل بين الأنبياء) جاءت فيه أحاديث منها حديث (لا تفضلوني على موسى) (لا تخيروني على موسى) ومنها حديث عام (لا تخيروا بين الأنبياء)، ومنها حديث خاص بيونس عليه السلام: (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) وفي رواية (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) وهذا اختلفت فيه أنظار العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث والتفضيل، وما جاء في القرآن الكريم من قول الله عز وجل: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}، وأحسن الأجوبة على ذلك أن يقال:

• **أولا:** أن قول النبي صلى الله عليه وسلم (لا تخيروني على موسى) هذا قاله بسبب قصة وردت، وهو أن يهوديا ومسلما اختلفا، فافتخر اليهودي على المسلم بموسى، والمسلم رد على اليهودي ولطمه، فإذاً يكون النهي إذا كان التفضيل الخاص جاء على جهة العصبية والحمية والفخر، ولهذا جاء في الحديث: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فدل على أن التفضيل إذا كان مورده الفخر والعصبية فإنه يُمنع منه.

• **ثانيا:** أن جهات الفضل متنوعة، والتفضيل من جهة جنس الفضائل سائغ، ومن جهة كل فضيلة بحسبها متعدد، ولهذا يُقال إن تفضيل محمد من جهة مجموع الفضائل، ولا يُنص على أنه أفضل من غيره من الرسل في كل فضيلة عند جميع الرسل، يعني من حيث النظر العام.

• **ثالثا:** أن يُقال إن التفضيل بين الأنبياء لا حاجة إليه، لأن الأنبياء والرسل رسالتهم واحدة، والله عز وجل وصف المؤمنين بأنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرقون بين أحد من رسله، والرسل وصفهم النبي بقوله: (الأنبياء إخوة لعلات، الدين واحد والشرائع شتى)، وتولي جميع الرسل فرض، ومحبتهم جميعا فرض، فإذاً الدخول في التفضيل دخول فيما لا طائل تحته، فالواجب أن يُبقى في ذلك على النص، وهو ما ذكر في البداية من أن التفضيل العام دون التفضيل الخاص، أما قول رسول الله: (من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب) فهذا لأن بعض الناس قد يظن أن يونس عليه السلام فعل ما يُلام عليه، إذ قال الله عنه {مُئِمِّمٌ}، وأنه عوقب بأن كان في البحر وفي بطن الحوت ثم قال: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، فقال إن هذه الكلمة ربما تكون لمن فعل شيئا يُلام عليه وعوقب، فقال إن يونس بن متى قالها لأنه فعل ما فعل، وهذا في الحقيقة غلط وغير صحيح، لأنه لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى، فيترك الدعاء بهذا الدعاء العظيم، فقد دعا به آدم عليه السلام ودعا به موسى وغيرهما من الأنبياء والمرسلين، إذن هذا الدعاء وحال يونس بن متى ليس فيها نص في حقه عليه السلام، أعني يونس بن متى، فإذاً لا ينبغي أن يُقال أن فلان أفضل من يونس من جهة الاستحباب، أي لا ينبغي أن يقال إن محمدا أفضل من يونس بن متى على جهة الاستحباب، والدليل دل على عدم الجواز فيمن يقوله لنفسه، فلا يجوز لأحد أن يقول أنا أفضل من يونس بن متى، والنبي ترك ذلك وهو أكمل الخلق.

هذا البحث ربما لم تظهر حاجته لكن بحثه العلماء في هذا الموضوع لأن هناك من يعتقد الكمال في الولاية، ومن يظن أن

حالته أرفع من حالة يونس بن متى عليه السلام، فإذا قيل يُشكل على قوله صلى الله عليه وسلم -كلام الشارح-: (لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بساق العرش فلا أدري هل أفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله) فكيف يجمع بين هذا وبين قوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر).

يقول الشارح: "فالجواب أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم وقال: أتقول هذا ورسول الله بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية هوى، وهوى النفس كان مذموماً، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموماً، فإن الله حرم الفخر وقد قال تعالى: {وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ} وقال: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ}، فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر أو على وجه الانتقاص من المفضل، وعلى هذا يحمل قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوا بين الأنبياء) كما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذن فإن كان هذا روي في حديث موسى فهو في البخاري وغيره لكن بعض الناس يقول أن فيه علة بخلاف حديث موسى فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم، وقد أجاب بعضهم بجواب آخر وهو أن قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوني على موسى) وقوله (لا تفضلوا بين الأنبياء) نهي عن التفضيل الخاص، أي لا يُفضل بعض الرسل على بعض بعينه، بخلاف قوله: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر) فإنه تفضيل عام فلا يُمنع منه، وهذا كما لو قيل فلان أفضل أهل البلد لا يصعب على أفرادهم، بخلاف ما لو قيل لأحدهم فلان أفضل منك، -يقول الشارح- ثم رأيت الطحاوي رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب في شرح معاني الآثار، -كما قدمنا في الحلقة الأولى- أما ما يروى أن النبي قال: (لا تفضلوني على يونس) فهذا كلام الشارح فيه كما بينت، يقول حادثة وقعت على عهد بن أبي العز: بعض الشيوخ (ولعله من الدجاجلة وليس من الشيوخ) لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يُعطى مالا جزيلاً، فلما أعطوه المال فسر به بأن قرب يونس من الله وهو في بطن الحوت كقربي من الله ليلة المعراج، وعدوا هذا تفسيراً عظيماً، وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وكلام رسوله لفظاً ومعنى.

فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يُعتمد عليها، وإنما اللفظ الذي في الصحيح (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) وفي رواية (من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب) وهذا اللفظ يدل على العموم، أي لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس عليه السلام، ليس فيه نهي للمسلمين أن يفضلوا محمداً على يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه ألتقمه الحوت وهو مليم، أي فاعل ما يُلام عليه وقال الله تعالى {وَذَا التَّوْنِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس فلا يحتاج إلى مقام هذا الدعاء، إذ لا يفعل ما يُلام عليه، ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} كما قال أول الأنبياء وآخرهم، أول الأنبياء آدم قال: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} وآخرهم وأفضلهم وخاتمهم وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم قال في الحديث الصحيح حديث الاستفتاح من رواية علي بن أبي طالب بعد قوله: (وجهت وجهي إليك.. إلى آخره.. اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذُنُوبِي فَاعْفُرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ) وكذا قال موسى عليه السلام: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} وأيضا يونس عليه السلام لما قيل فيه {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ} فنهى نبينا عن التشبه بيونس وأمر بالتشبه بأولي

العزم من الرسل، حيث قيل له {قَاصِرٌ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ} فقد يقال لمن يقول أنا خير منه وليس للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}، وفي صحيح مسلم عن النبي أنه قال: (أَوْحِي إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ) فالله تعالى نهى أن يُفخر على عموم المؤمنين فكيف على نبي كريم، فلهذا قال: (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى) فهذا نهى عام بكل أحد أن يتفضل أو يفخر على يونس عليه السلام.

وقوله: (من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب) فإنه لو قُدِّر أنه كان أفضل فهذا الكلام يصير أنقص فكيف يكون كاذباً، وهذا لا يقوله نبي كريم بل هو تقدير مُطلق أي من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبي، كما قال تعالى: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} وإن كان النبي معصوماً من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال، وإنما أخبر النبي بأنه سيد ولد آدم لأننا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بحبره إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عن الله سبحانه كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله صلى الله عليه وسلم أجمعين، ولهذا أتبعه بقوله: (ولا فخر) كما جاء في رواية "وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر إن مقام الذي أُسري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم كمقام الذي أُلقي في بطن الحوت وهو مُليم، وأين معظم المقرب من الممتحن المؤدب، فهذا في غاية التقريب وفي غاية التأديب" فانظر إلى هذا الاستدلال بهذا المعنى المحرّف للفظ لم يقله الرسول، وهل يقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى على خلقه؟ الأدلة الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه التي تزيد على ألف دليل كما يأتي الإشارة إليه عند قول الشيخ رحمه الله: "محيط بكل شي وفوقه" إن شاء الله.

المسألة التي تليها وسنتحدث عنها إن شاء الله هي قول المؤلف رحمه الله: "حبيب رب العالمين" المحبة، محبة رب العالمين محبة الله عز وجل لنبيه هذه متحققة، وإنما نُظِر في مسألة الحُلة، والمحبة لفظ عام يدخل تحته مراتب في اللغة، وأعلى مراتب المحبة هي مرتبة الحُلة، وهي أعلاها على الإطلاق، فالتعبير بحبيب رب العالمين من الطحاوي مال إليه لأجل ما ورد في بعض الحديث (إن إبراهيم عليه السلام خليل الله ومحمد حبيب رب العالمين).

والجواب أن هذا الاختصار على مرتبة المحبة العامة للنبي قصور في التأليف من الطحاوي رحمه الله، لأنه صلى الله عليه وسلم هو حبيب رب العالمين وهو خليل رب العالمين أيضاً كما أخبرنا صلى الله عليه وسلم، فإبراهيم عليه السلام خليل الرحمن كما قال الله {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} وكذلك محمد خليل الله كما ثبت ذلك في السنة قال: (لو كنت متخذاً أحداً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، إن صاحبكم خليل الرحمن أو قال خليل الله) فدل هذا مع أحاديث أخرى في الباب على أن المحبة ثابتة للنبي وفوقها مرتبة الحُلة ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم، إذا تبين ذلك فها هنا عندنا أكثر من مسألة.

مسألة مهمة أن المحبة بمراتبها التي تُضاف إلى رب العالمين، إنما هي ما ورد في نصوص الشرع، وبعض الناس غلوا في ذلك، فوصفوا الله عز وجل بكل مراتب المحبة، وهذا باطل وغلو، وبعضهم جفا كالجهمية والمعتزلة ومن نحا نحوهم، فنفوا المحبة بمعناها الظاهر وما يكون من مراتبها، فنفوا حقيقة محبة الله لعبده، ونفوا حقيقة اتخاذ الله عز وجل لعبده إبراهيم خليلاً، وأولوا ذلك كما سيأتي في مواضعه في بيان أصولهم في الصفات، وأهل السنة والجماعة رحمهم الله بين هاتين الطائفتين فلم يغلوا في محبة الله لعبده، ولم يكونوا من الجفاة الذين جحدوها، بل سلكوا الأصل الذي أصولوه وأن هذه المسائل تبع لما ورد في نصوص الوحيين الكتاب والسنة، فمن مراتب المحبة التي جاءت فيها النصوص كما سنقرأ في كلام الشارح: وثبت لله عز وجل الإرادة الخاصة التي هي بمعنى المحبة، والمحبة بلفظها، وكذلك المودة، وكذلك أعلى مرتبة وهي مرتبة الحُلة، هذه هي التي ثبتت في النصوص هذه الأربع: إرادة ومحبة ومودة وحُلة، وما سواها فلا يجوز لأنه لم يرد في الشرع.

الحلقة (١٥)

في هذه الحلقة سنتكلم عن قول المؤلف: "وحبيب رب العالمين" وثبوت الخُلة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ثبت له صلى الله عليه وسلم أعلى مراتب المحبة وهي الخُلة، فهو خليل الرحمن كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً) ويقول صلى الله عليه وسلم: (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الرحمن) والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، كما سار على ذلك المؤلف حيث قال "وحبيب رب العالمين"، فالخلة أعلى درجات المحبة، فإبراهيم خليل الله ومحمد حبيبه، والصحيح أنه قال: (إني أبرأ إلى كل خليل من خُلته) فالصحيح أن محمداً صلى الله عليه وسلم في درجة أعلى من حبيب رب العالمين وإنما هو خليل الرحمن كما كان إبراهيم خليل للرحمن.

المحبة قد تثبت لغيره قال الله تعالى {وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} فبطل قول من خص الخلة بإبراهيم والمحبة بمحمد صلى الله عليهما وسلم، بل الخلة خاصة بهما والمحبة عامة، وحديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه الترمذي الذي فيه (إن إبراهيم خليل الله، وأنا حبيب الله ولا فخر) لم يثبت.

المحبة مراتب: -وهذا من التقسيم الذي ليس عليه نص ولكنه يُستأنس به-

١.العلاقة وهي تعلق القلب بالمحبوب.

٢.الإرادة وهي ميل القلب إلى محبوه وطلبه له.

٣.الصباغة وهي انصباب القلب إليه بحيث لا يملكه صاحبه كانصباب الماء في الحدود.

الغرام الحب اللازم للقلب، ومنه الغريم صاحب الدين لملازمته لغريمه، ومنه قول الله تعالى {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}.

٤.المودة والود وهو صفو المحبة، وخالصها ولبها، يقول الله تعالى {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}.

٥.الشغف وهي وصول المحبة إلى شغاف القلب، والشغاف ما يغطي الطبقة التي تكون على القلب.

٦.العشق وهو الحب المفرط الذي يُخاف على صاحبه منه، ولكن لا يوصف به الرب جل وعلا ولا العبد في محبة ربه، فلا العبد يعشق ربه، ولا الرب يعشق عبده، وإن كان قد أطلقه بعض الصوفية والعباد، واختلف في سبب المنع، فقيل عدم التوقيف، وقيل غير ذلك، ولعل امتناع إطلاقه أن العشق محبة مع شهوة -وهو ترجيح الشارح- وهي منتفية من الطرفين، فهي منتفية أن تكون من العبد لربه أو من الرب لعبده تعالى الله عن ذلك.

٧.التتيم وهي بمعنى التعبد.

٨.التعبد.

٩.الخلة، وهي المحبة التي تخللت روح المُحب وقلبه، يقول شارح الطحاوية "وقيل في ترتيبها غير ذلك، وهذا الترتيب تقريب حسن يُعرف حسنه بالتأمل في معانيه".

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخلة هو كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى وعظمته كسائر صفاته تعالى، وإنما يوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والود والمحبة والخلة حسبما ورد في النص، وقد اختلف في تحديد المحبة على أقوال، نحو ثلاثين قولاً، ولا تحدّ المحبة بحدّ أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاءً، كلمة المحبة بذاتها واضحة وهذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد كالماء والهواء والتراب والجوع والشبع ونحو ذلك.

وقول المؤلف "وكل دعوة نبوة بعده فني وهوى".

لما ثبت أنه خاتم النبيين عُلِمَ أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب، ولا يقال، فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه، لأننا نقول هذا لا يُتصور أن يوجد وهو من باب فرض المحال، لأن الله تعالى لما أخبر أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فمن المُحال أن يأتي مدعي يدعي النبوة ولا تظهر أماره كذبه في دعواه.

وقول المؤلف: "فني وهوى" الغي ضد الرشاد والهوى عبارة عن شهوة النفس، أي أن تلك الدعوة بسبب هوى النفس لا عن دليل فتكون باطلة.

وقول المؤلف الطحاوي: "وهو المبعوث إلى عامة الجن، وكافة الورى، بالحق والهدى، وبالنور والضياء"

أما كونه صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى عامة الجن فقد قال الله تعالى حكاية عن قول الجن {يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ} وكذا سورة الجن تدل على أنه أُرسِل إليهم أيضا، يقول المقاتل (لم يبعث الله رسولا إلى الجن والإنس قبله -يعني قبل محمد صلى الله عليه وسلم-) وهذا قول بعيد فقد قال الله تعالى {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ} والرسول من الإنس فقط وليس من الجن رسول، وكذا قال مجاهد وغيره من السلف والخلف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما الرُّسل من بني آدم ومن الجن نُذر، وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن {إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى} يدل على أن موسى مرسلٌ إليهم أيضاً والله أعلم.

حكى ابن جرير صاحب التفسير عن الضحاك بن مزاحم أنه زعم أن في الجن رسلا، واحتج بهذه الآية الكريمة، وفي الاستدلال بها على ذلك نظر، لأنها محتملة وليست بصریحة وهي والله أعلم كقوله {يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ} المراد من أحدهما.

أما كونه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى كافة الورى فقد قال الله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} وقال تعالى {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} وقال تعالى {وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} أي وأنذر من بلغه، ويقول تعالى {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} وقال تعالى {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ...} الآية ويقول الله تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}، ويقول الله تعالى {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَاسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}. وقال صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة) أخرجاه في الصحيحين، ويقول صلى الله عليه وسلم: (لا يسمع بي رجل من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار) رواه مسلم، وكونه صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة، أما قول بعض النصارى إنه رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان، فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به، وقد قال (إنه رسول الله إلى الناس عامة) والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتماً، فقد أرسل رسله وبعث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وسائر الملوك يدعو إلى الإسلام.

يقول المؤلف "المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى" وكافة في إضافتها للورى يعني الناس صحيحة، وجاءت في لغة العرب قليلة، واستعملها عمر رضي الله عنه وهي صحيحة، خلافاً لمن قال إن كافة لا تستخدم إلا منصوبة على وجه الحال، يعني أن

تكون حالاً كما قال عز وجل {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} فالأصل أن تكون منصوبة حال ويجوز في لغة قليلة استعملت مضافة. يقول الشارح: "وكافة الوري" في جر "كافة" نظر، وهنا يعترض الشارح على المؤلف في جر كلمة "كافة" يقول الشارح: "فإنهم قالوا لم تستعمل كافة في كلام العرب إلا حالاً، لا تأتي إلا منصوبة" واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ} على ثلاثة أقوال:

- **أحدها:** أنها حال من الكاف في أرسلناك وهي اسم فاعل والتاء فيها للمبالغة، أي إلا كافاً للناس عن الباطل، وقيل هي مصدر كفّ فهي بمعنى كفّ أي إلا أن تكف الناس كفّاً ووقوع المصدر حالاً، كثير.
- **الثاني:** أنها حال من الناس، فهي منصوبة، واعتُرض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور، وأجيب بأنه قد جاء عن العرب كثير فوجب قبوله، وهو اختيار ابن مالك رحمه الله أي وما أرسلناك إلا للناس كافة.
- **الثالث:** أنها صفة لمصدر محذوف.

وكلام الشارح رحمه الله أن (كافة) جرّها فيه نظر هو غير صحيح، وأنها لا تأتي إلا منصوبة غير صحيح، فقد استعملها عمر رضي الله عنه وكذلك هي مستعملة في لغة قليلة عند العرب.

قول الطحاوي رحمه الله: "بالحق والهدى والنور والضياء" هذه أوصاف ما جاء به صلى الله عليه وسلم من النور المؤيد بالبراهين الباهرة من القرآن وسائر الأدلة، والضياء أكمل من النور قال تعالى {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا} هذا ما يتعلق بالكلام على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإنس والجن كافة، وإعراب كلمة (كافة) وأن في إضافتها للوري نظر، وفي كلام الشارح نظر، وأنها جاءت في لغة قليلة عن العرب، واستعملها عمر رضي الله عنه وهي صحيحة، خلافاً لمن قال إن كافة لا تستخدم إلا منصوبة على وجه الحال، يعني أن تكون حالاً كما قال الله عز وجل {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا} فالأصل أن تكون منصوبة حال، ويجوز في لغة قليلة من لغة العرب أن تستعمل مضافة، فيكون كلام الطحاوي رحمه الله عندما قال "وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الوري بالحق والهدى والنور والضياء".

الحلقة (١٦)

← مسألة الكلام

يقول الطحاوي رحمه الله "وإن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ}، فلما أوعده الله بسقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر"

هذا الكلام من الطحاوي رحمه الله اشتمل على أمور:

أولاً: يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أئمة الحديث والأثر في مسألة القرآن وكلام الله عز وجل، وأن القرآن كلام الله منه بدأ وإليه يعود، وأن القرآن ليس بمخلوق، وأن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر، وأن من زعم أن القرآن كلام البشر فهو كافر للتواتر في ذلك، يقول الله {سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ} ومسألة كون القرآن كلام الله عز وجل منزل غير مخلوق من أكبر المسائل التي اختلف فيها المنتسبون إلى القبلة، ولكثرة الكلام فيها، يقال سمي أهل الكلام بأهل الكلام لأجل الكلام في هذه المسألة، وفي القرن الثاني الهجري كثر الكلام فيها إثباتاً ونفيًا، يعني إثبات أن القرآن كلام الله وأن الله يتكلم حقيقة وما أشبه ذلك،

والكلام أيضاً في نفي صفة الكلام عن الله تعالى حتى صارت عنواناً على الانحراف في التوحيد بما يسمى علم الكلام. مذهب أهل السنة والجماعة الذي دلت عليه النصوص من القرآن والسنة ودل عليه إجماع سلف هذه الأمة، هو ما ذكره الطحاوي في كلامه قبل قليل: "أن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً" وهذه الجمل اشتملت على مسائل وموضوعات، لا بد أن تستقر في ذهن ولا ينبغي أن يساوم عليها، لأنها ثابتة بالقرآن والسنة، ويثبتها العقل، وهي:

الأول: أن القرآن كلام الله.

الثاني: أن القرآن ليس بمخلوق.

الثالث: من زعم أن القرآن الكريم كلام البشر فهو كافر.

قول المؤلف "أن القرآن كلام الله منه بدأ"

القرآن لغة: مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، كما يقول الشاعر في وصف عثمان رضي الله عنه:

ضحوا بأشمط عنوان السجود به *** يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

يعني يقطع الليل تسبيحاً وقراءة للقرآن رضي الله عنه.

اصطلاحاً: القرآن: اسم لكل كتاب يتلى أنزله الله عز وجل على نبي من أنبياءه، وذلك يدل على أن تخصيص القرآن بالاسم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو كتخصيص الدين الذي أنزل عليه بالإسلام، فالقرآن هو الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن الإسلام هو الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وإن اشترك في الإسلام دعوة جميع الأنبياء والمرسلين وكذلك القرآن، دل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه: (ما أذن الله لشيء إذنه لنبي يقرأ القرآن يجهر به يتغنى به) فدل على أن قراءة النبي بما أنزل عليه والتغني بذلك دل على أن هذه القراءة للقرآن كما نص عليه الحديث، وهذا موافق لقولهم لأن أصل كلمة قرآن مصدر لكلمة قرأ يقرأ قراءة وقرآناً، لكن هي لما فيه شرف ومنزلة، كلام الله هو صفة من صفاته سبحانه وتعالى، والكلام أصله في اللغة ما سُمع من الأقوال وتعدى قائله، وهو مأخوذ من اشتقاق المادة أصلاً الكاف واللام والميم، وهذا الأصل يدل على قوة وشدة في تصرفاتها وتفرعاتها في لغة العرب، كما ذكر ذلك ابن الجني في كتابه (خصائص اللغة)، يدل على أن حديث النفس لا يسمى في اللغة كلاماً، وعلى أن القول الذي يسمعه صاحبه دون غيره، يعني ما يُجربه في نفسه لا يسمى كلاماً في اللغة، أو يحرك به لسانه لا يسمى كلاماً حتى يسمعه منه غيره، وهذا يدل عليه من حيث الاشتقاق الأكبر والأوسط أن هذه الأحرف الثلاثة هي كلم حيث ما فرقته لا تدل على خفاء ولا لين ولا رخاوة، بل هي تدل على قوة وصلابة وشدة.

قوله: "كلام الله" الكلام صفة من صفات الباري جل وعلا، وإضافته إلى الله عز وجل هي إضافة صفة إلى متصف بها، والذي جاء في القرآن والسنة أن ما يضاف إلى الله عز وجل نوعان:

الأول: إضافة مخلوقات الله إلى الله عز وجل، أعيان قائمة بنفسها وهي كإضافة البيت إلى الله، تقول بيت الله، وكعبة الله، وإضافة الناقة إلى الله ناقة صالح عليه السلام يقول الله تعالى {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا}، وإضافة العبد كما قال الله تعالى {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}، كل هذا إضافة مخلوق إلى خالقه، وهذه الإضافة بتخصيصها بالله عز وجل تدل على شرف المضاف إلى الله عز وجل، يعني على شرف البيت والناقة والعبد الذي هو محمد صلى الله عليه وسلم

الثاني: إضافة المعاني وليست بالأعيان، يعني نضيف إلى الله معانٍ، معانٍ لا تقوم بنفسها، مثل الرحمة فلا يوجد أمامنا شيء

يسمى رحمة مستقل عن من يقوم به، ولا يوجد عندنا شيء يسمى كلام مستقل عن متكلم أو سامع، فهذه المعاني والصفات إذا أضيفت إلى الله عز وجل فهي إضافة صفة إلى متصف بها، وهذا أخذ بقواعد اللغة العربية.

وقول المؤلف: "منه بدأ بلا كيفية قولاً" - وسنأتي إلى كلام الشارح الذي هو المقرر وإنما هذا للتبيين والتوضيح وإن كان سيرد عليكم فيه أسئلة - فقوله "منه بدأ بلا كيفية قولاً" فهذه الكلمة أوردتها لاستعمال طائفة من أئمة الحديث والأثر لهذه الكلمة، وأنهم قالوا القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فاستعملها كما استعملها الأئمة من قبله، وقوله "منه بدأ" بدأ من الله سبحانه وتعالى و"من" هنا ابتدائية، و"من" لها استعمالات كثيرة في اللغة، منها أن تكون للابتداء وقد جمع الناظم في حروف المعاني، جمع معاني "من" في اللغة العربية في اثنتي عشرة معنى، وهي تزيد على ذلك، فأول معاني "من" التبيين ثم التبعض والتعليل والبدء.

ومعنى "من" الابتدائية أن يكون الفعل بدأ من المُسند إليه، وقوله هنا "منه بدأ" يعني أنه ابتداء من الله عز وجل، يعني من الله ابتداءً، فيعني بـ "من" أن ابتداءه كان من الله عز وجل، وهذا دلت عليه آيات كثيرة كقوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وقوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وغير ذلك من الآيات.

قوله: "منه بدأ" بالتخفيف من غير همز، يعني كان ابتداء ظهوره وخروجه من الله عز وجل، ويقال فيه أيضاً "منه بدأ" بالهمز يعني بدأ، يعني الابتداء منه ابتداءً، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي بدأه، ولم يُبتدأ تنزيله من غير الله عز وجل بل نزل من الله ابتداءً.

وقول الطحاوي "بلا كيفية قولاً": تقدير الكلام أو سياق سبر الكلام المراد منه: منه بدأ قولاً بلا كيفية، يعني منه بدأ فلم يبتدئ منه معنى ولكن بدأ منه قولاً، ظهر وخرج القرآن منه قولاً، فهو كلامه وقد ظهر وخرج أو ابتداءً منه قولاً، ففي قوله (قولاً) إخراج لمن ادعى أنه معنى من المعاني جعل في نفس جبريل عليه السلام.

قوله "بلا كيفية" يعني بلا كيفية معقولة لنا، وإلا فإن كلام الله سبحانه وتعالى لا شك أن له كيف ولكن كيف غير معقول، فيصدق على هذا قول الإمام مالك بن أنس رحمه الله في مسألة الاستواء عندما سئل عنه فقال: (إن الاستواء معلوم، أو غير مجهول، والكيف غير معقول والإيمان به واجب...) الخ

قال الطحاوي "وأنزله على رسوله وحياً" أنزله يعني الإنزال من الله عز وجل، والإنزال في القرآن والسنة جاء على نوعين:

الأول: الإنزال المطلق وهذا يكون من الله عز وجل، وقد يكون يُذكر أنه من الله، وقد لا يذكر فيه أنه من الله.

الثاني: الإنزال المقيد، يعني أنه يُقيد ابتداء الإنزال من شيء مخلوق (ونزلنا من السماء)، فصار هنا ابتداء الإنزال أو التنزيل من السماء ونحو ذلك من الآيات التي فيها التنزيل المقيد، إذ قوله (أنزله على رسوله) هذا لأجل أن الآيات فيها ذكر التنزيل، والتنزيل مطلق منه عز وجل كقوله: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ}، وكقوله {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ}، وفي آية الشعراء هذه قوله {عَلَى قَلْبِكَ}: لأن القلب به تتميز المدرجات المسموعة أو المدرجات المرئية أو المدرجات المعقولة، فذكر القلب في آية الشعراء لأجل تمييز المدرجات بأنواعها، تمييز المسموعة عن المسموع، وتمييز المرئي عن المرئي، وتمييز المعقول عن المعقول وهكذا، وكذلك قوله {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وكذلك قوله {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ}، والآيات في هذا الباب كثيرة متنوعة.

قول الطحاوي "وأنزله على رسوله وحياً" الوحي هنا المقصود به أن الإنزال كان وحياً، أوحي على محمد،

والوحي في اللغة: إلقاء الخبر أو العلم في خفاء وسرعة، ولهذا سميت الكتابة وحياً وسميت الإشارة وحياً وهكذا، وهذا بحث

معروف في اللغة.

الوحي من جهة الاصطلاح: اختلفت التعاريف فيه بحسب اصطلاح مذهب المعرف، ولهذا تجد في كثير من كتب التفسير تعريف للوحي لا ينطبق على مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الكلام، وربما نقله من لا يحسن، فليُتنبه إلى ذلك عند الرجوع إلى كتب التفسير، فإن كلام المفسرين في الغالب عن هذه المسألة العظيمة الجليلة المهمة يخالف مذهب أهل السنة والجماعة، وكذلك شراح الحديث غالباً ما يقعون في الزلل والضلال في هذه المسألة، فليُتنبه عند قراءة هذه الكتب أو الرجوع إليها أو النقل منها لمخالفة مذهب أهل السنة والجماعة.

قول الطحاوي "وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً" يعني آمن به المؤمنون، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، قوله هنا "وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة" استعمل لفظ الحقيقة رداً على قول من قال إنه كلام الله تعالى مجازاً كما هو قول المعتزلة وغيرهم، هذا من جهة استعمال لفظ الحقيقة فيما استعملت فيه عند أهل الحديث عند أهل هذه المسائل.

وقوله "ليس بمخلوق ككلام البرية" يعني أن الله سبحانه وتعالى تكلم بهذا الكلام وهو صفة، صفته ليس بمخلوق، بل هو وحي منزل، فكلام الله صفته، وأما المخلوق فهو كلام البرية، فكلام الناس هو المخلوق، وأما كلام الله صفة من صفاته سبحانه وتعالى.

إذا تبينت لك هذه التعاريف فسندف عند هذا ونرجع إلى تقرير ما اشتملت عليه هذه الجمل:

أن القرآن كلام الله منه بدأ، وأنه وحي، وأنه كلامه حقيقة، وأنه ليس بمخلوق، وهذه المسائل سنقرؤها في كلام الشارح رحمه الله تعالى، ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية، قبل القراءة نتكلم عن المسألة الأولى:

«**المسألة الأولى:** مسألة نشأة القول بخلق القرآن، أو أن كلام الله مجاز وما أشبه ذلك، والخلاف في هذه المسألة، ومنشأ القول في هذه المسألة، ولم خالف المخالفون فيها، ولم خالفوا الحق والصواب ومالوا إلى البدعة وجانبوا السنة التي كان عليها الصحابة ومن تبعهم؟

فأول من تكلم بهذه المسألة هو الجعد بن درهم، وضحي به، فقد ضحى به خالد بن عبد الله القسري وكان يقول (إن جعداً يزعم أن الله لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، فإني مضحي بالجعد بن درهم فضحوا به تقبل الله ضحاياكم)، فنزل وذبحه فبورك هذا القربان، روى ذلك البخاري في كتابه خلق أفعال العباد، هذه المسألة وهذه المقولة الحبيثة الضالة من الجعد تطورت عند الجهمية وعند جهم بن صفوان خصوصاً، فأصل لها أصلاً وأنه نظر في أصل الدين فوجد أنه مبني على إثبات وجود الله، فالجهم نظر أن أصل الدين مبني على إثبات وجود الله عز وجل، وقد ابتلي الجهم بطائفة من منكري وجود الإله، وحبروه فيما يوردون عليه من إشكالات فقالوا للجهم، وهم لا يقرّون لا بكتاب ولا بسنة، فقالوا له: أقم لنا برهاناً عقلياً على أن هذا الخلق لله عز وجل، وأنه خالق له، وأن الله موجود، فتحير ونظر في هذه المسألة، ثم قال لهم وجدتها، -أي وجد لهم الحل فانظروا ماذا وجد لهم الجهم بن صفوان- أقام البرهان بما يسمى عند أهله مجلول الأعراض في الأجسام، وهو أصل الانحراف في مذهب الجهمية، ثم المعتزلة، ثم الأشاعرة، ثم الماتريدية، ولهذا السلف ينسبون كل من انحرف في الصفات إلى جهم فيقولون هو جهمي، لأنه ما انحرف إلا بموافقة لجهم في هذا الأصل الذي أصله وانحرف به عن منهج السلف، وهذا البرهان الذي وجده جهم هو ليس ببرهان، بل هو دليل باطل، قال في تقريره: "إن الجسم تحل فيه الأعراض"

والجسم: هو كل متحيز كالطاولة والكرسي والمبنى... إلخ، والأعراض: مثل البرودة والحرارة والارتفاع والانخفاض ومثل

الطول والعرض والعمق ومثل الحركة فيه والتحرك... إلخ، وهذه الأشياء معلوم أنها لا توجد بنفسها، وإنما أوجدت بالجسم والجسم حلت فيه هذه الأعراض دون اختياره، فبهذا صار هذا الجسم جسماً محتاجاً إلى العَرَض، لأن العَرَض وحده لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالأجسام، وحلول الأعراض في الأجسام دل على أنها مخلوقة وعلى أنها محتاجة لهذه الأشياء التي تميزها عن غيره وتصلح معها للوجود، فلماذا صار الجسم قابلاً لحلول الأعراض فيه، وصار الجسم محتاجاً لغيره فصار إذن مخلوقاً موجداً، إذا تبين هذا قالوا له هذا تبين صحيح في أن الجسم لم يوجد نفسه -يعني الجسم المعين والمعين المعينة- فلم يوجد نفسه وأنه موجود واقتنعوا بهذا البرهان مع أنه في حقيقته غير مقنع وغير مستقيم، فأثبت لهم وجود خالق، وجود رب لهذه الأشياء، فلما نظروا في هذا قالوا له هذا دليل صحيح فصاف لنا ربك؟! وكان جهم فقيهاً عنده علم بالكتاب والسنة، ولما سألوه هذا السؤال نظر في الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، فتحير في أنه لو أثبت هذه الصفات لعادت على هذا الدليل الذي قرره قبل قليل الذي لم يجد غيره دليلاً عقلياً في إثبات وجود الله، لعادت عليه بالإبطال، لأنه وجد في الكتاب والسنة أن من الصفات الاستواء وأن من الصفات الرحمة والإعطاء والغضب والرضى وكل هذه معانٍ لا تقوم بنفسها وهي تأتي وتذهب، يعني من حيث هي، فلماذا قال: إنه لو قال لهم إن صفات الرحمن عز وجل هي التي جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها، فإنه يعود إلى أن يقال له -أي لجهم- إذن فالذي يتصف بهذه الصفات هو محتاج إذن هو مثل الجسم فهو جسم كالأجسام، فلماذا قال لهم: "إن الله سبحانه لا صفة له إلا صفة الوجود المطلق"، وعلى هذا الأصل نشأ جهم في نفي الكلام، ونفي جميع الصفات، حتى أسماء الله عز وجل يفسرها بالآثار المخلوقة، وجاء بعده المعتزلة وقالوا هذا البرهان صحيح ولكن ثم صفاتٌ دل عليها العقل ولا يمكن أن يكون الرب موجوداً دون هذه الصفات، ثم جاء الأشاعرة ثم الماتريدية، ولذلك هذه المسألة من أعظم المسائل.

الحلقة (١٧)

الحديث موصول عن الحلقة الماضية وهو نشأة القول بخلق القرآن أو أن كلام الله تعالى مجاز، وأشبه ذلك من الانحراف عن العقيدة الصحيحة، وما منشأ القول بهذه المسألة، ولم خالف المخالفون وحادوا عن الحق والعقيدة الصحيحة التي كان عليه أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم.

أول من تكلم في هذه المسألة الجعد بن درهم، وقد ضحى به خالد بن عبد الله القسري أحد أمراء بني أمية، وكان يقول: "إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليماً"، وهذه المسألة تطورت عند الجهمية وعند جهم بخصوصه، فأصل لها أصلاً وهو أنه نظر في أصل الدين فوجد أنه مبني على إثبات وجود الله عز وجل، وقد ابترى الجهم بن صفوان بطائفة من منكري وجود الإله، وحبروه فيما أوردوه عليه من أسئلة، فقالوا له: أقم لنا برهاناً عقلياً على أن للخلق رباً، وأن للخلق خالقاً وأنه موجود، فطلبوا منه إثباتاً عقلياً على أن هذا الخلق له ربٌ وله خالق وأنه موجود، وعندما طلبوا منه ذلك تحير ونظر في هذه المسألة، ثم وصل إلى حلٍ ظن أنه هو المخرج والخلاص مما أوردوه عليه من إشكالات، فأقام لهم البرهان وهو ما يسمى عند أهل بـ(حلول الأعراض في الأجسام) والذي تكلمنا عنه في الحلقات الماضية، وهو أصل الانحراف في مذهب الجهمية ثم المعتزلة ثم الأشاعرة ثم الماتريدية.

ولهذا السلف ينسبون كل من انحراف في صفات الله جل وعلا إلى جهم بن صفوان فيقولون هو جهمي، لأنه ما انحراف إلى بموافقة لجهم في هذا الأصل الذي أصله وانحراف به عن منهج السلف، وهذه المسألة وهذا البرهان الذي وجده وتوصل إليه الجهم هو ليس ببرهان بل هو دليل باطل، قال في تقريره: إن الجسم تحل في الأعراض، الجسم هو المتحيز يعني مثلاً الكتاب

متحيز والكرسي متحيز وهكذا فالأجسام تحل فيها الأعراض، والأعراض مثل البرودة والارتفاع والانخفاض والطول والعرض والطعم إلى غير ذلك من هذه الأعراض، فهي لا توجد بنفسها وإنما وجدت بالجسم، والجسم حلت فيه هذه الأعراض دون اختياره، فبهذا صار الجسم جسماً محتاجاً إلى العَرَض، لأن العَرَض وحده لا يقوم بنفسه، وإنما يقوم بالأجسام، وحلول الأعراض بالأجسام دل على أنها مخلوقة، وعلى أنها محتاجة إلى هذه الأعراض التي تميزها عن غيرها، وتصلح معها للوجود، فلهذا صار الجسم قابلاً لحلول الأعراض، وإذا صار الجسم محتاجاً لغيره فصار إذن مخلوقاً مُوجَداً، لأن الخالق لا يحتاج إلى خالق، ولأن الموجد لا يحتاج إلى مُوجد.

فقالوا: له هذا دليل صحيح، فالذين أنكروا على جهم وطلبوا منه إثباتات عقلية على وجود الخالق قالوا: صحيح أن الجسم لم يوجد نفسه، وأنه موجود واقتنعوا بهذا البرهان مع أنه في حقيقته غير مقنع، فسلموا له في شيء لا يُسلم فيه، فأثبت لهم وجود خالق ووجود رب لهذه الأشياء، فلما نظروا في هذا قالوا: له هذا دليل صحيح فصنف لنا ربك؟! لأنهم في البداية طلبوا منه إثباتاً عقلياً على وجود الخالق، كان جهم فقيهاً عنده علم من الكتاب والسنة، ولما سأله هذا السؤال نظر في الصفات التي جاءت في الكتاب والسنة، فتحير في أنه لو أثبت هذه الصفات الواردة في الكتاب والسنة لعادت على هذا الدليل الذي اخترعه الذي لم يجد غيره في إثبات وجود الله، لعادت عليه هذه الأدلة الشرعية وهذه النصوص لعادت على دليله بالإبطال، لأنه وجد في الكتاب والسنة أن من الصفات الاستواء، وأن من الصفات العلو، وأن من الصفات الرحمة، وأن من الصفات الانتقام، والإعطاء والغضب والرضى إلى آخر ذلك من الصفات، وهذه كلها معانٍ لا تقوم بنفسها، فهي تأتي وتذهب -يعني من حيث هي- فلهذا قال: إنه لو قال لهم إن صفات الرحمن عز وجل هي التي جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها، فإنه يعود إلى أن يقال له إذن الذي يتصف بهذه الصفات هو محتاج، إذن هو مثل الجسم فهو جسم كالأجسام، فلهذا قال لهم جهم: "إن الله سبحانه لا صفة له إلا صفة الوجود المطلق".

وهنا منشأ الضلال، فعند هذه النقطة ضل الجهم وأضل من اتبعه، وعلى هذا الأصل مشى جهم في نفي صفة الكلام لله عز وجل ونفي جميع الصفات، حتى أسماء الرحمن عز وجل يفسرها بالآثار المخلوقة.

بعد جهم جاء المعتزلة، فقالوا: هذا البرهان صحيح، برهان جهم الذي ذكره لمنكري وجود الله سبحانه وتعالى، ولكن ثم صفات دل عليها العقل لا يمكن أن يكون الرب عز وجل موجوداً دون هذه الصفات.

ثم جاء الأشاعرة فقالوا كلام المعتزلة صحيح، لكن الصفات أكثر من الثلاث التي أثبتتها المعتزلة، فهي سبع وتؤول إلى عشرين عندهم.

بعد ذلك جاء المائريديّة وقالوا الصفات ثمان، لا بد من زيادة على السبع، صفة التكوين وهكذا.

إذن منشأ الضلال في هذه المسألة؛ هذا البرهان الباطل والدليل الضال الذي أنشأ جهم بن صفوان على وجود الله عز وجل، الذي جعل فيه دليل الأعراض هو دليل حدوث الأجسام، ومنه أبطل وصف الله عز وجل بصفاته ونفى الكلام عنه سبحانه. ولهذا مسألة الكلام التي نحن بصدد الكلام عنها سنتوسع في الكلام عليها أيما توسع قدر المستطاع، هي أعظم المسائل التي بُحث فيها، لأنه ورثها جهم من الجعد بن درهم، وكانت مسألة الكلام هي أعظم المسائل التي بُحث فيها بين أهل السنة ومخالفهم لأن الجهم ورثها من الجعد وورثها من بعده وكانت أصل المسائل التي يفكر فيها من جهة الصفات، فلما أقام الجعد برهانه صارت هذه المسألة أو هذه الصفة من أوائل الصفات التي نفاها من أجل إقامة برهانه واستقامته، وعلى هذه الصفة امتحن أهل السنة أيما امتحان، ومنهم إمام أهل السنة والجماعة في عصره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، عندما

امتنحن على القول بخلق القرآن، ومعلوم أن القرآن هو كلام الله منزّل غير مخلوق.

إذا تبين ذلك فثم تعبيرات مختلفة عن منشأ الضلال في هذه المسألة، وكلها حق، فتارة تجد من يقول إن منشأ الضلال في هذه المسألة هو أن إثبات صفة الكلام يستلزم التجسيم، وهي راجعة إلى ما ذكرنا، قالوا حلول الأعراض يلزم منه الجسم وحدوث الأجسام.

ومنهم من يقول أن صفة الكلام المضافة إلى الله صفة تشريف - يعني إضافة تشريف - لا إضافة صفة إلى موصوف، وقد تكلمنا في الحلقة الماضية عن المضاف إلى الله عز وجل إما إضافة أعيان أو إضافة أوصاف، وذكرنا أمثلة على ذلك.

وهذين القولين ذكرهما الشارح ابن أبي العز في هذا الموضع في شبهة الذين قالوا: إن كلام الله عز وجل مخلوق، يقول هنا عندما قال: إن الناس اختلفوا في مسألة الكلام إلى أقوال كثيرة فذكر مذهب أهل السنة والجماعة ثم ذكر هذه الأقوال التي بينها قبل قليل، أن منهم من يقول أن صفة الكلام مضافة إلى الله تعالى إضافة تشريف، ومنهم من يقول إن منشأ الضلال في المسألة إثبات صفة الكلام يستلزم التجسيم على ما مر قبل قليل، وهذا ما نصه ابن أبي العز على منشأ الضلال.

الناس اختلفوا ونذكر هنا كلاما غير كلام ابن أبي العز، ونسوق الكلام على طريقة تختلف عن طريقة ابن أبي العز في سياقه عن اختلاف الناس في صفة الكلام، ثم نعود مرة أخرى ونطلع جميعا ونقرأ كلام ابن أبي العز وسوقه لاختلاف الناس في مسألة كلام الباري عز وجل، لأنه هو أصل المقرر.

فالناس عندما اختلفوا في مسألة الكلام اختلفوا إلى أقوال كثيرة فهناك أقوال مهمة وقد ينظر إليها، وهناك أقوال طويلة قد لا نحتاج الرجوع إليها أو التطرق إليها:

١. ونبدأ بقول أهل السنة والجماعة وهو الذي ذكره الإمام الطحاوي رحمه الله حيث قال " أن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً وأنزله على رسوله وحيا وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى في الحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} فلما أوعد الله بسقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر".

قول أهل السنة والجماعة أن القرآن كلام الله عز وجل، سمعه من الله عز وجل جبريل فنزل به على محمد صلى الله عليه وسلم، فسمعه منه محمد صلى الله عليه وسلم وأسمعه الناس وتلاه عليهم، (وأنه منه بدأ) يعني من الله سبحانه وتعالى وإليه يعود، كلام الله يُسمع، فإذا كان جبريل قد سمعه ونزّله فإذن هو صوت سمعه بصوت وليس معنى قذف في داخل جبريل أو أخذه من اللوح المحفوظ.

وأن كلام الله سبحانه وتعالى كلامه حيث وجد، وأنه إذا ثُلّي فالكلام كلام الباري، والصوت صوت القاري، فهو كلامه الموجود في المصاحف، وهو كلامه الموجود الذي يسمع في تلاوة التالي، وهو كلامه الذي يستدل به، إلى آخره، لا يخرج من هذه الحالات عن كونه كلام الله عز وجل، هذا الذي قُرر في هذا الموضع من الطحاوية، قول أهل السنة والجماعة.

٢. مذهب الجهمية وهو أن الله سبحانه وتعالى لا يوصف بكلام أصلا، وليس بمتكلم ولا بذي كلام، فيُسلَب عنه هذا الوصف، ويُفسر الكلام بمخلوق منفصل يقال له الكلام، فخلق الله هذا القرآن وسماه كلاماً، فيكون كلام الله عز وجل خلقاً من خلقه، تعالى الله عز وجل عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

٣. مذهب المعتزلة وهو شبيه بمذهب الجهمية - وقد ذكرنا أن سبب الضلال هو مقولة الجهمية ولذلك السلف يقولون لكل من انحرف في الصفات أنه جهمي - فلفظ الجهمية فيه إجمال وفيه تفصيل، فقد يُعم وقد يخص، فعند العموم يقصد به كل من

خالف في الصفات، وعند التفصيل يقصد به من أنكر صفات الله سبحانه وتعالى بالكلية، فمذهب المعتزلة شبيه بمذهب الجهمية إلا أنهم قالوا القرآن مخلوق خلقه الله عز وجل في نفس جبريل، فعبر به جبريل أو نقل جبريل ما خلق في نفسه، فهو مخلوق في نفس جبريل، وكلام الله عز وجل يُخلق في أحوال مختلفة - كما يقول المعتزلة - فمن جهة كلام موسى خلق في الشجرة ويُخلق في كذا ويُخلق في كذا إلى آخر قولهم.

فإذن يتفقون مع الجهمية على أنه مخلوق، ويجعلون زيادة على الجهمية أنهم يقولون أنه مخلوق في موضع يناسبه، وهذا منهم فقه أعظم من فقه جهم، لأنه حتى لا يُعارض عليهم بأن القرآن تنزيل وأنه أنزل، فقالوا إنه أنزل ولكنه خلق في نفس جبريل أو في روع جبريل.

٤. هو مذهب الكَلَابِيَّة أتباع ابن كَلَّاب بل مذهب ابن كلاب نفسه وأتباعه من الأشاعرة وغيرهم وهو أنهم قالوا: "أن كلام الله عز وجل معنى واحد، وكُتِبَ الله عز وجل تعبيراً عن هذا المعنى الواحد، فتارة يُعبر عن الكلام بالعربية ويسمى القرآن، ويُعبر تارة عنه بالسريانية فيسمى إنجيلا، وتارة يُعبر عنه بالعبرانية فيسمى تورا" فإذاً هو معنى، وليس ثمة صوت يُسمع ولا كلام حقيقة، ولكن معنى قائم بنفس الرب عز وجل، ألقاه في روع جبريل فنزل به جبريل، عبر عنه جبريل بهذه التعبيرات المختلفة، باللغات المختلفة، وهذا ما يعتقده الكَلَابِيَّة ومن نحى نحوهم في كلام الباري عز وجل وهو بلا شك ضلال وزيف عن الحق وعن الهدى.

٥. هو مذهب الفلاسفة وطائفة من الصوفية وهو "أن كلام الله عز وجل هو ما يُفأض أو ما يُفيضه على النفوس من المعاني الخيرة" أي: معاني الحكمة، وهذه الإفاضة قد تكون مباشرة منه إلى العقل الفعال عندهم، والعقل الفعال يفيضه على النفوس حسب استعداداتها، وقد تكون هذه الإفاضة منه عز وجل مباشرة على قلب الرجل، كقول طائفة من الصوفية، وقد تكون هذه الإفاضة في وقائع مختلفة.

المقصود في هذا هو تقريب هذه المذاهب المشهورة في هذه المسألة، وإلا فثمة مذاهب أخرى في هذه المسألة، وكما ذكرنا أن هذه المسألة من أعظم المسائل التي تكلم فيها الناس فهي من كُبريات المسائل، بل هي أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين أهل القبلة، وكذلك وقع عليها الامتحان والتبديع والتفسيق والتكفير.

الحلقة (١٨)

في هذه الحلقة حديثنا موصول على ما تكلمنا عنه في الحلقتين الماضيتين، عن صفة كلام رب العالمين أن القرآن من كلام الله وليس بمخلوق، وفي هذه الحلقة سوف نتحدث عن أدلة أهل السنة والجماعة على قولهم، ورد الاستدلال على مخالفهم، المسألة فيها أشياء: أن القرآن كلام الله، وأدلة ذلك كثيرة ومعلومة ومنها قول الله عز وجل {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} وقول المؤلف "ومنه بدأ بلا كيفية قولاً" هذا دليله قوله سبحانه وتعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وقول الله عز وجل {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} وقال: {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} ثم وصفه قال {تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ولهذا حرف (من) من الأحرف المهمة في تقرير العقائد السلفية، فينبغي لطالب العلم أن يهتم به في كتب النحو وكتب المعاني، لأنه يفيد في مواضع كثيرة يفيد في هذا الموضوع وغيره من المواضع.

قول المؤلف "بلا كيفية" يعني إن الكيف غير معقول وهذا يدل عليه قوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، قول الطحاوي "وأنزله على رسوله وحياً" يعني أن القرآن وحياً، وهذا أمر ظاهر متواتر معروف للجميع، قال "وأيقنوا أنه كلام

الله في الحقيقة هذه الكلمة دليلها قول الله عز وجل {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، فتكليم موسى أُكِّد بالمصدر، قال علماء العربية أن تأكيد الفعل بالمصدر يدل على إرادة حقيقته، وألا يراد به غير الظاهر والحقيقة، وهذا القول من باب التنزل معهم بحسب لغتهم، وإلا فإن استعمال الحقيقة والمجاز في هذا الموضع لا يصلح من الأساس، وإنما إذا كان في الرد على المخالفين فلا بأس من باب حدثوا الناس بما يعرفون، أيضاً قارن بين قوله تعالى {فَأَجِزْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} فإذا كان كلام الله عز وجل الذي تكلم به حقيقة، جمعاً بين الآيتين آية براءة وآية سورة النساء، إذن هذه هي الأدلة من الكتاب على معتقد أهل السنة والجماعة.

أقوال أهل البدع أخص منها قول المعتزلة والأشاعرة، أما أقوال الجهمية والفلاسفة فهذه سوف يأتي الكلام عنها وسوف نقرأها إن شاء الله.

قول المعتزلة مشهور وأن القرآن مخلوق استدلووا بدليل عقلي، والآن نظهر عقيدة أهل السنة بالرد على المبتدعة، استدل المعتزلة بدليل عقلي كما مر بالحلقة الماضية "أنه لو أثبت أن الكلام يسمع فمعنى ذلك أن الرب عز وجل جسم، لأن الكلام لا يصدر إلا بتغير، وهذا التغير إذا حل في شيء يدل على أنه جسم".

وهذا القول يدهم على أن الرب يجب أن ينزه عن جميع المظاهر الجسمانية بأنواعها، لأن وصفه عز وجل بأنه جسم كفر على حد قولهم.

وهذا القول يرد عليه من وجهين:

■ **الرد الأول** أن ذكر صفة الكلام لله عز وجل وارتباط الجسمانية بها هذا أصلاً غير صحيح، وذلك أن المقدمة بُني عليها هذا القول هي البرهان بما سموه **حلول الأعراض في الأجسام**.

وهذا البرهان الجهمي لم يدل عليه القرآن ولا السنة، بل دل القرآن ودلت السنة على بطلانه، وذلك من جهة أن الجسم موجود بأعراضه، وأنه إذا كان العرض يحل بالجسم فدل على أن الجسم غير مختار لحلوله، إذا كان الجسم يحل فيه العرض، والجسم لم يختار حلول العرض فيه، فدل على أنه محتاج، لا ينطبق على الصورة التي فيها الكلام، لأن من قال إن القرآن كلام الله تكلم به. فلو قيل إنه عرض، فيقال اتصافه به كان بمشيئته وقدرته واختياره، فخالف من هذه الجهة والبرهان، بمعنى الكلام ليس بعرض تنزلاً مع المعتزلة والجهمية ومن وافقهم بأن الكلام ليس بعرض، ولا ينطبق البرهان على هذه الصفة صفة الكلام لرب العالمين.

فدل أولاً: على أن البرهان في نفسه غير صحيح في هذه المسألة، تطبيق البرهان غير صحيح في مسألة كلام الرحمن. **ثانياً:** تدل على أنه حينما أصلوا البرهان لم يطبقوه على وجه الصواب في الصفات، فجعلوا الجسمانية والعرضية متلازمة دائماً مع الحاجة وهذا فيه نظر.

■ **أما الرد الثاني** فإن النصوص دلت على أن القرآن كلام الله عز وجل وعلى أن الله يتكلم وعلى أن هذا أكد بمؤكدات ومجموع هذه النصوص إذا أُريد تأويل هذه النصوص أنه لا يستقيم بكل هذه المواضع تأويل هذه النصوص. الثاني أنه يلزم منه نفي الصفات التي وصف بها المعتزلة رب العالمين.

أما الأول فلا يستقيم في كل موضع، فمثل ما قالوا في قوله تعالى {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، قالوا معناه كلم الله موسى أنه سمع كلامه المخلوق في الشجرة، وهذا السماع أوكد في حق موسى لأنه سمع كلاماً تُكلم به، يعني أن التكليم ليس تأكيداً للفعل الذي بدأ من الله، لكنه لإحساس موسى بما سمع.

وقال بعض الناس في قول الله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، يعني جرحه بأظافير الحكمة تجريحاً أخذوه من كلم يعني جرح. ولقد جاء بعض المعتزلة إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء الذين جعلوا قراءتهم معتمدة على النحو، قال لأبي عمرو بن العلاء اقرأ {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}، قال هبني -يقول أبي عمرو بن العلاء- هبني قرأت ذلك فما تصنع -المعتزلي طلب من أبي عمر أن يقرأ الله بالفتح- يعني الكلام من موسى لله عز وجل فقال له أبا عمرو هبني قرأت ذلك فما تصنع بقول الله تعالى {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} هذه ما تقبل، فإذا حرفوا شكل الكلمات فهنا لا يستطيعون تحريفها، وما تصنع بقوله تعالى {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ}، وهذا يدل كما ذكرت لك على أنه لا يستقيم مع الآيات الأخرى.

المذهب الثاني: وهو مذهب الأشاعرة في صفة الكلام، وهو أخطر الأقوال، لأن قول المعتزلة جمهور الأمة يقول بخلافه، يعني جمهور المنتسبين للقبلة يقولون بخلافه في هذا الزمان خصوصاً، لا يوجد من يقول بقول المعتزلة إلا ثلاث طوائف، وهم الرافضة والإباضية أو الخوارج والزيدية، أما ماعداهم فلا يقول بقول المعتزلة في الوقت الحاضر.

قول الأشاعرة "يقولون إن كلام الله معنى وأن القرآن ألقى في نفس جبريل فعبّر عنه"، وهذا القول منهم لا شك أنه أخص من قول المعتزلة، لذلك تجد أن الأشاعرة هم الذين أخذوا زمام الرد على المعتزلة في مسألة خلق القرآن في القرون المتوالية بعد زمن السلف الصالح، كالإمام أحمد والبخاري والأئمة هؤلاء تولوا الرد وعثمان بن سعيد وغيره ممن صنفوا في ذلك، لكن من رد على المعتزلة برود عقلية وتوسع في ذلك هم الأشاعرة، وبينهم وبين المعتزلة مناظرات، ولأجل خلاف المعتزلة والأشاعرة في هذه المسألة. كان أهل الحديث والأشاعرة في أول الأمر متفقين. متفقين غير مختلفين حتى حدث فتنة ابن القشيري في أواخر القرن الخامس فصارت المناظرة العظيمة بين الأشاعرة وأهل السنة. فكان الأشاعرة لا يعلنون مذهبهم في كل المسائل على التفصيل، حتى حدث الفتنة، المقصود من هذا أن الأشاعرة ردوا على المعتزلة في مسألة خلق القرآن وصفة كلام رب العالمين.

وأصل مذهب ابن كلاب أنه توسط ما بين قول أهل الحديث، لأنه خالطهم وما بين قول المعتزلة فأتى بهذا الشيء الذي أن القرآن معنى واحداً لأن الذي من أجله قيل إن القرآن مخلوق وأن كلام الله عز وجل أصوات وحروف وأنه يسمع، فقال ننفي هذه ونبقي كلام الله غير مخلوق.

فإذا تبين ذلك فناخذ من هذا تفصيل، وهو أن دلالة الكلام في اللغة على اللفظ والمعنى فيها مذاهب.

المذهب الأول مذهب أهل السنة والجماعة وأهل الحديث والأثر أن كلام الله والقول إذا أطلق يعني إذا قيل الكلام كلام فلان أو كلام الله فإن المراد به شيان. بمعنى دون تفريق الواحد عن الآخر، يراد به اللفظ والمعنى جميعاً، هذا مذهب أهل السنة والجماعة يراد بها اللفظ والمعنى جميعاً.

المذهب الثاني مذهب المعتزلة قالوا: أن الكلام هو في المعنى وفي اللفظ مجاز.

المذهب الثالث مذهب الكلائية قالوا: أن الكلام للمعاني ولكن الحديث إخراج هذا دليل عنه. واستدلوا بقول الأخطل في الشعر المشهور المعروف عنده بالاستدلال:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

❖ أصل المسألة: أن الكلائية والأشاعرة قالوا إن الكلام معنى، كلام الله تعالى معناه ألقاه في روع جبريل، وهذا لأجل أنهم أصّلوا تأصيلات ومنها أن الكلام لا يدل على الإخراج وإنما يدل على ما قام في النفس.

عندما ذكرنا في أول المقال تعريف كَلَمٍ وكُلِم وهذه المادة و اشتقاقاتها قبل حلقتيْن، يُبطل معنى قول من قال أن الكلام معنى، فإن اللغة دلت على أن يكون الكلام لفظاً ومعنى، حتى كلمة لفظ تدل على شيء ملفوظ مفرد، ما أحسن قول المعري وإن كان ليس مجال احتجاج حيث قال:

من الناس من لفظه لؤلؤٌ** يبادره اللقط إذ يلفظ

وبعضهم قوله كالحصا** يقال فيلغى ولا يحفظ

يعني من الناس من لفظه لؤلؤ اللفظ لا بد أن يلفظ يخرج فكيف يكون الكلام والقول في الداخل دون الخارج، وكيف يكون المعنى يدل عليه في الإنسان بلا لفظ، وإذا كان ثم لفظ فإذن ثم معنى، واللفظ لا بد أن يلفظ ويخرج، فدل ذلك على أن قولهم بأن الكلام معنى وأن هذا هو الأصل فيه، هذا لاشك أنه مُعارض باللغة في تأصيلاتها أو اشتقاقاتها وأيضاً معارض بالنصوص التي ذكرنا بعضها في بداية الكلام في هذه الحلقة.

الكلائية ورثهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله والماتوريدي في الكلام في هذه المسألة، تارة يعبرون عنه بقولهم الكلام صفة نفسية، وتارة يعبرون عنه بأن كلام الله تعالى قديم، قبل أن يخلق الخلق وقبل أن يوجد شيء تكلم بكلام قديم وانتهى، وتارة يعبرون عنه بمعنى قائم بالنفس، وتارة يعبرون عنه بأنه عبارة، بمعنى أن القرآن عبارة عن كلام يعني عبر به عن كلام الله لا أنه هو كلام الله.

إذا تبين ذلك فحاصل معتقد هذه الطوائف الكلائية الأشاعرة الماتريدية أن كلام الله قديم، يعني تكلم الله عز وجل به في الأزل ثم لما أراد إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم قالوا ولما تكلم به في الأزل، به معنى فألقاه في روع جبريل فنزل به جبريل فعبر عنه، وإلا فكلام الله عندهم ليس بالعربية ولا بالسيرانية وليس بالعبرية لتنزهه عندهم عن اللغات سبحانه وتعالى.

إذا تبين ذلك فمن أحسن الردود عليهم ما استشكله الآمدي، والآمدي من الحذاق الأشاعرة المعروفين ومن الأذكياء، قال إني نظرت في هذا القول وهو أن كلام الله قديم، وأن القرآن قديم، وأنه حين أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنما أوحى بالعبارة، وبما ألقى في نفس جبريل، فأشكل علي أن القرآن فيه آيات كثيرة فيها التعبير عنه بلفظ الماضي: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)، وهل كان ثم مجادلة وهل كان ثم زوج؟ وهل كان ثم صوت حتى يسمع الله؟ قال وقد قال الله تعالى "قد سمع الله" فإذا كان الله عز وجل قال هذا القول في الأزل ولا زوجة ولا مجادلة ولا قول فما الذي سمع؟ فيلزمه منه أن قوله "قد سمع" وكل أفعال الماضي في القرآن أنها غير مطابقة للواقع، وهذا هو الكذب ولاشك أنه رد منطقي جميل، لأنه يلزمهم على أصولهم ولافرار منه، وهو رد حاذق من حذاق هذه الطائفة.

فإذا تبين ذلك فنقول خلاصة الردود على هذه الطوائف:

■ **الرد الأول:** الاستدلال باللغة في معنى كَلَمٍ بمعنى الوحي.

■ **الرد الثاني:** الاستدلال بالنصوص من القرآن والسنة التي فيها الإضافة، والقاعدة فرق ما بين إضافة المخلوقات وإضافه

المعاني.

■ **الرد الثالث:** أن يرد ما استدلو به من أنواع الأدلة مثل ما أصلوه في أن الكلام يدل على المعنى فقط في اللغة. وأن الوحي يكون بالمعنى والإلقاء في الروع وغير ذلك من استدلالاتهم مثل قولهم يلزم التشبيه ويلزم التجسيم إلى آخره.

■ **الرد الرابع:** أيضاً نرد بقول الآمدي في التفريق بين الماضي والحاضر.

إذن تكلمنا في هذه الحلقة عن أدلة أهل السنة والجماعة على معتقدهم في صفة كلام الرحمن وأن القرآن منزل غير مخلوق ومنه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأنه كلام الله بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر فقد كفر وذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} فلما أوعد الله بسقر لمن قال {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر.

الحلقة (١٩)

في هذه الحلقة سنبدأ بقراءة كلام ابن أبي العز، وقبله كلام الماتن الطحاوي رحمه الله في الكلام عن مسألة الكلام، وتحرير الخلاف فيها والرد على المنكرين، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة في القول بهذه الصفة، صفة الكلام، وأن القرآن كلام الله وأنه منزل غير مخلوق.

والطحاوي رحمه الله يقول "وإن القرآن كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً وأنزله على رسوله وحياً وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنه كلام بشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال تعالى {سَأُصْلِيهِ سَقَرَ} فلما أوعد الله بسقر لمن {إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ} ، علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر". هذا كلام الطحاوي، يقول ابن أبي العز "فهذه قاعدة شريفة وأصل كبير من أصول الدين، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب ومن السنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة، وقد اختلف الناس في مسألة الكلام على تسعة" ونحن ذكرنا في المقدمة على صفة الكلام أننا ذكرنا أربعة أو خمسة فرق أو خمسة أقوال هي الأقوال المشهورة لأن بعضها يدخل في بعض، أو أنها أقوال لا داعي لذكرها.

يقول ابن أبي العز (وقد اختلفت الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال:

أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من المعاني، إما من العقل الفعال عند بعضهم أو من غيره، وهذا قول الصابئة المتفلسفة.

وثانيها: أنه مخلوق، خلقه الله منفصل عنه، وهذا قول المعتزلة.

وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله، هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، إن عبر عنه بالعربية كان قرآن، وإن عبر عنه بالعبرية كان تورا، وهذا قول ابن كلاب من وافقه كالأشعري وغيره.

رابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام، يقول ابن أبي العز ومن أهل الحديث، أهل الحديث لا يقولون بهذا القول، إذ يستبعد على من اشتغل بالحديث بأن يقول بهذا القول المخالف لأصل من أصول أهل السنة والجماعة كما جاءت عن رسول الله.

خامسها: أنه حروف وأصوات ولكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية، وهذا يعيدنا إلى المسألة الخطيرة التي تكلمنا عنها في مسألة تسلسل الحوادث.

سادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله به صاحب المعتبر أبو البركات هبة الله الطبيب الفيلسوف، ويميل إليه الرازي فخر الدين في المطالب العالية.

وسابع الأقوال: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتوريدي إمام المتكلمين.

وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات، وهذا قول أبي المعالي الجويني ومن

تبعه.

التاسع: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديماً وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة.

وقول الشيخ الطحاوي رحمه الله: "وإن القرآن كلام الله بكسر الهمزة عطْفٌ على قوله إن الله واحد لا شريك له كما بدأ بذلك متنه، وإن محمداً عبده ورسوله المصطفى وكسر همزة إن في هذه المواضع الثلاثة لأنها معمول القول، أعني قوله في أول كلامه "نقول في توحيد الله" إلى أن قال: "وإن القرآن كلامه".

وقوله "كلام الله منه بدأ بلا كيفية قولاً" رداً على المعتزلة وغيرهم، فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبدأ منه سبحانه وتعالى، كما تقدم قولهم: وإضافته إليه إضافة تشريف كبيت الله وناقة الله، يحرفون الكلم عن مواضعه.

وقولهم: ظاهر البطلان فإن المضاف إلى الله سبحانه إما معانٍ أو إضافة أعيان، وإضافة الأعيان إلى الله للتشريف، وهي مخلوقة له كبيت الله وناقة الله، بخلاف إضافة المعاني كعلم الله وقدرته وعزته وجلاله وكبريائه وكلامه وحياته وعلوه وقهره، فإن هذا كله من صفاته لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً، إذن يتحصل لنا من هذا الكلام أن المضاف إلى الله سبحانه وتعالى نوعان:

النوع الأول: إضافة أعيان كقولك بيت الله وناقة الله وعبد الله وهذه إضافة للتشريف، وهي مخلوقة لله سبحانه وتعالى، فالكعبة مخلوقة لله والعبد من خلق الله والناقة ناقة صالح هي من مخلوقات الله، ناقة الله هي من خلق الله، إضافة الأعيان هي إضافة المخلوق إلى خالقه من باب التشريف.

النوع الثاني: إضافة المعاني هي من باب الصفة للموصوف كقولك رحمة الله وعزة الله وكبرياء الله سبحانه وتعالى، هذه الإضافة بخلاف الإضافة الأولى، فهي إضافة المعاني، كرحمة الله وعزة الله وقدره الله.

إذن يتبين هنا من هذا الكلام الإضافة إلى الله سبحانه وتعالى وأنها تنقسم إلى نوعين:

الأول: نوع إضافة أعيان وهي للتشريف،

أما الثانية: إضافة معانٍ إلى الله وهي من قبل الصفة للموصوف، لا تنفك عنه، وليست مخلوقة له، بل هي من باب الصفة للموصوف، وليست من المخلوقات.

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص، قال الله تعالى {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً}، فكان عبادة العجل مع كفرهم أعرف بالله من المعتزلة، فإنهم لم يقولوا لموسى وربك لا يتكلم أيضاً، لم ينفوا صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، فلم يقولوا ربك أيضاً لا يتكلم، يقول الله تعالى عن العجل {أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا} فعلم أن نفي رجوع القول ونفي التكليم نقص يُستدل به على عدم أولوهية العجل.

وغاية شبهتهم أنهم يقولون: يلزم منه التشبيه والتجسيم، كما ذكر في ما مضى، يلزم من إثبات صفة الكلام على ما جاءت في الكتاب والسنة على ظاهرها يلزم منه عندهم التشبيه والتجسيم، فيقال لهم: إذا قلنا أنه تعالى كما يليق بجلاله انتفت شبهتهم، ألا ترى أنه سبحانه وتعالى يقول {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ} فنحن نؤمن أنه الأيدي تتكلم والأرجل تشهد، فنحن نؤمن أنها تكلم، ولكن لا نعلم كيف تتكلم، وكذلك قوله تعالى {وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ} وكذلك تسبيح الحصى والطعام وسلام الحجر، كل ذلك بلا فم يخرج منه

الصوت الصاعد من الرئة المعتمدة على مقاطع الحروف، إذن نثبت كلام الحجر، ونثبت تسبيح الحصى، ونؤمن ونصدق ونحزم ونعتقد بصدق ذلك أن الجلود تتكلم وتنطق، وأن الأيدي تنطق، من أنطقها؟ الله سبحانه وتعالى، كيف؟ لا نعلم كيف، هذا في حق المخلوقات، الأيدي مخلوقة والحصى مخلوقة، كل هذه من المخلوقات، ونثبت لها صفة الكلام على ما جاء في النص الشريف في القرآن الكريم نثبتها بلا كيف، فما بالك بحق الخالق سبحانه وتعالى، فإننا نثبت له صفة الكلام على وجه يليق بجلاله، فتنفي حجة المعتزلة ودعواهم تنزيه الباري عن حلول الحوادث.

والى هذا أشار الشيخ الطحاوي رحمه الله "منه بدأ بلا كيفية قولاً" أي ظهر منه ولا يدري كيفية تكلمه به، وأكد هذا المعنى بقوله "قولاً" أتى بالمصدر المرفوع للحقيقة، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمجاز، كما ذكرنا لكم سابقاً تنزلاً في قوله تعالى {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى}، ثبت الكلام من الله لموسى، فأكد بذلك قوله {تَكَلَّمَ} فماذا بعد الحق إلا الضلال.

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو ابن العلاء، وقد أوردت هذا سابقاً أحد القراء السبعة، أريد أن تقرأ وكلم الله موسى تكليماً، ينصب اسم الله ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمر هب إني قرأتها كذا، فما تفعل بقول الله {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِيِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} فبهت المعتزلي.

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم يقول الله تعالى {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بين أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال السلام عليكم يا أهل الجنة، وهو قول الله تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ} قال فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتى يحتجب عنهم وتبقى بركته ونوره عليهم في ديارهم). الحديث رواه ابن ماجة وغيره.

في هذا الحديث إثبات صفة الكلام التي نحن بصدد الكلام عنها، وإثبات رؤية الله عز وجل في الجنة، وإثبات العلو، وكيف يصح مع هذا الكلام أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً وقال تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ} فأهانهم الله بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وقد أخبر في الآية الأخرى أنه قال تعالى لهم في النار {قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ} فلو كان لا يكلم عباده المؤمنون لكانوا هم وأعداؤهم سواء، فهنا يحصل تمايز، ولم يكن في تخصيص أعدائه بذلك أنه لا يكلمهم فائدة أصلاً، يقول البخاري رحمه الله في صحيحه: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث، فأفضل نعيم أهل الجنة؛ رؤية وجهه تبارك وتعالى وتكليمه لهم، فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة وأعلى نعيمها وأفضلها، الذي ما طابت لأهلها إلا به، يعني بكلام الله سبحانه وتعالى لأهل الجنة.

الحلقة (٢٠)

في هذه الحلقة سنتكلم عن مسألة كلام الله سبحانه وتعالى وأنه صفة له وليس بمخلوق. فاستدلالم المعتزلة بأن الكلام مخلوق لله سبحانه وتعالى وأنه ليس بصفة من صفاته، استدلو بقول الله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، قالوا وزعموا أن القرآن شيء، فيكون داخلاً في عموم "كل" فيكون مخلوقاً، فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله سبحانه وتعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها لا يخلقها

الله، فأخرجوها من عموم "كل" وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، يقول الله تعالى {وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ} ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر، والآخر بآخر إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل وهو باطل، وطرد باطلهم أن تكون جميع صفاته مخلوقة، كالعلم والقدرة وغيرهما، وذلك صريح الكفر، فإن علمه شيء، وقدرته شيء، وحياته شيء، فيدخل ذلك في عموم {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} فيكون مخلوقاً بعد أن لم يكن، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. إذن استدلال المعتزلة بقوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} فقالوا: القرآن شيء، والقرآن كلام الله فيكون داخلاً في عموم "كل" فيكون مخلوقاً، تعالى الله عن ذلك، وهم يقولون وينكرون أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله، فسبحان الله كيف أخرجوا أفعال العباد من كونها مخلوقة لله وأدخلوا القرآن وكلام الله في عموم "كل" التي تشمل مخلوقات الله سبحانه وتعالى؟! كيف يصح أن يكون الله سبحانه وتعالى متكلماً بكلام يقوم بغيره؟! ولو صح ذلك للزم أن يكون ما أحدثه من كلام في الجمادات كلامه، وكذلك ما خلقه في الحيوانات، ولا يفرق حينئذ بين نطق وأنطق، وإنما قال في الجلود {أَنطَقْنَا اللَّهُ} ولم تقل نطق الله، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره زوراً كان أو كذباً أو كفراً أو هذياناً، تعالى الله عن ذلك، وقد طرد ذلك الاتحادية، ساروا عليه، فقال ابن عربي وهو محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المعروف بابن عربي

وليس ابن العربي قال:

وكل كلام في الوجود كلامه *** سواء علينا نثره ونظامه

ولو صح أن يوصف أحد بصفة قامت بغيره لصح أن يقال للبصير: أعمى، وللأعمى: بصير، لأن البصير قد قام وصف العمى بغيره، والأعمى قد قام وصف البصر بغيره، ولصح أن يوصف الله سبحانه وتعالى بالصفات التي خلقها في غيره من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر.

بمثل ما مر ألزم الإمام عبد العزيز الكناني المكي بشر المريسي بين المأمون - والمأمون من الخلفاء الذين تولوا كبر مسألة القول بخلق القرآن، أي نفي صفة الكلام عن الله سبحانه وتعالى، تولاهما المأمون وامتحن الناس عليها، ومن امتحن الإمام أحمد وامتحن أئمة أهل السنة فيها وألزمهم بالقول بخلق القرآن، وعلى هذه المسألة قتل أحمد بن نصر رحمه الله ثم صلب بعد ذلك - عبد العزيز المكي ألزم بشر، بشر ممن أقنع المأمون بهذا القول، قول المعتزلة إنكار صفة الكلام لله سبحانه وتعالى والقول بخلق القرآن، فتنازع عبد العزيز الكناني وبشر المريسي فالزمه بعد أن تكلم معه والتزم معه أن لا يخرج عن نص التنزيل وألزمه الحجة، فقال بشر: يا أمير المؤمنين ليدع مطالبتي بنص التنزيل، -عندما نازع عبد العزيز الكناني بشر المريسي بالقرآن أفحمه وألقمه الحجر فانقطع - فقال بشرٌ للمأمون يا أمير المؤمنين ليدع مطالبتي بنص التنزيل وينظرني بغيره، يريد الأدلة العقلية، فإن لم يدع قوله ويرجع عنه ويقر بخلق القرآن الساعة، وإلا فدمي حلال، قال عبدالعزيز تسألني أم أسألك -أجابه لما يريد من الأمور العقلية والمنازعة العقلية - فقال بشر: أسأل أنت، وطمع في عبدالعزيز الكناني، فقال: يلزمك واحدة من ثلاث لا بد منها، إما أن تقول أن الله خلق القرآن -وهو عندي أنا كلامه في نفسه- أو خلقه قائماً بذاته ونفسه، أو خلقه في غيره، فقال بشر: أقول خلقه كما خلق الأشياء كلها، وحاد عن الجواب، فقال المأمون: اشرح أنت هذه المسألة ودع بشرًا فقد انقطعت حجته، فقال عبدالعزيز الكناني: إن قال خلق كلامه في نفسه فهذا محال، لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة، ولا يكون منه شيء مخلوقاً، وإن قال خلقه في غيره فيلزم في النظر والقياس أن كل كلام خلقه الله في غيره فهو كلامه، وإن قال خلقه قائمٌ بنفسه وذاته فهو محال، لا يكون الكلام إلا من متكلم، كما لا تكون الإرادة إلا من

مريد، ولا العلم إلا من عالم، ولا يعقل كلام قائم بنفسه يتكلم بذاته، فلما استحال من هذا الجهات أن يكون مخلوقاً؛ علم أنه صفة لله عز وجل، وهذا مختصر كلام عبدالعزيز المكي الكناني في كتابه (الحيدة).

عموم "كل" في كل موضع بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن ألا ترى إلى قول الله تعالى {تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ}، ومساكينهم شيء ولم تدخل في عموم كل شيء دمرته الريح، وذلك لأن المراد تدمير كل شيء يقبل التدمير بالريح عادة، وما يستحق التدمير، وكذا قوله تعالى حكاية عن (بلقيس) {وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ} المراد من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، وإلا نعلم أن بلقيس لم يكن لها ملك بيت المقدس، وقد كان فيه سليمان عليه السلام، إذن أوتيت من كل شيء يحتاج إليه الملوك من النعيم وأمور الدنيا والقوة والجيش والسلاح والغلبة والتمكين واستقرار الملك، كل ذلك داخلياً في أوتيت من كل شيء، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام، إذ مراد الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك، غير محتاجة ما يكمل به أمر مملكها، ولهذا نظائر كثيرة.

المراد من قوله تعالى {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} أي كل شيء مخلوق، وكل موجود سوى الله سبحانه وتعالى فهو مخلوق، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً، ولم يدخل في العموم: الخالق تعالى وصفاته ليست غيره، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال، وصفاته ملازمة لذاته المقدسة، لا يتصور انفصال صفاته عنه كما تقدم الإشارة إلى هذا بقوله: "ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه، بل نفس ما استدلو به يدل عليهم، فإذا كان قوله تعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} مخلوقاً لا يصلح أن يكون دليلاً".

هذا بالنسبة لاستدلال المعتزلة بقوله سبحانه وتعالى {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}، فجعلوا القرآن شيء، وهو داخل في الخلق، ومعلوم بطلان وفساد هذه المقولة البدعية والضالة، إذ فرقوا بين القرآن وفرقوا بين أفعال العباد، فأخرجوا أفعال العباد من "كل" وأدخلوا فيها القرآن، وهذا تناقض عجيب ظاهر الضلال والزيف نسأل الله السلامة.

فساد استدلال من يقول بخلق القرآن

استدلواهم بقول الله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}، يقولون أي: إنا خلقناه قرآناً عربياً، فما أفسده من استدلال فإن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} وقوله {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} * {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ}، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى (خلق)، قال تعالى {وَلَا تَنْفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ} وقال تعالى {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} وقال {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} وقال تعالى {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ} {وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِئَاءً} ونظائر ذلك كثير. وكذا قوله تعالى {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا}،، إذن إذا كان (جعل) في معنى خلق تعدى إلى مفعول واحد، أما إذا تعدت إلى مفعولين فإنها لا تكون بمعنى خلق، فليست بدليل على خلق القرآن وهي متعددة إلى مفعولين.

وما أفسد استدلالهم بقول الله تعالى {نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ} على أن الكلام خلقه الله تعالى في الشجرة، فسمعه موسى منها، وعموا -القائلين بخلق القرآن عموا- عما قبل هذه الكلمة وما بعدها، فإن الله تعالى قال {فَلَمَّا أَنَاها نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ} والنداء هو الكلام من بُعد، فسمع موسى عليه السلام النداء من حافة الوادي، ثم قال: {فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ} أي أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة، كما تقول سمعت كلام زيد من البيت، يكون من البيت لا ابتداء الغاية لا أن البيت هو المتكلم، ولو كان الكلام مخلوقاً في الشجرة لكانت

الشجرة هي القائلة يا موسى إني أنا الله رب العالمين، وهل قال إني أنا الله رب العالمين غير رب العالمين؟! ولو كان هذا الكلام بدأ من غير الله، لكان قول فرعون أنا ربكم الأعلى صدقاً، إذ كل من الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غير الله، وقد فرقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد: أن ذلك كلامٌ خلقه الله في الشجرة، وهذا كلام خلقه فرعون، فحرفوا وبدلوا واعتقدوا خالفاً غير الله.

إذن ظاهرٌ بطلان استدلالهم بأن الله خلق الكلام في الشجرة، وإن قيل وقد قال الله تعالى {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ} هذا يدل على أن الرسول أحدثه؟! إما جبريل أو محمد صلى الله عليه وسلم؟!.

قيل يرد عليهم بأن ذكر الرسول معروف ومعرف بأن الرسول مبلّغ عن مرسله، لأنه لم يقل إنه قول ملك أو نبي، فعلم أنه بلغه عن من أرسله به، لا أنه أنشأه من جهة نفسه، وأيضاً فالرسول في إحدى الآيتين (جبريل)، وفي الأخرى (محمد) فإضافته إلى كل منها تبين أن الإضافة للتبليغ، إذ لو أحدثه أحدهما امتنع أن يحدثه الآخر، وأيضاً فقوله "رسول أمين" دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أرسل بتبليغه ولا ينقص منه، بل هو أمين على ما أرسل به، يبلغه عن مرسله، وأيضاً فإن الله قد كفر من جعله قول للبشر، والرسول صلى الله عليه وسلم بشر، فمن جعله قول محمد بمعنى أنه قد أنشأه فقد كفر، ولا فرق بين أن يقول إنه قول بشر أو جني أو ملك، والكلام كلام من قاله مبتدئاً لا من قاله مبلغاً، ومن سمع قائلاً يقول: قفا نبي من

ذكرى حبيب ومنزل

قال هذا الشعر امرئ القيس، ومن سمعه يقول (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) قال هذا كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن سمعه يقول: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قال هذا كلام الله، إن كان عنده خبر ذلك، وإلا قال لا أدري كلام من هذا، ولو أنكر عليه أحد ذلك لكذبه، ولهذا من سمع من غيره نظماً أو نثراً يقول له هذا كلام من؟ أهذا كلامك أم كلام غيرك؟

الحلقة (٢١)

أهل السنة كلهم من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم من السلف والخلف متفقون على أن القرآن كلام الله غير مخلوق
 ← مسألة: ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله هل هو معنى واحد قائم بالذات؟ أو أنه حروف وأصوات تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً؟ أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء وأن نوع الكلام قديم؟.

قد يطلق بعض المعتزلة على القرآن أنه غير مخلوق، ومرادهم: "أنه غير مختلق مفترى مكذوب"، بل هو حق وصدق، غير مخلوق أي غير مفترى، ولا ريب أن هذا المعنى منتفٍ باتفاق المسلمين، كل المسلمون يعلمون أن القرآن صدق وحق وعدل وأنه غير مفترى وغير مخلوق.

والنزاع بين أهل القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خلقه الله، أو هو كلامه الذي تكلم به وقام بذاته، لا كونه أنه مكذوب ومفترى، فهذا لا ينازع مسلم في بطلانه.

ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرهم من أهل البدع معترفون بأن اعتقادهم في التوحيد والصفات والقدر لم يتلقوه لا عن كتاب ولا عن سنة ولا عن أئمة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وإنما يزعمون أن العقل دلهم عليه، وإنما يزعمون أنهم تلقوا من الأئمة الشرائع.

ولو ترك الناس على فطرتهم السليمة، وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه، فرق بها بينهم {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}.

والذي يدل عليه كلام الإمام الطحاوي رحمه الله أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء، وأن نوع الكلام قديم، وكذلك ظاهر كلام الإمام أبي حنيفة رحمه الله في الفقه الأكبر فإنه قال: "والقرآن كلام الله في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق، وما ذكره الله في القرآن حكاية عن موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعون، وعن إبليس، فإن ذلك كله كلام الله إخبار عنهم، كلام الله غير مخلوق، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم، وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى، فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل، وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويتكلم لا ككلامنا" انتهى كلام أبي حنيفة من كتابه الفقه الأكبر.

فقوله "ولما كلم موسى كلمه بكلامه الذي هو له من صفاته" يُعلم منه أنه حين جاء كلمه، لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً يقول يا موسى كما يفهم ذلك من قوله تعالى {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ}، ففهم منه الرد على من يقول من أصحابه على إنه معنى واحداً قائماً بالنفوس لا يتصور أن يسمع، وإنما يخلق الله الصوت في الهواء كما قال أبو منصور الماتريدي وغيره. قول أبو حنيفة "الذي هو من صفاته لم يزل" رد على من يقول إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلماً، وبالجمله فكل ما تحتج به المعتزلة، مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته وأنه يتكلم إذا شاء فهو حق يجب قبوله، وما يقول به من يقول إن كلام الله قائم بذاته، وإنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف^(١)، فهو حق يجب قبوله والقول به، فيجب الأخذ بما في قول كل من الطائفتين من الصواب، والعدول عما يرد الشرع والعقل من قول كل منهما.

فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به أي قامت بالله عز وجل، قلنا هذا القول مجمل، وكما هي عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهج أهل السنة والجماعة في أنهم يتعاملون مثلاً مع هذه الألفاظ المحدثه بأنهم يستوقفون من يستعمل هذه الألفاظ، ويسألون عن مراده منها، فإن كانت توافق الشرع أمضوها، وإن خالفته ردوها على قائلها.

إذا قال المعتزلة ومن نحا نحوهم يلزم من إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى أن تكون الحوادث قامت به.

نقول لهم: هذا القول مجمل، ومن أنكر قبلكم قيام الحوادث بهذا المعنى به سبحانه وتعالى من الأئمة، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك، ونصوص الأئمة أيضاً مع صريح العقل، ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة عنه، هذا أمر متعين ومستقر ومتفق عليه، أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول لم يفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلة، بل الذي أفهموهم إياه أن الله نفسه هو الذي تكلم، والكلام قائم به لا بغيره، وأنه هو الذي تكلم به وقاله، كما قالت عائشة رضي الله عنها وعن أبيها في حديث الإفك "ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بوحى يتلى" ولو كان المراد من ذلك كله خلاف مفهومه، لوجب بيانه، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز، ولا يعرض في لغة ولا في عقل قائل متكلم لا يقوم به القول والكلام وإنما قام الكلام بغيره، وإن زعموا أنهم فروا من ذلك حذراً من التشبيه فلا يثبت صفةً غيره!! فإنهم إذا قالوا يعلم لا كعلمنا قلنا، ويتكلم لا كتكلمنا، وكذلك سائر صفات الباري جل وعلا، وهل يعقل قادر لا تقوم به القدرة؟! أو حي لا تقوم به الحياة؟! وقد قال صلى الله عليه وسلم (أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر) فهل يقول عاقل أن الرسول صلى الله عليه وسلم عاذ بمخلوق؟! هل يقول إن الشرك يقع من النبي صلى الله عليه وسلم؟! حاشاه، بل هذا كقوله

^١ قال المحاضر: (الصفة لا تقوم بالموصوف) وأخير الأستاذ بتدارس أنه سبق لسان من المحاضر

{أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك}، وكقوله {أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر}، وكقوله {وأعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا}، كل هذه من صفات الله تعالى، وهذه المعاني مبسطة في مواضعها، وإنما هذه إشارة كثير من متأخري الحنفية على أن صفة الكلام هو معنى واحداً، والتعدد والتكثير والتجزئ والتبعيض في الحاصل؛ في الدلالات لا في المدلول، وهذه العبارات مخلوقة، وسميت كلام الله لدلالاتها عليه وتأديها بها، فإن عبر بالعربية فهو قرآن، وإن عبر بالعبرية فهو تورا، فاختلقت العبارات لا الكلام، قالوا وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً، وهذا الكلام ظاهر الفساد فإن لازمه أن معنى قوله {وَلَا تَقْرُؤُوا الزُّنَا} هو معنى قوله {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين، ومعنى سورة الإخلاص هو معنى سورة {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}، وكل ما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فساده وعلم أنه مخالف لكلام السلف.

والحق أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن من كلام الله حقيقة، وكلام الله تعالى لا يتناهى، فإنه لم يزل يتكلم بما شاء، إذا شاء، كيف شاء، ولا يزال كذلك، يقول الله تعالى {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} ويقول الله تعالى {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ولو كان ما في المصحف عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله لما حرم على الجنب والمحدث مسه، ولو كان ما يقرأه القارئ ليس كلام الله لما حرم على الجنب قراءة القرآن.

النقطة الثانية التي سنتحدث عنها في هذه الحلقة أن كلام الله سبحانه وتعالى محفوظ في الصدور مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف، كما قال أبو حنيفة رحمه الله في "الفقه الأكبر" وهو في هذه المواضع كلها حقيقة، وإذا قيل المكتوب في المصحف كلام الله فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل فيه خط فلان وكتابتها فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل فيه مداد قد كتب به فهم منه معنى صحيح حقيقي، وإذا قيل المداد في المصحف كانت الظرفية فيه غير الظرفية المفهومة من قول القائل: فيه السموات والأرض وفيه محمد وعيسى ونحو ذلك، وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل: فيه خط فلان الكاتب، وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل: فيه كلام الله، ومن لم يتنبه للفرق بين هذه المعاني ضل ولم يهتد للصواب، وكذلك الفرق بين القراءة التي هي فعل القارئ، والمقروء الذي هو قول الباري، فمن لم يهتد له فهو ضال أيضاً "فلو أن إنساناً وجد في ورقة مكتوباً: ألا كل شيء ما خلا الله باطل، من خط كاتب معروف لقال هذا من كلام لبيد حقيقة، وهذا خط فلان حقيقة، وهذا كل شيء حقيقة، هذا خبر حقيقة، ولا تشبه هذه الحقيقة بالأخرى، فهناك فرق بين قائل هذه المقولة وبين كاتبها وبين من خطها.

القرآن في المصدر في الأصل مصدر فتارة يذكر ويراد به القراءة، يقول الله تعالى {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا} يقول الرسول صلى الله عليه وسلم {زينوا القرآن بأصواتكم}.

وتارة يذكر ويراد به المقروء يقول الله تعالى {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} ويقول تعالى {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم {إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف} إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على كل من المعنيين المذكورين، فالحقائق لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسني، ولكن الأعيان تعلم ثم تذكر ثم تكتب، فكتابتها في المصحف هي المرتبة الرابعة.

وأما الكلام فإنه ليس بينه وبين المصحف واسطة، بل هو الذي يكتب بلا واسطة ذهن ولا لسان، والفرق بين كونه في زبر الأولين وبين كونه في رق منشور أو في كتاب مكنون، واضح.

فقوله تعالى {وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ الْأُولَى} أي ذكره ووصفه والإخبار عنه، كما أن محمدا مكتوب عندهم، إذ القرآن أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم ولم ينزله على غيره أصلا، ولهذا قال "في الزبر" ولم يقل في الصحف ولا في الرق، لأن الزبر جمع زبور، والزبر هو الكتابة، والجمع قوله {وَاتَّخَذَ لِنَفْسِهِ الْأُولَى} أي مزبور الأولين، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يبين المعنى المراد، ويبين كمال بيان القرآن وخلوصه من اللبس، وهذا مثل قوله تعالى {الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ} أي ذكره، بخلاف قوله تعالى {فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ} أو {لَوْجٍ مَحْفُوظٍ} أو {كِتَابٍ مَكْنُونٍ}، لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة مثل: الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر مكتوب في كتاب، أو في رق، والكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه، فإن تلك إنما يكتب ذكرها، وكل ما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

الكتاب تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب، ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه وإنما تلك يكتب ذكرها وكل ما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق. وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية هي ما يسمع منه، أو من المبلّغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم، وهو على الحقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه، والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال ليس في المصاحف كلام الله، ولا ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله، والآية تدل على فساد قول من قال: إن المسموع عبارة عن كلام الله لا أنه كلام الله، فإنه تعالى قال: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله، والأصل الحقيقة. ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله أو حكاية كلام الله وليس فيها كلام الله، فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا.

وكلام الطحاوي رحمه الله يرد قول من قال إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وأن المسموع المنزل المقروء المكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه، فإن الطحاوي رحمه الله يقول: "كلام الله منه بدأ"، وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون منه بدأ وإليه يعود، وإنما قالوا منه بدأ لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام في محل فبدى الكلام من ذلك المحل، فقال السلف منه بدأ، أي هو المتكلم فمنه بدأ، لا من بعض المخلوقات كما قال تعالى {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}، ويقول تعالى {وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي} وقال تعالى {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} ومعنى قوله: "إليه يعود": أنه يرفع من الصدور والمصاحف فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف كما جاء ذلك في عدة آثار، كما أخرج ابن ماجة وغيره.

الحلقة (٢٢)

سيكون الحديث في هذه الحلقة عن قول الطحاوي رحمه الله "بلا كيفية" فقوله بلا كيفية أي: لا تعرف كيفية تكلمه سبحانه به، قولاً ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحياً، أنزله عليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من الله، وسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم من الملك، وقرأه على الناس، يقول الله تعالى: {وَقَرَأْنَا قُرْآنَهُ لَتَفْقَاهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْنٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا} ويقول الله تعالى {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} وفي ذلك إثبات صفة العلو لله سبحانه وتعالى، وقد استشكل على ذلك من المخالفين على أن إنزال القرآن نظير إنزال المطر وإنزال الحديد

وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام، كما جاء في القرآن،

ويجاب على ذلك أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله قال تعالى: {حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ويقول الله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ويقول تعالى: {تَنْزِيلُ مِنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} ويقول تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} ويقول تعالى: {فَأَنزَلْنَا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} ويقول تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} ويقول تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء يقول تعالى: {أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} والسماء : العلو، وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن، والمزن السحاب، وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات، وإنزال الحديد والأنعام مطلق فكيف يشتهبه هذا الإنزال بهذا الإنزال، وهذا الإنزال بهذا الإنزال؟ فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال، وهي عالية على الأرض، وقيل إنه كلما كان معدنه أعلى كان حديدته أجود، والأنعام تخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء من أصلابها إلى أرحام الإناث، ولهذا يقال أنزل ولم ينزل، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض، ومن المعلوم أن الأنعام تعلقو فحولها إناثها عند الوطء، وينزل ماء الفحل من علو إلى رحم الأنثى، وتلقي ولدها عند الولادة من علو إلى سفلى، وعلى هذا فيحتمل قوله تعالى {وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ} وجهين:

■ أحدهما: أن تكون "من" لبيان الجنس،

■ والثانية أن تكون "من" لا ابتداء الغاية، وهذان الوجهان يُحتملان في قوله تعالى {جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا}. وقول الطحاوي رحمه الله "وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً" الإشارة إلى ما ذكره من التكلم به على الوجه المذكور وإنزاله، أي هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان وهم السلف الصالح، وأن هذا حق، قوله "وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً" صدقوه على ما ذكر من التكلم به على الوجه المذكور وإنزاله أيضاً، وأن هذا هو قول الصحابة والتابعين وهم السلف الصالح.

قول الطحاوي رحمه الله "وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية" رد على المعتزلة وغيرهم بهذا القول، ظاهر، وفي قوله "بالحقيقة" رد على من قال: إنه معنى قائم بذات الله تعالى لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفساني، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به إن هذا كلام حقيقة، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً، وللزم أن يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله، كما لو أشار أقرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأقرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى، وهذا المثل مطابق غاية المطابقة لما يقولونه، وإن كان الله سبحانه وتعالى لا يسميه أحد أقرساً ولكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائم بنفسه لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً، بل فهم معنى مجرداً ثم عبر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه بالعربي، أو أن الله خلق في بعض الأجسام كالهواء الذي هو دون الملك هذه العبارة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ويقال لمن قال: إنه معنى واحداً، هل سمع موسى عليه السلام جميع المعنى أو بعضه؟ فإن قال: سمعه كله، فقد زعم أنه سمع جميع كلام الله، وفساد هذا ظاهر، وإن قال بعضه، فقد قال يتبع بعض، وكذلك كل من كلمه الله أو أنزل إليه شيئاً من كلامه، ولما قال تعالى للملائكة {إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} ولما قال {اسْجُدُوا لِآدَمَ} وأمثال ذلك هل هذا جميع كلامه أو بعضه، فإن قال إنه جميعه فهذا مكابرة، وإن قال بعضه فقد اعترف بتعددده.

الأمر الآخر الذي سوف نتحدث عنه في هذه الحلقة هو مذاهب الناس في معنى الكلام والقول، وقد قدمت في الحلقة الأولى نبذة عن صفه الكلام.

الناس في معنى الكلام والقول عند الإطلاق على أربعة أقوال:

- القول الأول: أنه يتناول اللفظ والمعنى جميعاً كما يتناول لفظ الإنسان: "الروح والبدن معاً"، وهذا هو قول السلف.
- القول الثاني: أنه اسم للفظ فقط والمعنى ليس جزءاً مسماه، بل هو مدلول مسماه، وهذا قول جماعة من المعتزلة وغيرهم قالوا إنه اسم للفظ فقط، والمعنى ليس جزءاً مسماه بل هو مدلول مسماه.
- القول الثالث: أنه اسم للمعنى فقط، وإطلاقه على اللفظ مجاز لأنه دال عليه، وهذا قول ابن كلاب ومن اتبعه.
- القول الرابع: أنه مشترك بين اللفظ والمعنى، وهذا قول بعض المتأخرين من الكلابية، والكلابية لهم قول آخر يروى عن أبي الحسن أنه مجاز في كلام الله وحقيقة في كلام آدميين، لأن حروف آدميين تقوم بهم فلا يكون الكلام قائم بغير المتكلم، بخلاف كلام الله فإنه لا يقوم عنده بالله، فيمتنع أن يكون كلامه، وهذا مبسوط في موضعه.

أما من يقول إنه معنى واحد واستدل عليه بقول الأخطل يقول:

لا يعجبك من خطيب خطبة** حتى يكون مع الكلام أصيلاً

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فالاستدلال بكلام الأخطل فاسد، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقال المخالفون هذا خبر واحد، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به، فكيف بشاعر ليس على ملة المسلمين، فكيف وهذا البيت قد قيل أن هذا البيت مصنوع منسوب للأخطل وليس في ديوانه، وإنما قال: إن البيان لفي الفؤاد، ولم يقل: إن الكلام لفي الفؤاد. وهذا أقرب إلى الصحة، وعلى تقدير صحته فإنه لا يجوز الاستدلال به، فإن النصارى -والأخطل نصراني- قد ضلوا في معنى الكلام، وزعموا أن عيسى عليه السلام نفس كلمة الله، واتحد اللاهوت بالناسوت أي: شيء من الإله بشيء من الناس، فيُستدل بقول النصارى على معنى الكلام، ويترك ما يعلم من معنى الكلام في لغة العرب، وأيضاً فمعنى قول الأخطل غير صحيح، إذ لا زُعمه أن الأخرس يسمى متكلماً، لقيام الكلام بقلبه وإن لم ينطق به ولم يُسمع منه، والكلام على ذلك مبسوط في موضعه، تكلم عنه شيخ الإسلام رحمه الله، وتكلم عنه ابن القيم رحمه الله، أيضاً في الرد على مثل هذا، وتكلم أهل السنة قبلهم في الرد على مثل هذه الاستدلالات، كاستدلالهم بقول الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما** جعل اللسان على الفؤاد دليلاً.

وهذا معنى عجيب، وهو أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت، فإنهم يقولون أي النصارى، كلام الله هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه، وإنما النظم المسموع مخلوق، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه، فقد ذكر ذلك شيخ الإسلام في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس قوله صلى الله عليه وسلم (إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس) وقال صلى الله عليه وسلم (إن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة).

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك، فعلم اتفاق علماء المسلمين على أن هذا ليس

بكلام، وأيضا في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرّق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأیضا ففي السنن أن معاذ رضي الله عنه قال يا رسول الله "وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: () وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم).

فبين أن الكلام إنما يكون باللسان، فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظا ومعنى، ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين لهم بإحسان، وإنما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع ثم انتشر، ولا ريب أن مسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر يستدل به، فإن هذا مما تكلم به الأولون والآخرون من أهل اللغة، وعرفوا معناه كما عرفوا مسمى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك، ولا شك أن من قال: إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى وأن المتلو المحفوظ المكتوب المسموع من القارئ حكاية كلام الله وهو مخلوق، فقد قال بخلق القرآن في المعنى وهو لا يشعر، فإن الله تعالى يقول { قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ } أفترأه سبحانه وتعالى يشير إلى نفسه أو إلى هذا المتلو المسموع؟ عندما يعجزهم يشير إلى ما في نفسه أو إلى هذا القرآن المتلو المسموع؟ ولا شك أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلو المسموع، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه ولا منزل ولا متلو ولا مسموع، وقوله تعالى: { لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } أفترأه سبحانه وتعالى يقول: لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعه ولم يعرفه، وما في نفس الباري عز وجل لا حيلة إلى الوصول إليه ولا إلى الوقوف عليه، فإن قالوا عندما أعجزهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن: إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته، وهو المتلو المكتوب المسموع، فأما أن يشير إلى ذاته فلا، فهذا صريح القول بأن القرآن مخلوق، بل هم في ذلك أكفر من المعتزلة، فإن حكاية الشيء مثله وشبهه، وهذا تصريح بأن صفات الله تعالى محكية، ولو كانت هذه التلاوة حكاية، لكان الناس قد أتوا بمثل كلام الله، فأين عجزهم؟! ويكون التالي في زعمهم قد حكي بصوت وحرف ما ليس بصوت ولا حرف، وليس القرآن إلا سورا مسورة، وآيات مسطرة، في صحف مطهرة، يقول { فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ } ويقول { بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ } ويقول تعالى: { فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ } ويكتب لمن قرأه بكل حرف منه عشر حسنات يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (أما إني لا أقول (ألم) حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف) وهو المحفوظ في صدور الحافظين، المسموع من ألسن التالين، يقول الشيخ حافظ الدين أبو البركات النسفي في المنار: "إن القرآن اسم للفظ والمعنى"، وكذا قال غيره من أهل الأصول، وما ينسب إلى أبي حنيفة رحمه الله أن من قرأ في الصلاة بالفارسية أجزاءه، فقد رجع أبو حنيفة عنه، وقال: "لا تجوز القراءة مع القدرة بغير العربية"، وقالوا لو قرأ بغير العربية فيما أن يكون مجنونا فيداوى، أو زنديقا فيقتل، لأن الله تكلم به بهذه اللغة، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه

الحلقة (٢٣)

يقول الطحاوي رحمه الله: "ومن سمعه وقال إنه كلام البشر فقد كفر"، لا شك في تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله بل قال إنه كلام محمد أو غيره من الخلق ملكا كان أو بشرا، وأما إذا أقر أنه كلام الله ثم أوّل وحرف فقد وافق قول من قال: {

إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ { في بعض ما به كفر، فأولئك الذين استزلمهم الشيطان وسيأتي الكلام عليه عند قول الشيخ الطحاوي رحمه الله "ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله" إن شاء الله تعالى.

قول الطحاوي "ولا يشبه قول البشر" يعنى أنه أشرف وأفصح وأصدق يقول الله تعالى "وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا" ويقول تعالى { قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنَّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ } ويقول تعالى

{ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ } ويقول تعالى { قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ } فلما عجزوا وهم فصحاء العرب مع شدة العداوة عن

الإتيان بسوره مثله تبين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه من عند الله، وإعجازه من جهة نظمه ومعناه لا من جهة أحدهما فقط، هذا مع أنه قرآن عربي غير ذي عوج بلسان عربي مبين، أي باللغة العربية، فنفي المشابهة من حيث التكلم ومن حيث النظم والمعنى، لا من حيث الكلمات والحروف، وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور، أي أنه

في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يتخاطبون بها، ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف المقطعة؛ بذكر القرآن كما في قوله تعالى {الم * ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ} وقال تعالى {الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ} وقال تعالى {الم * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ} ويقول تعالى {الر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ} وكذا في باقي السور، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم

يأتكم بما لا تعرفونه، بل خاطبكم بلسانكم، ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرعون بمثل هذا إلى نفي تكلم الله به

وسماع جبريل منه، كما يتذرعون بقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} إلى نفي الصفات، وفي الآية ما يرد عليهم قولهم وهو قوله

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} إذ فيها إثبات، كما في قوله تعالى { فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ } ما يرد على من ينفي الحرف، فإنه قال فأتوا

بسورة ولم يقل فأتوا بحرف أو بكلمة، وأقصر سورة في القرآن ثلاث آيات، ولهذا قال أبو يوسف محمد رحمه الله وهو من

الحنفية أن أدنى ما يجزئ في الصلاة ثلاث آيات قصار، أو آية طويلة، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك والله أعلم.

يقول الطحاوي رحمه الله: "ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر، فمن أبصر هذا اعتبر، وعن مثل قول الكفار

إنزجر، وعلم أن الله بصفاته ليس كالbشر"، لما ذكر في ما تقدم أن القرآن كلام الله حقيقة، وذكر العقيدة السلفية المطلوبة

من كل مسلم في القرآن، وأن يعتقدوها في القرآن، وكلام الله سبحانه وتعالى منه بدأ: نبه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس

كالbشر، نفياً للتشبيه عقب الإثبات، يعنى أنه تعالى وإن وُصف بأنه متكلم لكنه لا يوصف بمعنى من معاني البشر، يعنى لا

نقول متكلم ككلامنا، وإنما يتكلم بكلام ليس ككلامنا، إنما يليق بجلاله وعظمته سبحانه، لكن لا يوصف بمعنى من

معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً، فإن الله { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } ، وما أحسن المثل المضروب

للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل؛ باللين الخالص السائغ للشاربين، يخرج من بين فرث التعطيل ودم التشبيه،

والمعطل يعبد عدماً والمشبّه يعبد صنماً، وهذا يأتي في كلام الشيخ ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، وكذا

قوله وهو بين التشبيه والتعطيل، أي دين الإسلام، ولا شك أن التعطيل شر من التشبيه لما سيرد علينا إن شاء الله تعالى،

وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم تشبيهاً، بل صفات الخالق كما يليق به وصفات

المخلوق كما يليق به.

قول الطحاوي "فمن أبصر هذا اعتبر" أي من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصف ونفي التشبيه ووعيد المشبه:

اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار.

هذا ما يخص الكلام عن صفة الكلام للباري جل وعلا والقول بخلق القرآن، وإن بقي في الحلقات فضل سنقراً ما ذكره شيخ

الإسلام وذكره ابن القيم في الرد على من يقول بخلق القرآن، وما ذكره أهل السنة والجماعة، وسنختار أبسط عبارة من هذه

الكتب بحكم أنكم في المستوى الأول نقرأ فيها إن شاء الله تعالى ونطلع عليها ونتدارسها. أنتقل إلى نقطة مهمة من نقاط المنهج وهي:

← مسألة الرؤية .

رؤية الله حق لأهل الجنة والرد على من خالف في ذلك من الجهمية والمعتزلة والخوارج والإمامية

يقول الطحاوي رحمه الله: "والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به كتاب ربنا { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد، لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه" المخالف في الرؤية الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، وأهل الحديث وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة.

هذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، وهي الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحُرِّمَها الذين هم عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون، وقد ذكر الطحاوي رحمه الله من الأدلة قوله تعالى { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } وهي من أظهر الأدلة، وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً، فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل، ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأولوا هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جنائز، فهل قتل عثمان رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد؟! وكذا ما جرى في يوم الجمل بين علي وعائشة رضي الله عنهم أجمعين، وصفين، ومقتل الحسين عليه السلام، والحرّة، وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة ورفضت الروافض وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة إلا بالتأويل الفاسد؟!

وإضافة النظر إلى الوجه الذي محله في هذه الآية { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } النظر أضيف هنا إلى الوجه، الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة "إلى" الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله،

❖ فإن النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه:

١. فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار، كقوله تعالى { انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ تُورِكُمْ }.
٢. فإن عدي بـ في فمعناه التفكير والاعتبار، كقوله تعالى { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.
٣. وإن عدي بـ إلى فمعناه المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى { انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ } فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر، وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } قال من البهاء والحسن، { إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } قال في وجهه عز وجل، هذا الحديث أخرجه ابن جرير في تفسيره جامع البيان، وإن كان في إسناده مقال، وعن الحسن قال (نظرت إلى ربها فنضرت بنوره)، وقال أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما { إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } قال تنظر إلى وجه ربها عز وجل، وقال عكرمة { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ } قال من النعيم، { إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ } قال تنظر إلى ربها نظراً ثم حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما

مثله، وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والجماعة وأهل الحديث.

يقول تعالى { لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ } يقول الطبري: قال علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك رضي الله عنهما: هو النظر إلى وجه الله عز وجل، تفسير المزيدي في هذه الآية المراد به النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى، ويقول سبحانه وتعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ } فالحسنى الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى، فسرهما بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه أنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ } قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو، ألم يثقل موازيننا؟ وببيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة؟ ويخرجنا من النار؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة) وروى هذا غير مسلم بأسانيد متعددة وألفاظ أخرى، معناها أن الزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل، وكذلك فسرهما الصحابة رضي الله عنهم. روى ابن جرير عن جماعة منهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحذيفة رضي الله عنه، وأبو موسى الأشعري رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما، وقال تعالى { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزيدي صاحب الشافعي، قال الحاكم: حدثنا الأصم قال حدثنا الربيع بن سليمان قال حضرت محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله عز وجل { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ } ؟ فقال الشافعي: "لما أن حجب هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أوليائه يرونه في الرضا".

المعتزلة أنكروا الرؤية ونفوا الرؤية، واستدلواهم كان بقول الله تعالى لموسى { قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ } إلى آخر الآيات، ويقول الله تعالى { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ } فالآيتان فيها دليل عليهما، فيستدل بالآيتين عليهما، وليست دليلا لهم.

الآية الأولى { قَالَ لَنْ تَرَانِي } فلا استدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه:

■ أحد هذه الوجوه: أنه لا يُظن بكليم الله موسى ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال.

■ الثاني: أن الله لم ينكر عليه سؤاله، ولما سأل نوح عليه السلام ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله، وقال { إِيَّيَّ أَعْطَاكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } لكن هنا موسى لم ينكر الله عز وجل عليه سؤاله وطلبه الرؤية.

■ الثالث: أنه سبحانه وتعالى قال { لَنْ تَرَانِي } ولم يقل أني لا أرى ولا تجوز رؤيتي أو لست بمريء، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى من كان في كفه حجر أخفى عن الناس حجرا فظنه رجلا طعاما، فقال: أطمعني، فالجواب الصحيح أنه لا يؤكل، أما إن كان طعاما صح أن يقال إنك لن تأكله، وهذا يدل على أن الله سبحانه وتعالى مريء، ولكن موسى عليه السلام لا تحتل قواه رؤيته في هذه الدنيا لضعف قوى البشر فيها عن رؤيته تعالى.

■ الوجه الرابع: قوله تعالى { وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ فَسَوْفَ تَرَانِي } فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف!

■ الوجه الخامس: في الرد على المعتزلة في استدلالهم بالآية الأولى قوله تعالى { قَالَ لَنْ تَرَانِي } هو أن الله تعالى قادر على أن يجعل الجبل مستقرا، وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كان محالا لكان نظير أن يقول إن استقر الجبل فسوف أكل وأشرب

وأنام، والكل عندهم سواء.

■ الوجه السادس: قوله تعالى { **فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** } فإذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو حماد؛ لجاز أن يتجلى الباري جل وعلا للجبل الذي هو حماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته، ولكن الله تعالى أعلم موسى عليه السلام أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

■ الوجه السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم أن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة فرؤيته أولى بالجواز، ودعواهم تأييد النفي بلن، وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة، فاسد، فإنها لو قيدت بالتأييد لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت؟! يقول الله تعالى { **وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا** } وقال تعالى { **وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ** } ولأنها لو كانت للتأييد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، ويقول الله تعالى { **فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي** } فثبت أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد، يقول الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله:

ومن رأى النفي بلن مؤبدا *** فقله أردد وسواه فاعضدا

هذا ما يختص بالرد على المعتزلة في استدلالهم في الآية الأولى قوله سبحانه { **لَنْ تَرَانِي** } ، أما استدلالهم بالآية الثانية وقولهم بأن الله عز وجل لا تدركه الأبصار فأرجئ الكلام عليها إلى الحلقة القادمة إن شاء الله تعالى.

الحلقة (٢٤)

أساس اعتمادنا في الشرح على كلام الماتن الطحاوي رحمه الله وقوله: "والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا { **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ** } (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" وتفسيره على ما أراده الله وعلمه وكل ما جاء في ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كما قال، ومعناه على ما أراد لا ندخل في ذلك متأولين بأرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه".

هذه العقيدة التي لا يقبل الله سواها، العقيدة الصحيحة النقية الصافية التي جاءت عن النبي صلى الله عليه وسلم خالف فيها الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم من الخوارج والإمامية، ومخالفتهم وقولهم باطل مردود بالكتاب والسنة، وقد قال بثبوت رؤية الباري جل وعلا الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين، لا إمامة الرافضة،

{ **وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** } ، وأهل الحديث وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين إلى السنة والجماعة أو القريبين إلى أهل السنة والجماعة.

هذه المسألة من أشرف مسائل أصول الدين، نحن قلنا إن مسألة الكلام هي من أعظم المسائل وهي من كبريات المسائل التي خالفوا فيها، هذه المسألة هي من أشرف مسائل أصول الدين وأجلها، من حيث أن رؤية الله سبحانه وتعالى غاية شمر إليها المشتمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وحرمها الذين هم عن ربهم محبوبون، وعن بابه مطرودون { **كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ** }.

❖ **الدليل الأول على إثبات الرؤية:**

والطحاوي رحمه الله أورد دليلاً كما في سورة القيامة { **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ** } هذا الدليل يعتبر من أظهر الأدلة على ثبوت رؤية الباري جل وعلا، ومن أبي إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً، يحرف هذا الدليل وهذه الآية، فتأويل نصوص المعاد

والجنة والنار والحساب أسهل من تأويلها على أرباب التأويل، ولا يشاء مبطل أن يتأول النصوص ويُحرفها عن مواضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هذه النصوص، يعني: من يريد الضلال لن يقف أحد في طريقه فيأول ما شاء من النصوص، فيأول الجنة والنار ويأول كل أمور المعاد بما في ذلك الرؤية، فإنه سيتعرض لهذا الدليل الذي هو من أظهر أدلة الرؤية {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاطِرٌ} سيتعرض له بالتأويل حتى يغيّر دلالة على ما يوافق هواه.

هذا التأويل هو الذي أفسد الدنيا والدين، حتى في أمور الدنيا إذا دخل هذا التأويل الفاسد المحرم فإنه يفسد أمور الدنيا، فكثير من الناس يستحل المحرمات متأولاً، وينتهك حرّات الله سبحانه وتعالى بالشبه التي لا ترتقي إلا أن تجعل هذه المسألة خلافاً، فتجده مثلاً يبحث عن الرخص، لذلك قال كثير من أهل العلم: "من تتبع الرخص تزندق"، اليهود والنصارى هكذا فعلوا في نصوص التوراة والإنجيل، وحذرنا الله أن نفعل مثلهم وأبى المبطلون إلا سبيلاً، إلا سلوك سبيلهم، وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جناية.

- فعثمان رضي الله عنه، الخليفة الراشد الثالث، قتل بالتأويل الفاسد.
- التأويل الفاسد هو الذي أوقع معركة الجمل بين عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين وبين الخليفة الرابع الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقعت بينهم معركة الجمل، ما وقعت إلا بالتأويل الفاسد.
- معركة صفين وقعت بين خليفة راشد وبين كاتب من كتاب الوحي وبين صحابة أجلاء، وهي فتنة عظيمة.
- مقتل الحسين رضي الله عنه وخروجه إلى العراق وقتله في كربلاء، هذا من التأويل الفاسد، وعندما غدر به اتباعه ومناصروه إذ أخرجه ثم قتلوه.

- التأويل الفاسد هو الذي أوصلنا إلى وقعة الحرّة.
- وهل خرجت الخوارج واعتزلت المعتزلة ورفضت الروافض وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة إلا بالتأويل الفاسد؟!

• التأويل الفاسد مثل السرطان، إذا دخل إلى أي جسم فإنه يهلكه ويفسده، فإذا دخل إلى مسألة فإنه يفسد عقيدة من يدخل به ويعمل به.

إضافة النظر إلى الوجه في الآية يقول الله: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاطِرٌ} في بداية الآية "وجه" إضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية وتعديته بـ "إلى" الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أنّ الله أراد بذلك نظر العين، التي في الوجه، إلى الرب جلّ جلاله.

إذن هذا الدليل وهذه الآية: صريحة في إثبات رؤية الباري جلّ وعلا، فإنّ النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه، وهذا مضى في الحلقة الماضية لكن نعيده فإن في الإعادة إفادة.

■ النظر له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعديه بنفسه:

١- فإن عُدّي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار {انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ نُورِكُمْ} انظرونا، هل معناها: شاهدونا وانظرونا بالعين الباصرة؟ لا: انظرونا: أي انتظرونا، توقفوا وانتظرونا.

٢- إن عُدّي النظر بـ "في" فمعناه: التفكير والاعتبار {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

٣- النظر إن عُدّي بـ "إلى" فإنّ معناه يكون: المعاينة بالأبصار، مثل قوله تعالى {انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ}

فكيف إذا أضيف إلى الوجه؟ يقول الله سبحانه وتعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاطِرٌ} إذن ذكر قرينة الوجه وعُدّي بـ

"إلى" والنظر إذا عُذِيَ بـ "إلى" فإنَّ معناه المعاينة بالأبصار.

وقد روى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمر أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} قال: (من البهاء والحسن)، (ناضرة) بالضاد وليست بالطاء، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: (في وجه الله عز وجل)، كما ذكرت في الحلقة الماضية، هذا إسناد ضعيف.

عن الحسن قال: نظرت إلى ربها فنُضِّرت بنوره.

يقول أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، قوله {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: تنظر إلى وجه ربها عز وجل. وقال عكرمة {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ} قال: من النعيم، {إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} قال: تنظر إلى ربها نظراً ثم حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث.

❖ الدليل الثاني على إثبات الرؤية:

قال تعالى {لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}، يقول الطبري: قال علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك رضي الله عنهما: "هو النظر إلى وجه الله عز وجل"، يعني تفسير المزيّد بأنه: النظر إلى الله سبحانه وتعالى، إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى.

❖ الدليل الثالث على إثبات الرؤية:

يقول الله سبحانه وتعالى {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} فالحسنى الجنة، والزيادة هو: النظر إلى وجهه سبحانه الكريم، فسرها بذلك محمد صلى الله عليه وسلم والصحابة من بعده، كما روى مسلم في صحيحه عن صهيب أنه قال: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إنَّ لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويخرجنا من النار؟! فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه وهي "الزيادة"، نسأل الله الكريم أن نكون ووالدينا وجميع المسلمين ممّن ينظر إلى وجه الباري جلّ وعلا، وأن يدرك هذا النعيم العظيم، وأن لا يحرمنا ذلك بتفريطنا وذنوبنا وتقصيرنا وإسرافنا على أنفسنا بالذنوب والمعاصي، إنّه جوادٌ برّ رحيم.

هذا الحديث، حديث صهيب رواه غير مسلم بأسانيد متعددة وألفاظ أخرى، معناها: أنّ الزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل، كذلك فسرها الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين.

روى ابن جرير عن جماعة، منهم أبو بكر الصديق، وحذيفة، وأبو موسى، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين، روى عنهم أنهم فسروها كلهم بأنها النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى.

❖ الدليل الرابع على إثبات الرؤية

يقول الله سبحانه وتعالى {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُوبُونَ} احتج الشافعي محمد بن إدريس رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني صاحب الشافعي عن الشافعي قال: وقال الحاكم حدثنا الأصم قال: حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها - أي في هذه الرقعة - ما تقول في قول الله عز وجل {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُوبُونَ}؟ فقال الشافعي: لما أن حُجِبَ هؤلاء في السخط، كان في هذا دليل على أن أوليائه يرونه في الرضا" فهنا مفهوم مخالفة.

استدلالات المعتزلة قاتلهم الله، -فما أعظم الضرر الذي أحدثوه في عقيدة الأمة الصافية:-

المعتزلة استدلوا بقوله تعالى في قصة موسى عندما قال موسى كما حكى ذلك الله سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ

قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي، قول الله سبحانه وتعالى: {لَنْ تَرَانِي}، واقتطعوا هذا الجزء من الآية واستدلوا به.

واستدلوا أيضاً بقوله تعالى {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}، فالآيتان عندهم دليل على نفي الرؤية.

والحق أنهم أتوا بأدلة هي في الحقيقة عليهم لا لهم، ففي الآيتان دليل على إثبات الرؤية:

■ أما الآية الأولى: فهي قوله تعالى {قَالَ لَنْ تَرَانِي} فالاستدلال منها على ثبوت رؤيته من وجوه:

■ الوجه الأول: أنه لا يُظَنُّ بكليم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم موسى وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه، بل هو عندهم من أعظم المحال، هل يجوز أن يسأل موسى شيئاً لا يجوز له، فيغضب ربه عز وجل؟ وإنما سأل أمراً جائزاً، إذن في هذا الوجه الأول: أن في الآية جواز الرؤية-تندرج- الآن في هذا جواز الرؤية.

■ الوجه الثاني: أن الله لم ينكر على موسى سؤاله، {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ} لم ينكر عليه سؤاله ولما سأل نوح عليه السلام نجاه ابنه أنكر عليه قال {إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، وهنا في حق موسى لم ينكر الله عليه سبحانه وتعالى، هذا الوجه الثاني.

■ الوجه الثالث: أنه تعالى قال {لَنْ تَرَانِي}، ولم يقل إني لا أرى، ولا تجوز رؤيتي، أو لست بمرئي، والفرق بين الجوابين ظاهر، ألا ترى أن من كان في كمه حجر فظنه رجلاً طعاماً، فقال: أطعمنيه، فالجواب الصحيح: إنه لا يؤكل، أما إذا كان طعاماً صح أن يقال: إنك لن تأكله، أما إن كان حجراً فإنه يقول: لا يؤكل، فالله سبحانه وتعالى قال: لا أرى أم قال: لن ترائني؟ فقال {لَنْ تَرَانِي}، دليل على جواز الرؤية في مكان آخر أو في وضع آخر، لكن في حق موسى أخبره الله سبحانه وتعالى بعدم إمكانية ذلك، وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي، لكن موسى عليه السلام لا تحمل قواه رؤية الله سبحانه وتعالى في هذه الدار، لضعف قوى البشر فيها عن رؤية الله سبحانه وتعالى يوضح ذلك الوجه الرابع.

■ الوجه الرابع: قوله تعالى في سياق الآية {وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي} فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار، فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف؟

■ الوجه الخامس: أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الجبل مستقراً وذلك ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كان محالاً لكان نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف أكل وأشرب وأنام، والكل عندهم سواء.

■ الوجه السادس: قوله تعالى {فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} فإذا جاز أن يتجلى الباري جل للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته؟! ولكن الله تعالى أعلم موسى عليه السلام أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار، فإن البشر أضعف.

هذا قرآن، ما نزل إلا من عند الحكيم العزيز سبحانه وتعالى الحكيم الخبير، لا يجوز أن يُقْتَطَع لفظ منه ويُستدل به، لا يجوز أن يُقْتَطَع كلمة منه، كمن يستدل بـ {قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} لا يجوز الاستدلال بذلك، كما فعل المعتزلة الآن يستدلون {قَالَ رَبِّ أَرِنِي} طيب قبل الآية، أكمل الآية إلى آخرها، وينتفي استدلالهم بالباطل.

■ الوجه السابع: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم -صفة من صفات الله- تكلم الله مع موسى وأن يسمع مخاطبته وكلامه بغير واسطة، فرويته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، ذلكم أن المعتزلة أنكروا الرؤية وأنكروا الكلام وقد جمعوا بين ذلك.

وأما دعواهم تأييد النفي بـ (لن) وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة، ففاسد.

أتوقف عند الوجه السابع على أن أكمل في الحلقة القادمة إن شاء الله، لكن لعلني أبين أمر وهو أن استدلال المعتزلة بقوله {قَالَ رَبِّ أَرِنِي} وقوله {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}، هو بترٌ للآيات، ما الذي حملهم على إنكار الرؤية؟ الذي حملهم على إنكار الرؤية هو ما حملهم على إنكار صفة الكلام، إلى هنا أتوقف على أن ألقاكم في الحلقة القادمة.

الحلقة (٢٥)

كان الحديث في نهاية الحلقة الماضية عن: الرد على استدلالات المعتزلة بـ قول الله سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ أَرِنِي} وبقوله تعالى {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارُ} وكيف نرد عليهم؟ وقد ذكرنا في الحلقة الماضية أن الرد على استدلالهم بالآية الأولى من عدة أوجه:

■ **الوجه الأول:** أن هذا لا يُظنّ بكليم الله تعالى موسى أن يسأل مالا يجوز عليه فهو سأل أمراً جائزاً.

■ **الوجه الثاني:** أن الله لم ينكر عليه سؤاله.

■ **الوجه الثالث:** أن الله تعالى قال {لَنْ تَرَانِي} ولم يقل: [لني لا أرى].

■ **الوجه الرابع:** قوله سبحانه وتعالى في باقي الآية {وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي}، فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت للتجلي في هذه الدار فكيف بالبشر الذي خلق من ضعف؟

■ **الوجه الخامس:** أن الله سبحانه قادرٌ على أن يجعل الجبل مستقراً وذلك ممكن.

■ **الوجه السادس:** قوله تعالى {فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا} فإذا جاز أن يتجلى الباري جلّ وعلا أن للجبل الذي هو جمادٍ لا ثواب له ولا عقاب، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسله وأوليائه في دار كرامته وجنته.

■ **الوجه السابع:** في الرد على استدلال المعتزلة في قوله تعالى {لَنْ تَرَانِي} : أن الله كلم موسى وناداه وناجاه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم، وأن يسمع مخاطبه كلامه بغير واسطة؛ فرويته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه، والمعتزلة قد جمعوا بينهما.

يعني التلازم أن القول في أي صفة من الصفات كالقول في باقي الصفات، وهذه من القواعد في الأسماء والصفات.

وأما دعواهم تأبيد النفي بـ (لن) وأن ذلك يدل على نفي الرؤية في الآخرة ففساد، دعواهم بأن قول الله سبحانه تعالى {لَنْ تَرَانِي} قالوا: لن هنا تفيد التأبيد، وهذا يدل على نفي الرؤية في الآخرة.

وهذا مردود فإن (لن) لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أطلقت، لفظة (لن) إذا قيدت بالتأبيد، يعني معها (أبداً) لا تدل على دوام النفي في الآخرة، يقول الله سبحانه وتعالى {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا} في حق الكفار، وقال تعالى {وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} إذن هم لن يتمنوا الموت {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا} لن يتمنوا الموت أبداً ومع ذلك نادوا وقالوا {يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ} يريدون الموت.

ولأن (لن) لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها، وقد جاء ذلك، قول الله سبحانه {فَلَنْ أُبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي} فإذا أذن له أبوه فإنه سيبرح تلك الأرض، فثبت أن لن لا تقتضي النفي المؤبد، يقول الشيخ جمال الدين بن مالك في الألفية يقول:

ومن رأى التفي بلن مؤبداً **** فقله أردد وسواه فاعضدا

■ الرد على استدلالهم بالآية الثانية {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}

قالوا: يقولون إن الله سبحانه وتعالى يقول: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} وأنتم مع ذلك يا أهل السنة تقولون: أن الرؤية ثابتة لله

سبحانه وتعالى وجائزة في الآخرة.

فلا استدلال بها على الرؤية من وجهٍ حسن لطيف... كيف؟ الله سبحانه وتعالى يقول: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} وفي هذا دليل على إثبات الرؤية، وهو أنَّ الله تعالى: إنما ذكرها في سياق التمدِّح، ومعلوم أنَّ المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية. وأما العدم المحض فليس بكمال، فلا يُمدَّحُ به، وإِنَّمَا يُمدَّحُ الرَّبُّ تعالى بالنفي إذا تَضَمَّنَ أمراً وجودياً، كمدحه بنفي السَّنةِ والتَّوَمِ المتضمَّنِ كمال القيومية، ونفي الموت المتضمَّنِ كمال الحياة، ونفي اللغوب والإعياء المتضمَّنِ كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمَّنِ كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمَّنِ كمال صمديته وغناه، ونفي الشفاعة عنده إلا بإذنه المتضمَّنِ كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمَّنِ كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمَّنِ كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمَّنِ لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدَّح بعدم محض لا يتضمَّنُ أمراً ثبوتياً، -يعني ما قال {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} لا بد أن نعرف ما المدح في هذا {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}؟- فإنَّ المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم، ولا يوصف الكامل بأمرٍ يشترك هو والمعدوم فيه، إذن المعنى: أنه يُرى ولا يُدرك ولا يُحاط به، ما قال لا تبصره الأبصار ولا تنظر إليه الأبصار، بل قال {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} المعنى إذن من الآية {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ}: أنه يُرى ولا يُدرك ولا يُحاط به.

فقوله {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} يدل على كمال عظمته وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لكمال عظمته لا يُدرك بحيث يُحاط به، كما قال تعالى {فَلَمَّا تَرَأَى الْجُمُعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ قَالَ كَلَّا} فلم ينفِ موسى الرؤية وإنما نفى الإدراك، فالرؤية والإدراك كلُّ منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالربُّ يُرى ولا يُدرك، كما يُعلم ولا يُحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هي عليه، هذه الشمس التي هي أكبر من الكواكب السيَّارة كلها، هل يستطيع الإنسان أن يقول: أنا رأيت الشمس، لكن هل أدركت الشمس؟ لا يستطيع إدراكها على ما هي عليه.

❖ أما الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين الدالة على الرؤية فمتواترة، رواها أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن فمنها:

١- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أنَّ ناساً قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله! قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، قال: فإنَّكم ترونه كذلك) الحديث أخرجه في الصحيحين بطوله.

٢- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في الصحيحين نظيره.

٣- وحديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال كُنَّا جُلُوساً مع النبي صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة فقال: (إنَّكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا لا تُضامون في رؤيته)، الحديث أخرجه في الصحيحين.

٤- وحديث صهيب المتقدم أيضاً رواه مسلم كما ذكرنا في تفسير الزيادة.

٥- حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال في الحديث: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن يروا ربهم تبارك وتعالى إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) أخرجه في الصحيحين.

٦- ومن حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه (وَلَيَلَقَيْنِ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجَمَانُ يُتْرَجَمُ

له، فليقولن ألم أبعث إليك رسولاً فيبلغك، فيقول: بلى يا رب! فيقول: ألم أعطك مالاً وأفضل عليك؟ فيقول: بلى يا رب) الحديث أخرجه البخاري في صحيحة.

فقد روى أحاديث الرؤية نحو ثلاثين صحابياً، ومن أحاط بها معرفةً يقطع بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قالها متواترة، لولا كثرة هذه الأدلة لما ظهر بطلان وضلال المعتزلة الذين يحرفون النصوص، مع أنهم يتعرضون لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بأنها آحاد ويردونها، فهم الآن يتعرضون لأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المتواترة ويردونها بمحض عقولهم الضعيفة الضالة.

مع ثبوت الرؤية لله سبحانه وتعالى، يثبت أنه سبحانه وتعالى يكلم من شاء وهذا جاء في الأحاديث أنه يكلم من شاء، إذا شاء، وأنه يأتي الخلق لفصل القضاء يوم القيامة، وأنه فوق العالم، وأنه يناديهم بصوتٍ يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب، وأنه يتجلى لعباده وأنه يضحك... إلى غير ذلك من الصفات، التي سماعها على الجهمية بمنزلة الصواعق، الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم ممن شاكلهم، وذكرنا في بداية الحلقات أن الجهمية: كل من ينكر الصفات فيستوي عند السلف جهمي، أو يتعرض للصفات بتحريف، المهم أنه لا يعتقد في الصفات كما يعتقد السلف الصالح، فهذه الأحاديث بمنزلة الصواعق على الجهمية، ولذلك هم يحاولون دائماً تأويلها وردّها.

أصول الدين لا تعلم إلا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

وكيف تعلم أصول الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بل كيف يفسر كتاب الله بغير ما فسره رسوله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضوان الله عليهم، الذين نزل القرآن بلغتهم، وقد قال صلى الله عليه وسلم: (من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) الحديث أخرجه الترمذي.

وفي رواية: (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)، وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبًّا} ما الأبُّ؟ فقال: أي سماءٍ تُظلني! وأي أرضٍ تُقلني إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم، "الأب هو: نوع من النبات الصغير قريب من الأرض، ولم يكن أبو بكر رضي الله عنه يعلمه، وإثما هذا من لغة غير لغة قريش، فلم يكن يعلم، لذلك تورّع رضي الله عنه وأرضاه عن الخوض فيما لا يعلم.

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي.

عندما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (تنظرون إلى الله في الحديث كالشمس ليس دونها سحاب والقمر ليلة البدر) ليس هنا تشبيه الباري جلّ وعلا بالقمر أو بالشمس، وإنما هو تشبيه الرؤية بالرؤية، كما تنظر إلى الشمس وكما تنظر إلى القمر، إذن هو تشبيه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي، ولكن فيه دليل على علو الله سبحانه وتعالى على خلقه، وإلا فهل تعقل رؤية بلا مقابلة؟! ومن قال يرى لا في جهة فليراجع عقله، فإثما أن يكون مكبراً لعقله أو في عقله شيء، وإلا فإذا قال: يرى لا أمام الراي ولا خلفه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقه ولا تحته، كما يفعل المبتدعة، ردّ عليه كل من سمعه بفطرته السليمة.

ولهذا ألزم المعتزلة من نفى العلو بالذات، بنفي الرؤية، وقالوا: كيف تُعقل رؤية من غير جهة؟! المعتزلة ألزموا من ينفي العلو بنفي الرؤية، قالوا: لا تثبت الرؤية، إنك إن أثبت الرؤية، أثبت العلو، فإذا نفيت العلو، فإنك تنفي الرؤية

مسألة: عجز الأبصار عن رؤيته سبحانه وتعالى في الدنيا

نتكلم نحن عن ثبوت رؤية الله في الآخرة، وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤية، فهذه الشمس إذا حدّق

الرأي البصر في شعاعها ضَعُفَ عن رؤيتها، لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرأي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته سبحانه وتعالى، نسأل الله الكريم من فضله، ولهذا { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ }، لأنه لا يراك حيًّا إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية المَلَك في صورته، إلا من أئده الله كما أئد نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم.

وجبريل كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم بصورة دحية الكلبي، وكان يأتي بغير شكله الذي خلقه الله عليه، يقول الله تعالى { وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الْأَمْرُ } قال غير واحد من السلف: "لا يطيقون أن يروا المَلَك في صورته، فلو أنزلنا إليه ملكاً لجعلناه في صورة البشر، وحينئذ يشتبه عليهم، هل هو بشرٌ أو مَلَك"، ومن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منا، لذلك جبريل عليه السلام عندما أتى يُعَلِّمُ الناس أمر دينهم، جاءهم في صورة رجل لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة، وكذلك ورد أنه أتى بصورة الصحابي الجليل دحية الكلبي. وما ألزمهم المعتزلة، ألزموا نفاة العلو بالذات نفي الرؤية، ما ألزمهم هذا الإلزام إلا لما وافقهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه، لأن قول من أثبت موجوداً يُرى لا في جهة؛ أقرب إلى العقل من قول من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يُرى ولا في جهة.

ويقال لمن قال بنفي الرؤية: لازمها، وهو الجهة، أتريد بالجهة أمراً وجودياً أو أمراً عدمياً؟ فإن أردت بها أمراً وجودياً كان التقدير: كل ما ليس في شيء موجود لا يرى، وهذه المقدمة ممنوعة ولا دليل على إثباتها، بل هي باطلة، فإنَّ سطح العالم يمكن أن يرى وليس العالم في عالم آخر. وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً، كانت المقدمة الثانية ممنوعة، فلا تُسَلَّمُ أنه ليس في جهة بهذا الاعتبار، وكيف يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، وإنما يتلقاه من قول فلان وفلان. وإذا زعم أنه يأخذه من كتاب الله لا يتلقى تفسير كتاب الله من أحاديث الرسول، ولا ينظر فيها، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، المنقول إلينا عن الثقات النقلة، الذين تحيَّروهم النقاد، فإنهم لم ينقلوا نظم القرآن وحده، بل نقلوا نظمه ومعناه، ولا كانوا يتعلمون القرآن كما يتعلم الصبيان، بل كانوا يتعلمون القرآن بمعانيه، ومن لا يسلك سبيلهم فإنما يتكلم برأيه، ومن يتكلم برأيه وما يظنه دين الله ولم يتلقَ ذلك من الكتاب والسنة فهو مأثور وإن أصاب، ومن أخذ من الكتاب والسنة فهو مأجور، فهو مأجور وإن أخطأ، لكن إن أصاب يُضاعف أجره.

الحلقة (٢٦)

نتحدث في هذه الحلقة عن قول المؤلف الطحاوي رحمه الله تعالى: "والرؤية حق لأهل الجنة" تخصيص أهل الجنة بالذكر يفهم منه نفي الرؤية عن غيرهم، ولا شك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة، وكذلك يروونه في المحشر قبل دخول الجنة، كما ثبت في الصحيحين ويدل عليه قوله تعالى { تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ }.

واختلف في رؤية أهل المحشر للباري جلَّ وعلا على ثلاثة أقوال:

١. أحدها: أنه لا يراه إلا المؤمنون.

٢. الثاني: أنه يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار ولا يروونه بعد ذلك.

٣. الثالث: أنه يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار، وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف.

إذن الخلاف الواقع في الرؤية والخلاف الواقع في الكلام مع أهل المحشر، رؤية الباري سبحانه وتعالى في المحشر وكذلك

تكليمه لأهل المحشر.

الاتفاق على أنه لا يرى الله تعالى أحد في الدنيا بعينه.

(اتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا صلى الله عليه وسلم خاصة، منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له صلى الله عليه وسلم، وحكى القاضي عياض في كتابه الشفا، اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم، وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سأها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب) الحديث أخرجه البخاري.

-إذن هنا الخلاف خلاف سني، يعني بين أهل السنة ولا يفسد الأمر بينهم، اختلاف سائغ، ليس من قبيل اختلاف المبتدعة، أكمل كلام القاضي عياض بعد أن أورد حديث مسلم - لفظ مسلم:

"قال مسروق: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: يا أبا عائشة! ثلاث من تكلم بواحدةٍ منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلتُ وما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية، قال: وكنت متكئاً فجلستُ، فقلتُ: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ} {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى} فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً أعظم خلقه ما بين السماء والأرض)، فقالت: أولم تسمع أن الله يقول {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} أولم تسمع أن الله يقول {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} قالت: ومن زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} هذا لفظ مسلم.

"وحكى القاضي عياض في كتابه الشفا - اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في رؤيته وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سأها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، ولغة أهل الحجاز فقد كذب: فقد أخطأ.

ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة، واختلف عنه -يعني أبو هريرة- وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه، وروى عطاء عنه: رآه بقلبه، ثم ذكر أقوالاً وفوائد، ثم قال: وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع ولا نص، والمُعَوَّلُ فيه على آية النجم، والتنازع فيها مأثور، والاحتمال لها ممكن.

كما بينت وأسلفت قبل قليل أن هذا من الخلاف السائغ، الخلاف بين أهل السنة، خلاف سني، ليس بين أهل البدعة والضلالة، ولا يلزم منه تحريف ولا ضلال.

(هذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما سأها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نص بأنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية، وهو ما رواه

مسلم في صحيحة عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك؟ فقال: (نورٌ أتى أراه) وفي رواية: (رأيتُ نوراً)، وقد روى مسلم أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال: (إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفعُ إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابُه النور -وفي رواية: النار- لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فيكون -والله أعلم- معنى قوله لأبي ذر (رأيتُ نوراً): أنه رأى الحجاب، ومعنى قوله: (نورٌ أتى أراه) النور الذي هو الحجاب يمنع من رؤيته، ف(أتى أراه)! أي: فكيف أراه والنور حجابٌ بيني وبينه يمنعني من رؤيته! فهذا صريح في نفي الرؤية، والله أعلم، وحكى عثمان بن سعيد الداري رحمه الله تعالى اتفاق الصحابة على ذلك.

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى، وإن كانت رؤية الرب تعالى أعظم وأعلى، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

قول المؤلف رحمه الله الطحاوي: "الرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا" إثبات الرؤيا "هذا لكمال عظمته وبهائه سبحانه وتعالى، لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به، كما يُعلم ولا يحاط به علماً" قال تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} وقال تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا}، وقوله: "وتفسيره على ما أراد الله وعلمه" إلى أن قال: "لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا" أي: كما فعلت المعتزلة بنصوص الكتاب والسنة في الرؤية، وذلك تحريف لكلام الله وكلام رسوله عن مواضعه، فالتأويل الصحيح هو الذي يوافق ما جاءت به السنة، والفساد المخالف له، فكل تأويل بمعنى لم يدل عليه دليل من السياق ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه، ولو قصده لحفّ بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره، حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ، فإن الله أنزل كلامه بياناً وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره ولم يحفّ به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحد، لم يكن بياناً ولا هدىً، فالتأويل إخبار بمراد المتكلم لا إنشاء، وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخباراً بالذي عناء المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقاً، كان كذباً على المتكلم.

ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة:

منها: أن يُصرّح بإرادة ذلك المعنى.

ومنها: أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يُرد ذلك المعنى، فكيف إذا حُفّ بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وُضع له، كقوله {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} وقول الرسول (إنكم ترون ربكم عياناً كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب)، فهذا مما يقطع السامع فيه بمراد المتكلم، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وُضع له، مع القرائن المؤكدة، كان صادقاً في إخباره.

أما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه، ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخباره بأن هذا مراده كذبٌ عليه، وهذا تأويل بالرأي، وتوهم بالهوى، وحقيقة الأمر أن قول القائل: نحمله على كذا، أو نتأوله بكذا، إنما هو من باب: دفع دلالة اللفظ على ما وُضع له، فإن مُنازعه لما احتج عليه به، ولم يُمكنه دفعُ وروده، دَفَعَ معناه، فقال: أحمله على خلاف ظاهره.

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر لم تذكره، وهو أن اللفظ لما استحال أن يُراد به حقيقته وظاهره، ولا يمكن تعطيله، استدللنا بوروده، وعدم إرادة ظاهره، على أن مجازه هو المراد، فحملناه عليه دلالة لا ابتداءً، -كل هذا في منازعة أهل لضلال وتحريفهم وتأويلهم صفات الباري جل وعلا- قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراد، وهو إما صدق وإما كذب

كما تقدّم، ومن الممتنع أن يريد خلاف حقيقته وظاهره ولا يُبيّن للسامع المعنى الذي أراد، بل يقرّر بكلامه ما يؤكد إرادة الحقيقة، ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يريد بكلامه خلاف ظاهره إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده! كيف والمتكلم يؤكد كلامه بما ينفي المجاز، ويكرره غير مرة ويضرب له الأمثال، وهذا ما يقع من كلام الباري جلّ وعلا.

وقول الطحاوي رحمه الله: "فإنّه ما سلم في دينه إلا من سلّم لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم وردّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه" أي: سلّم لنصوص الكتاب والسنة ولم يعترض عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة، أو يقول: العقل يشهد بضدّ ما دلّ عليه النقل! والعقل أصل النقل!! فإذا عارضه، قدّمنا العقل!!! وهذا لا يكون قطّ.

لكن إذا جاء ما يؤهم مثل ذلك، فإن كان النقل صحيحاً، فذلك الذي يدّعي أنه معقول إنّما هو مجهول، ولو حقّق النظر، لظهر ذلك، وإن كان النقل غير صحيح، فلا يصلح للمعارضة، فلا يتصور أن يتعارض عقل صريح ونقل صحيح أبداً، ويُعارض كلام من يقول ذلك بنظيره، فيقال: إذا تعارض العقل والنقل، وجب تقديم النقل، لأن الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنع، لأن العقل قد دلّ على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو أبطالنا النقل، لكُنّا قد أبطالنا دلالة العقل، ولو أبطالنا دلالة العقل، لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان تقديم العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه، وهذا بيّن واضح، فإنّ العقل هو الذي دلّ على صدق السمع وصحته "العقل دلنا على صدق السمع، والنص الوحي دلنا على صدقه وصحته، وأن خبره مطابق لمخبره، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل، لزم ألا يكون العقل دليلاً صحيحاً، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً، لم يجز أن يتّبع بحال، فضلاً عن أن يُقدّم، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً في العقل"، هذه المسألة فصلها شيخ الإسلام في درء تعارض العقل والنقل في الجزء الأول.

الحلقة (٢٧)

سيكون الكلام في هذه الحلقة عن:

- وجوب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم.
- التوحيدان اللذان لا نجا للعبد من عذاب الله إلا بهما.
- ثم ما يتيسر من الكلام عن النقاط الأخرى من المنهج.

الواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، أو يحمله شبهة أو شكاً، أو يقدم عليه آراء الرجال وزبالة أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما وحد المرسل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل.

فهما توحيدان، لا نجا للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم العبد إلى غيره سبحانه وتعالى، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمها، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا فإن طلب السلامة فوضه إليهم، وأعرض عن أمره وخبره، وإلا حرّفه عن مواضعه تبعاً لهوى مشايخه، وسمى تحريفه تأويلاً وحماً فقال: نؤوله ونحمله، فلأن يلقي العبد ربه بكل ذنب، ما خلا الإشراف بالله، خير له من أن يلقاه بهذه الحال المذكور، بل إذا بلغه الحديث الصحيح يعدّ نفسه كأنه سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهل يسوغ أن يؤخر قبوله والعمل به حتى يعرضه على رأي فلان أو فلان؟! بل كان الفرض المبادرة

إلى امتثاله، من غير التفات إلى سواه، ولا يستشكل قوله لمخالفته رأي فلان، بل تستشكل الآراء لقوله صلى الله عليه وسلم، ولا يعارض نضه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلغى لنصوصه، ولا يُحرف كلامه عن حقيقته، لخيال يسميه أصحابه معقولاً، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول! ولا يوقف قبول قوله على موافقة فلان دون فلان، كائنًا من كان.

يقول الإمام أحمد رحمه الله تعالى رحمة واسعة: حدثنا أنس بن عياض قال، حدثنا أبو حازم، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أنه قال: "لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا حجرة -يعني منفردين- إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: (مهلاً يا قوم! بهذا أهلكم الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً، وإنما نزل يصدق بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه).

ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم، يقول الباري جل وعلا {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}، ويقول الباري جل وعلا: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}، فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو الحق الذي يجب اتباعه، فيصدق بأنه حق وصدق، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه، فإن وافقه فهو حق، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه، لكون ذلك الكلام مجماً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بتصديقه أو بتكذيبه، فإنه يمسك عنه، ولا يتكلم إلا بعلم، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد يكون علم عن غير الرسول، لكن في الأمور الدنيوية، مثل الطب والحساب والفلاحة، وأما الأمور الإلهية والمعارف الدينية، فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم لا غير.

يقول المؤلف الطحاوي رحمه الله: "ولا تثبت قَدَمُ الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام".

هذا الكلام من الطحاوي رحمه الله من باب الاستعارة، إذ القدم الحسي لا تثبت إلا على ظهر شيء، أي لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، وينقاد إليهما، ولا يعترض عليها ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه، وقد روى البخاري رحمه الله عن الإمام محمد بن شهاب الزهري رحمه الله رحمة واسعة أنه قال: "من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلىنا التسليم" وهذا كلام جامع نافع.

وما أحسن المثل المضروب للنقل مع العقل، النقل الوحيين، والعقل هي عقول البشر، وهو: أن العقل مع النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، من هو العالم المجتهد؟ هو النقل، والعقل هو العامي المقلد، بل هو دون ذلك بكثير، فإن العامي يمكنه أن يصير عالماً، ولا يمكن للعالم أن يصير نبياً رسولاً، فإذا عرف العامي المقلد عالماً، فدل عليه عامياً آخر، ثم اختلف المفتي والدال، فإن المفتي يجب عليه قبول قول المفتي، دون الدال، فلو قال الدال: الصواب معي دون المفتي، لأنني أنا الأصل في علمك بأنه مفتي، -لأنني أنا الذي دليتك على المفتي هذا وقلت لك أن هذا يفتي، فيجب أن تصدقني لا أن تصدق المفتي، فهنا لا يقبل كلام هذا الدال، وإنما يقبل كلام المفتي - فإذا قدمت قوله على قولي قدحت في الأصل الذي به عرفت أنه مفتي، فلزم القدح في فرعه! فيقول له المستفتي: أنت لما شهدت له بأنه مفتي، ودلت عليه، شهدت له بوجوب تقليده دونك، فموافقتي لك في هذا العلم المعين، لا يستلزم موافقتك في كل مسألة، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلم منك، لا

يستلزم خطأك في علمك بأنه مفت، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يخطئ، والعقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى، لا يجوز عليه الخطأ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره.

وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول: هذا القرآن الذي تلقيه علينا، والحكمة التي جئتنا بها، قد تضمن كل منهما أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قدحاً في ما علمنا به صدقه، فنحن نعتقد موجب الأقوال المناقضة لما ظهر من كلامك، وكلامك نعرض عنه، لا نتلقى منه هدئ ولا علماً، لم يكن مثل هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يرض منه الرسول بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساع لأمكن كل أحد أن لا يؤمن بشيء مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ العقول متفاوتة، والشبهات كثيرة، والشياطين لا تزال تلقي الوسواس في النفوس، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم وما أمر به !! وقد قال الله سبحانه وتعالى {وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ} وقال {فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}.

وقال تعالى {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} ويقول الله تعالى {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ} ويقول الله تعالى {حَم} * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ { ويقول الله تعالى {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} ويقول: {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} ويقول الله تعالى {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَنُذُرًا لِلْمُسْلِمِينَ} ونظائر ذلك كثيرة في القرآن.

فأمر الإيمان بالله واليوم الآخر، إما أن يكون الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا؟ والثاني باطل، وإن كان قد تكلم بما يدل على الحق بالفاظ مجملة محتملة، فما بلغ البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدعي أنه في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين، فقد افترى عليه صلى الله عليه وسلم.

إذن أمر الإيمان بالله بأسمائه وصفاته، وكذلك ما جاء في أصول الإيمان الأخرى، إما أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم تكلم فيها بما يدل على الحق، أو بما لا يدل على الحق، والثاني منتفٍ، كل ما تكلم به الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على الحق، وإن كان تكلم على الحق بالفاظ مجملة محتملة فما بلغ البلاغ المبين، هو بلغ ولكن لم يبلغ المبين إذا كان تكلم عن الحق بالفاظ مجملة محتملة، وقد شهد خير القرون له صلى الله عليه وسلم بالبلاغ، وأشهدهم، وسطرت كتب الحديث هذه الشهادة، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدعي أنه صلى الله عليه وسلم في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين القاطع للحجة فقد افترى على محمد صلى الله عليه وسلم.

قول المؤلف رحمه الله رحمة واسعة: "فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان".

وهذا تقرير للكلام الأول، وزيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين -بل وفي غيرها- بغير علم، والله سبحانه وتعالى يقول {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} ويقول الله سبحانه وتعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ} * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ سَعِيرٍ} ويقول الله تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ} * ثَانِي عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ} ويقول الباري {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} وقال تعالى {إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى} إلى غير ذلك من

الآيات الدالة على هذا المعنى.

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا}، رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وعن عائشة رضي الله عنها كما عند البخاري أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم).

"ولا شك أن من لم يسلم للرسول صلى الله عليه وسلم نقص توحيده، فإنه يقول برأيه وهواه، أو يقلد ذا رأي وهوى بغير هدى من الله، فينقص من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه قد اتخذ في ذلك إلهاً غير الله، يقول الله سبحانه وتعالى {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} أي: عبد ما تهواه نفسه".

هذه عبارة الشارح رحمه الله يقول في هذه النقطة نقص توحيد من لم يسلم، وها هنا التوحيد لا ينقص وإنما ينقص كما جاء في حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه عندما ذكر أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، فقال: "يا رسول الله ما عبدناهم، فقال: (أليسوا يحللون لهم الحرام فيحلوه، ويحرمون عليهم الحلال فيحلوه، قال: نعم، قال: فتلك عبادتهم)".

إذن هنا من يحدث منه هذا ينتقص توحيده بالكلية لا أن ينقص، فالكلام في الطاعات أو المعاصي يختلف عن أمور الشريعة، والله سبحانه وتعالى لا يقبل من أحد شركاً يشرك به معه غيره، فيقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن أشرك معي غيري تركته وشركه).

الحلقة (٢٨)

الحديث موصول عما كان بالحلقة الماضية عن نقص توحيد من لم يسلم للرسول صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن من لم يسلم للرسول صلى الله عليه وسلم ينقص توحيده أو ينتقص، فإنه يقول برأيه وهواه، أو يقلد ذا رأياً وهوى بغير هدى من الله، فينقص توحيده بقدر خروجه عما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فيكون قد اتخذ في ذلك إلهاً غير الله، والله يقول: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} أي عبد ما تهواه نفسه وإنما دخل الفساد في العالم من ثلاث فرق، كما قال عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى رحمة واسعة في نظمه:

رأيت الذنوب تमित القلوب*** وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب*** وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوكة*** وأحبار سوء ورهبانها

فالملوك الجائرة يعترضون على الشريعة بالسياسات الجائرة ويعارضونها بها، ويقدمونها على حكم الله ورسوله، وأحبار السوء وهم العلماء الخارجون عن الشريعة بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، المتضمنة تحليل ما حرم الله ورسوله، وتحريم ما أباحه، واعتبار ما ألغاه، وإلغاء ما اعتبره، وإطلاق ما قيد، وتقييد ما أطلقه، ونحو ذلك، والرهبان هم الجهال من المتصوفة المعترضون على حقائق الإيمان والشرع بالأذواق والمواجيد والخيالات والكشوف الباطلة الشيطانية، المتضمنة شرع دين لم يأذن به الله، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحضور النفس.

فقد قال الأولون: إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة، وقال الآخرون: إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، وقال

أصحاب الذوق: إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف، فمن قال إذا تعارضت السياسة والشرع قدمنا السياسة وهم الملوك، أما النوع الثاني من أسباب فساد العالم وهم الأحرار، يقولون إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل، ويقول الرهبان كما سماهم ابن المبارك (وأحرار سوء ورهبانها) فالرهبان هم أصحاب الذوق يقولون إذا تعارض الذوق والكشف وظاهر الشرع قدمنا الذوق والكشف، الخ.. ذلك من طرق الصوفية التي يستعيضون بها عن الشرع نسأل الله العافية والسلامة من هذا الضلال.

ومن كلام أبي حامد الغزالي رحمه الله رحمة واسعة في كتابه الذي سماه إحياء علوم الدين، وهو من أجل كتبه أو أجلها، مع المخالفات التي وقعت فيه وهي عظيمة، ولا بد أن يتنبه لها، يقول أبو حامد: "فإن قلت فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم، أو هو مباح أو مندوب إليه؟ فاعلم أن للناس في هذا غلوا وإسرافا في أطراف، فمن قائل إنه بدعة وحرام، وإن العبد أن يلقي الله بكل ذنب سوى الشرك؛ خير له من أن يلقاه بالكلام، -يعني بعلم بالكلام- ومن قائل أنه فرض إما على الكفاية وإما على الأعيان، وأنه أفضل الأعمال وأعلى القربات، فإنه تحقيق لعلم التوحيد، ونضال عن دين الله، -قال أبو حامد- وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد وسفيان وجميع أئمة الحديث من السلف" -وساق ألفاظا عن هؤلاء- قال: "وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه، قالوا ما سكت عنه الصحابة -مع أنهم أعرف بالحقائق، وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم- إلا لما يتولد من الشر، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (هلك المتنطعون) الحديث عند مسلم، أي المتعمقون في البحث والاستقصاء، واحتجوا بأن ذلك لو كان من الدين لكان أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويعلم هذه الطريقة، ويثني على أربابها" ثم ذكر بقية استدلالهم أي أبو حامد، ثم ذكر استدلال الفريق الآخر.

إلى أن قال: "فإن قلت: فما المختار عندك، -ماذا ترجح؟ فأجاب بالتفصيل فقال- فيه منفعة وفيه مضرة،

فهو باعتبار منفعته في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب كما يقتضيه الحال.

وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام"، قال "فأما مضرته: فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم، وذلك مما يحصل في الابتداء، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، -يعني إذا بدأت علم الكلام يجعل عقيدته في مهب الريح ليست ثابتة لا يجزم بها ثم يحتاج إلى إعادتها على ما كانت عليه إلى الأدلة، فتحرك العقيدة وتخلخلها مضمون، وإعادتها مشكوك فيه، فيقول- ورجوعها بالدليل مشكوك فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره فاعتقاد الحق، وله ضرر في اعتقاد المبتدعة، وتثبيتها في صدورهم، بحيث تنبعث دواعيهم ويشتد حرصهم على الإصرار عليه، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل".

قال "وأما منفعته فقد يُظن أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخييط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف" قال: "وهذا إذا سمعته من محدث أو حشوي، ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا، فاسمع هذا ممن خبر الكلام".

وردت كلمة حشوي، هذا من الأخطاء التي ينتبه إليها في كتاب إحياء علوم الدين، ويقصدون بالحشوي: هم أهل السنة والجماعة، من الحشو وهو الزيادة، وهم يثبتون جميع الصفات، فهم يلقبونها بهذا اللقب، يقصدون بهم أهل السنة حشوية، فينتبه إلى هذا، محدث أو حشوي، والمحدث صاحب حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه مرتبة لا ينالها مثل الغزالي رحمه الله تعالى، ومع ذلك نبز المحدث، لكن الغزالي يشفع له رجوعه في آخر حياته، وإلا ينتبه لهذه الألفاظ، وإن كان يقول

الحق هنا

يقول: "وإذا سمعته من محدث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا ممن خبر الكلام" يعني هو نفسه، يعني أنه صار عارفا بعلم الكلام، "ثم قلاه -أي كرهه وأبغضه- ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين، -بعد أن عرفه قلاه وكرهه- وجاوز ذلك إلى التعمق في العلوم الأخرى تناسب علم الكلام، وتحقيق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود، ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، ولكن على الدور،" يعني شيء نادر يعني من أندر النادر أن يكون من علم الكلام كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور، انتهى ما نقله الشارح عن الغزالي رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له ما سطره من بعض المخالفات الشرعية والضلالات التي يخالفه عليها أهل السنة والجماعة.

وكلام رجل عالم مثل الغزالي في هذا حجة بالغة، ذم لعلم الكلام، وذم لمن يخوضون في أصول الدين وأصول العقيدة بعقولهم، نابذين النقل وراء ظهورهم، الكلام من الغزالي حجة بالغة، والسلف لم يكرهوا علم الكلام لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معاني صحيحة كالاصطلاح على ألفاظ لعلوم صحيحة، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحااجة لأهل الباطل، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، فالسلف ذموا لذلك وما فيه من مخالفة للكتاب والسنة، وما فيهما من علوم صحيحة، فقد وعروا الطريق إلى تحصيلها، صعبوها على الناس، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهي لحم جمل غث على رأس جبل وعري، لا سهل فيرتقى، ولا سمين فينتقل، وأحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً، وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد.

وكما يقال العلم قليل، لكن الكلام كثير، فكما ورد عن بعض السلف قالوا: تكاثرت علينا العلوم وأنواع العلوم، فقال لهم: العلم قليل، العلم قال ما كان فيه حدثنا، يعني قال الله قال الرسول صلى الله عليه وسلم هذا أصل علم الشريعة، لا يوجد مصدر آخر من مصادر التشريع غير قال الله وقال رسوله، لكن كثر العلم وما زال يكثر، قالوا: قال الحسن كثر العلم، قال: لم يكثر العلم لكن كثر الكلام فيه.

فعندنا العقيدة جأئتنا من النبي صلى الله عليه وسلم موثقة بقال الله وقال الرسول، بعد ذلك بقرنين أتاناً مثل ما احتاج الناس إلى من ينظم لهم العقيدة ويجعلها في متن، بعدها بقرون أتى من يشرح هذا، ومن ذلك التطويل -وإن كان فيه خير ومنفعة واحتاج إليه الناس- لكنه تطويل، وأصل العلم ليس بهذه الكثرة الموجودة الآن، وما زال هذا ينظم وهذا يشرح وهذا يخالف هذا، حتى كثر الكلام في العلم، لا أن العلم كثر، غاية ما عند المتكلمين الذين يقدمون العقل على النقل، أحسن ما عندهم فهو في القرآن أصح تقريراً وأحسن تفسيراً، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

لولا التنافس في الدنيا لما وُضعت*** كتب التناظر لا المغني ولا العمدة

يحللون بزعمهم عقداً*** وبالذي وضعوه زادت العقد

المغني في علم الكلام لشيخ المعتزلة القاضي عبد الجبار، والعمدة المختصر في أصول الفقه.

يقول يحللون بزعمهم عقداً وبالذي وضعوه زادت العقد، هم أرادوا أن يسهلوه فصعبوه، وإلا في الحقيقة أنه سهل، العقيدة ما جاء بالقرآن والسنة والله سبحانه وتعالى، يقول عن القرآن {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ} فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك، والمتأمل لحالهم يعلم أنهم بفعلهم هذا زادوا الشكوك وضللوا الناس وأغووهم، ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى والعلم واليقين من كتاب الله

وكلام رسوله؛ ثم يحصل من كلام هؤلاء المتحيرين، من الممتنع ومن المستحيل أن لا يحصل الشفاء بالقرآن وبالسنة والاهتداء بالقرآن والسنة؛ ثم يهتدى بكلام غيرهما، فالقرآن والسنة غنى عما سواهما، ثم تحصل الهداية من كلام هؤلاء المتحيرين، بل الواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه ويعقله، ويعرف برهانه ودليله إما العقلي وإما الخبري السمعي، ويعرف دلالة على هذا وعلى هذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، فيقال لأصحابها هذه الألفاظ تحتل كذا وكذا، فإن أرادوا بها ما يوافق خبر الرسول صلى الله عليه وسلم قبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه رد، ولعل هذا واضح.

فالقرآن والسنة أغنت في هداية كفار قريش إلى الإسلام، وأغنت العالم كله في القرن الأول والثاني، ثم لا تغنيهم بالقرون التي تليها؟! هذا محال وهذا باطل لا يقبل، والواجب أن يجعل ما قاله الله ورسوله هو الأصل ويتدبر معناه، وينظر فيه، ويعرف البرهان والدليل فيه العقلي والخبري والسمعي، ويعرف دلالة هذا وهذا ثم يجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، يعني الأصل قبول ما قال الله وقال الرسول، كل ما خالفه من أقوال الناس يرد، وكلام الله ورسوله من المحكم، وكلام غيره من قبيل المتشابه الذي يفسر بكلام الله ويطبق عليه ويقدم عليه، أو يكون من قبيل المجمل الذي يفصله كلام الله ورسوله، فيقال لأصحاب هذه الأقوال المخالفة لما جاء عن الله ورسوله ألفاظكم تحتل كذا وكذا فإن أرادوا بها ما يوافق به الرسول صلى الله عليه وسلم تقبل، وإن أرادوا بها ما يخالفه ترد، هذا مثل لفظ المركب، والجسم، والمتحيز، والجهة، والجوهر، والحيز، والعرض، ونحو ذلك من الألفاظ التي أوردها أهل الكلام، فإن هذه الألفاظ لم تأت في الكتاب ولا بالسنة، فإنهم يريدون أن ينزهوا الله، ويقولون الله سبحانه وتعالى ليس بجسم ولا بحيز ولا جوهر ولا جهة ولا عرض ولا كذا وكذا، فهم يريدون تنزيه الله عن ذلك، ننظر في هذه الألفاظ التي يريدون أن ينزهوا الله عز وجل بها، ننظر فيها، فإنها إن لم تأت بالكتاب ولا السنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح؛ بل ولا في اللغة، بل هم يختصون بالتعبير بها عن معاني لم يعبر غيرهم عنها بها، فتفسر تلك المعاني بعبارات أخرى، وينظر ما دل عليه القرآن والسنة من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق والباطل، يعني لو أتانا لفظ مثلاً قالوا الجسم، فهل يطلق على الله سبحانه وتعالى الجسم، هذه اللفظ ننظر هل وردت بالكتاب والسنة؟ فإن كانت وردت بالكتاب والسنة قبلناها، وإن لم ترد بالكتاب ولا السنة فإننا نستفصل عنها ونجعلها من الألفاظ المجملة، نستفصل عن معناها، ما تريدون بجسم؟ تقصدون بأن الجسم هو الذي يتصف بالصفات؟ فنقول فإن كنتم تريدون بها هذا المعنى الموافق لما جاء في القرآن والسنة نقبلها، وإن كنتم تريدون بالجسم اللحم والعظم والجلد فهذا لا ينطبق على الله سبحانه وتعالى، لذلك ينتبه لكل لفظ لم يرد في القرآن والسنة أنه يستفصل عنه، حتى يتبين الحق من الباطل

الحلقة (٢٩)

تحدثنا عن الألفاظ المجملة في كلام الناس، والتي يوردها المتكلمون في أثناء كلامهم على صفات الباري جل وعلا، أو في أصول الدين، فبينت أن الألفاظ المجملة يجب الاستفسار والتفصيل عنها، ويستفهم عنها حتى يتبين الحق من الباطل، والواجب أن يجعل ما قاله الله سبحانه وتعالى وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأصل، ويتدبر معناه، ويعقل ويعرف برهانه ودليله، إما العقلي وإما الخبري السمعي، وتعرف دلالة على هذا، ويجعل أقوال الناس التي توافقه وتخالفه متشابهة مجملة، من قبيل المتشابه والمجمل، فيقال لأصحابها هذه الألفاظ تحتل، وهي محتملة، فإن أردتم بها كذا، ما يوافق ما جاء عن خبر الرسول صلى الله عليه وسلم تقبل، وإن أردتم بها ما يخالف ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم ترد، وهذا مثل

لفظ المركب، والجسم، والمتحيز، والجهة، والجوهر، والحيز، والعرض، ونحو ذلك من هذه الألفاظ التي لم تأت في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يريده أهل هذا الاصطلاح، بل ولا في اللغة، بل هم يختصون بالتعبير بها عن معان لم يعبر غيرهم عنها بها، فهي من مصطلحات القوم، فتفسر تلك المعاني بعبارات أخرى، وينظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية، وإذا وقع الاستفسار والتفصيل تبين الحق من الباطل.

◈ مثال ذلك: التركيب وله معان:

○ أحدها: التركيب من متباينين فأكثر، ويسمى "تركيب مزج"، كتركيب الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحو ذلك، وهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى، ولا يلزم من وصف الله تعالى بالعلو ونحوه من صفات الكمال، أن يكون مركباً بهذا المذكور.

إذن التركيب على هذا المعنى منفي عن الله، نستفصل هذا الاستفسار وهذا الوجه من معاني التركيب منفي عن الله سبحانه وتعالى.

○ المعنى الثاني تركيب الجوار، كمصراعي الباب ونحو ذلك، ولا يلزم أيضاً من ثبوت صفاته تعالى إثبات هذا التركيب، إذن هذا المعنى من معاني التركيب منفي عن الله سبحانه وتعالى.

○ المعنى الثالث: التركيب من الأجزاء المتماثلة، وتسمى الجواهر المفردة، متماثلة مثلها مثل بعض.

○ المعنى الرابع: التركيب من الهولي والصورة، كالخاتم مثلاً هيولة الفضة، وصورته معروفة، حلقة صغيرة تلف الأصبع، أو تستدير حول الأصبع.

وأهل الكلام قالوا: إن الجسم يكون مركباً من الجواهر المفردة، ولهم كلام في ذلك يطول ولا فائدة فيه، وهو أنه هل يمكن التركيب من جزأين، أو من أربعة، أو من ستة، أو من ثمانية، أو من ستة عشر، وليس هذا التركيب لازماً لثبوت صفات الله تعالى وعلوه على خلقه،

◀ والحق أن الجسم غير مركب من هذه الأشياء، وإنما قولهم مجرد دعوى، وهي مبسوسة في مثل هذه الكتب التي تتكلم عن هذه المسائل.

○ المعنى الخامس: التركيب من الذات والصفات، وهذا سموه تركيباً يعني ليس في الحقيقة تركيب، بل سموه تركيباً لينفوا به صفات الرب تعالى، وهذا اصطلاح منهم لا يعرف في اللغة، ولا في استعمال الشارع، محدث، فلسنا نوافقهم على هذه التسمية ولا كرامة، ولو أن سموا إثبات الصفات تركيباً، فنقول لهم العبرة للمعاني لا لألفاظ، سموه ما شئتم، فلا يترتب على التسمية بدون المعنى حكم، فلو اصطلاح على تسمية اللبن خمرًا لم يحرم بهذه التسمية.

○ المعنى السادس: التركيب من الماهية وجودها، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران، أي مختلفان، الماهية ووجود الماهية.

أما في الخارج هل يمكن ذات مجردة عن وجودها، ووجودها مجرد عنها، هذا محال ومستحيل، فترى أهل الكلام يقولون هل ذات الرب وجوده أم غير وجوده؟ ولهم في ذلك خبط كثير، وأمثلهم طريقة وأحسنهم طريقة رأي الوقف والشك في ذلك، وكم زال بالاستفسار والتفصيل كثير من الأضاليل والأباطيل، فلا بد أن نستفسر ونستفصل حتى تزول هذه الأضاليل، وهذه البدع المنكرة.

سبب الانحراف هو الإعراض عن تدبر كلام الله عز وجل، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، والاشتغال بكلام اليونان، والآراء المختلفة، وإنما سمي هؤلاء أهل الكلام لأنهم لم يفيدوا علماً لم يكن معروفاً، وإنما أتوا بزيادة كلام قد لا يفيد، وهو

ما يضر بونه من القياس لإيضاح ما علم بالحس، وإن كان هذا القياس وأمثاله ينتفع به في موضع آخر ومع من ينكر الحس، وكل من قال برأيه أو ذوقه أو سياسته مع وجود النص أو عارض النص بالمعقول، فقد ضاهى إبليس لعنه الله، حيث لم يسلم لأمر به بل { قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ } ، ويقول الله سبحانه وتعالى وتعالى { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا } ويقول الله تعالى { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } ويقول الله تعالى { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبي صلى الله عليه وسلم، ويرضوا بحكمه، ويسلموا تسليماً.

ثم نأتي لقول المؤلف رحمه الله الطحاوي: (فيتذبذب - يقصد من يقع في هذه الضلالات ويترك كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم - بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً زائغاً، لا مؤمناً مصداقاً، ولا جاحداً مكذباً)، يتذبذب يضطرب ويتردد، وهذه الحالة التي وصفها الشيخ رحمه الله تعالى حال كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه (تهافت الفلاسفة): ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به؟ مع أنه لم يقل أحد من الناس في علوم الإلهية قولاً يعتد به.

ما فيه أحد في علم الكلام تكلم بأصول الإيمان اعتد بقوله، كل كلامهم هباء بل هو ضار، وكذلك الأمدي أفضل أهل زمانه، واقف في المسائل الكبار حائر، وكذا الغزالي الذي أوردنا كلامه قبل قليل، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، نسأل الله السلامة والعافية، ثم أعرض عن تلك الطرق، أراد الله به خيراً فختم له بهذه الخاتمة، أعرض عن تلك الطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحيح البخاري على صدره، وكذلك أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات يقول: هذا النظم الذي يدل على حيرة المتكلمين وضياعهم وشكهم وتحيرهم يقول:

نهاية إقدام العقول عقلاً** وغاية سعي العالمين ضلالاً
وأرواحنا في وحشة من جسومنا** وحاصل دنيانا أذى ووبالاً
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا** سوى أن جمعنا فيه قيل وقال
فكم قد رأينا من رجال ودولة** فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها** رجال فزالوا والجبال جبال

يقول الرازي: "لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات "الرحمن على العرش استوى" "إليه يصعد الكلم الطيب" وأقرأ في النفي "ليس كمثله شيء" "ولا يحيطون به علماً"، ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي" وهذا أورده الذهبي في سير أعلام النبلاء.

وكذلك قال الشيخ أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، صاحب الكتاب المشهور في الفرق والملل والنحل، يقول إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:
لعمرى لقد طفت المعاهد كلها** وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أرَ إلا واضعا الكف حائر** على ذقن أو قارعا سنّ نادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني رحمه الله: وهو متكلم ومع ذلك ينهى الناس عن ذلك، "يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ، ما اشتغلت به" وقال عند موته: "لقد خضت البحر الخضم، وخلت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أي، أو قال على عقيدة عجائز نيسابور" بلدته.

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي، قال لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يوما، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقد المسلمون، فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به أو كما قال؟ فقال: نعم، فقال: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله ما أدري ما أعتقد -نعوذ بالله من هذا الحال - والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، وبكى حتى أخضل لحيته".

ولابن الحديد الفاضل المشهور بالعراق نظم يقول:

فيك يا أغلوطة الفكر	حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول	فما رجحت إلا أذى السفر
فلح الله الأولى زعموا	أنك المعروف بالنظر
كذبوا إن الذي ذكروا	خارج عن قوة البشر

وقال الخولنجي عند موته: "ما عرفت مما حصلته شيئا، سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح" ثم قال: "الافتقار وصف سلبي، أموت وما عرفت شيئا" لكن لو قال الإنسان {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} : أثبت أن الرحمن سبحانه وتعالى على عرشه مستو، وقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فأثبت أن الله سبحانه وتعالى لا يشبهه ولا يماثله شيء، {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فأثبت أنه سميع وبصير فارتاح من هذا العناء والعذاب الذهني والعقلي، فإن من النشاطات العقلية والأعمال العقلية الفكرية ما هو أشد من الأعمال البدنية، فهو يقول هنا، وهذه تجربة مجرب يجب أن يستفاد منها يقول: "ما عرفت مما حصلت شيئا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح" ثم قال: "الافتقار وصف سلبي" لأن قال الممكن يفتقر إلى المرجح، ثم قال "الافتقار وصف سلبي أموت وما عرفت شيئا" هنا تظهر حيرته وشكه ونبذه لعلم الكلام، وتذمره من فعله طوال عمره.

وقال آخر أضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء، حتى يطلع الفجر ولم يترجح عندي منها شيء" نعوذ بالله من هذا الحال، من لم يوفق إلى الحق فلا يستطيع أن يصل إليه بنفسه. ومن يصل إلى هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته، وإلا يتزندق -نسأل الله العافية- كما قال أبو يوسف رحمه الله: "من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب".

وقال الشافعي رحمه الله: "حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام" وقال: "لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء، ما ظننت مسلما يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما خلا الشرك بالله، خير له من أن يبتلى بالكلام" وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك، التي كان يقطع بها، ثم تبين له فسادها، أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهايتهم إذا سلموا من العذاب بمنزلة أتباع العلم من الصبيان والنساء والأعراب، والدواء النافع لمثل هذا المرض ما كان طيبب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح صلاته: (اللَّهُمَّ رَبِّ

جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم)، والحديث خرج الإمام مسلم في صحيحه.

الحلقة (٣٠)

وتوسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه برؤية جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله هؤلاء الثلاثة بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ بالصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إلى الله سبحانه برؤية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المستعان.

قول الطحاوي رحمه الله "ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم، إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية، ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه".

فالشيخ رحمه الله يشير إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية، وعلى من يشبه الباري بشيء من مخلوقاته، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) الحديث.

فأدخل النبي (كاف) التشبيه على (ما) المصدرية الموصولة بـ (ترون)، التي تنحلّ إلى المصدر الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئي، وقد سبق الكلام على ذلك، وهذا بين واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح من النبي صلى الله عليه وسلم؟!

وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} وغير ذلك مما استعمل فيه (رأى)، التي هي من أفعال القلوب، ولا شك أن رأى تارة تكون بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم، وغير ذلك.

ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أحد معانيه من الباقي، وإلا لو أدخل المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعاني، لكان مجملاً ملغزاً لا مبيناً موضحاً، وأي بيان وقرينة فوق قوله صلى الله عليه وسلم (ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحب) فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو برؤية القلب؟ بل برؤية البصر، وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه!

فإن قال المعتزلة المنكرون لصفة الرؤية (رؤية الباري في الآخرة) ألجأنا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته محال لا يتصور إمكانها.

فالجواب: أن هذه دعوى منكم خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها، بل لو عرض موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته، لحكم بأن هذا محال، هم يستدلون ويحتجون بأن العقل يُحيل أن يرى الباري ولا يتصور أنه يرى.

وقول المؤلف رحمه الله "لمن اعتبرها منهم بوهم" أي توهم أن الله تعالى يُرى على صفة كذا، فيتوهم تشبيهها، ثم بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه، إن نفى أحد الرؤية من أصلها لأجل هذا التوهم فهو جاحد معطل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيهما رداً على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: "ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون

أنهم ينزهون الله بهذا النفي، وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال، فإن نفي الرؤية ليس من صفة كمال، إذ المعدوم لا يرى، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة، كما في العلم، فإن نفي العلم به ليس بكمال. فلا نقول لا نعلم الله، وإنما الكمال بإثبات العلم، ونفي الإحاطة به علما، فهو سبحانه وتعالى لا يحاط به رؤية، كما لا يحاط به علما، فنحن نعلم الله، وسيراه المؤمنون جزما في الآخرة، لكن هذه الرؤية تختلف عن الإحاطة، وقد تجتمع الرؤية والإحاطة، وقد لا تجتمع، كيف ذلك شرحناه سابقا، ومسألة الرؤية مثل مسألة العلم، فالناس يعلمون ربهم، ولكنهم لا يحيطون به علما، فهم كذلك في الآخرة، يرون ربهم ولكنهم لا يحيطون به.

وقول المؤلف: "أو تأولها بفهم" أي ادعى أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربي من معناها فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل، أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص.

وقالوا نحن نأول ما يخالف قولنا، فسموا التحريف تأويلا، تزيينا له وزخرفة، ليقبل، -في الحقيقة هو تحريف وليس تأويل- وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل بقوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا} والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق.

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ثم أكد هذا المعنى بقوله: "إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين".

والمراد هو ترك التأويل الذي يسمونه تأويلا وهو تحريف، لكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي أحسن، كما أمر الله تعالى بقوله {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة، وإنما مراد الطحاوي ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف الصالح، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم.

فمن التأويلات الفاسدة تأويل أدلة الرؤية، وتأويل صفة الكلام، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليما سبحانه، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، -كما كانت هذه الفتنة التي جاء بها الجعد، وقتله خالد بن عبد الله القسري الأموي-، ثم صار لفظ التأويل مستعملا في غير معناه الأصلي، والتأويل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن) وقال تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} فمنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} وقوله {وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} {ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} وقوله {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} وقوله {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما يتعلق بالأمر والنهي منه، أما ما يتعلق بما كان خبرا كالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر فهذا لا يعلم تأويله إلا الله.

الحلقة (٣١)

تحدثنا وقلنا أن التأويل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر هو نفس المأمور به، كما قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه (سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن) وقال تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ} فمنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} وقوله

{ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ } { ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } وقوله { سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } وقوله { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا } فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما يتعلق بالأمر والنهي منه؟!

أما ما كان خبراً، كالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر، فهذا لا يعلم تأويله إلا الله، لا يُعلم تأويله الذي هو حقيقته إذا كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه من قبل ذلك، لم يعرف حقيقته، لو أخبرتك عن الرمان وأنت لا تعرفه، فلن تستطيع تصوره، لأنك لم تعرفه من قبل.

لم يعرف حقيقته التي هي تأويله بمجرد الإخبار، وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله، ولكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطبُ إلهام المخاطب إياه.

فما في القرآن من آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يجب أن يُعلم ما عني بها، وإن كان من تأويله مالا يعلمه إلا الله، فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف، سواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر أو مخالفاً له.

والتأويل في كلام كثير من المفسرين كابن جرير ونحوه يريدون به: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، وهذا اصطلاح معروف، وهذا التأويل كالتفسير، يحمده حقه ويرد باطله.

وقوله تعالى { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } فيها قراءتان:

قراءة من يقف على قوله (إلا الله)، وقراءة من لا يقف عندها، وكلتا القراءتين حق، ويراد بالأولى المتشابه في نفسه، الذي استأثر الله بعلم تأويله، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي، الذي يعرف الراسخون تفسيره وهو تأويله، ولا يريد من وقف على قوله (إلا الله) أن يكون التأويل بمعنى التفسير للمعنى، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول، ويكون الراسخون في العلم لا حظ في معرفة معناها سوى قولهم { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }!!

وهذا القول يقوله غير الراسخ في العلم من المؤمنين، يقول { آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا }، والراسخون في العلم يجب امتيازهم عن عوام المؤمنين في ذلك، وقد قال ابن عباس: "أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله"، وهذا الأثر أخرجه ابن جرير، ولقد صدق ابن عباس رضي الله عنه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم دعا له وقال (اللَّهُمَّ فقه في الدين، وعلمه التأويل) رواه البخاري، ودعاؤه صلى الله عليه وسلم لا يرد، قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره، أفقه عند كل آية وأسأله عنها، وقد تواترت النقول عنه أنه تكلم في جميع معاني القرآن، ولم يقل عن آية إنها من المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله.

وقول الأصحاب رحمهم الله في الأصول (الأحناف) [إن المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور] ويروى هذا عن ابن عباس، مع أن هذه الحروف قد تكلم فيها أكثر الناس، فإن كان معناها معروفاً فقد عرف معنى المتشابه، وإن لم يكن معروفاً وهي المتشابه كان ما سواها معلوم المعنى، وهذا هو المطلوب.

وأيضاً فإن الله قال { مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ }، وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العاديين، والتأويل في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين هو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك، وهذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية، فالتأويل الصحيح منه أقصد هذا المعنى من التأويل صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك: هذا هو التأويل الذي يتنازع الناس فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية.

فالتأويل الصحيح منه، الذي يوافق ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد، وهذا

مبسوط في موضعه، وذكر النسفي في التبصرة أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمر بن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن محمد بن الحسن رحمهم الله "أنه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره إلى التشبيه، فقال: نمرها كما جاءت، ونؤمن بها، ولا نقول كيف وكيف".

ظاهر الآيات أصلا لا يؤدي ظاهره إلى التشبيه، ومن عرف اللغة العربية وتأمل القرآن علم أن ظاهر الآيات لا يؤدي إلى التشبيه، ومع ذلك قال محمد بن حسن عندما سئل عن هذا "نمرها كما جاءت، نؤمن بها ولا نقول كيف وكيف" ويجب أن يُعلم أن المعنى الفاسد الكفري ليس هو ظاهر النص، ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه، وإذا كان قد قيل في قول بعض الناس:

وكم من عائب قولاً صحيحاً *** وآفته من الفهم السقيم

وقيل:

علي نحت القوافي من أماكنها *** وما علي إن لم تفهم البقر

يعني من قوله وكم من عائب..... البيت، إن كثيرا من الناس يعيبون كثيرا من الأقوال، والحقيقة أن القول الذي عابوه هو الحق، بل عيبهم هو المعيب، دل على نقصهم في حكمهم وفي عقلهم، فيجب أن يعلم أن المعنى الفاسد الكفري، مثل: "أن ظاهر النصوص يفيد التشبيه" ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه، وأن من فهم ذلك فإنه لقصور في فهمه ونقص في علمه، فكيف يقال في قول الله عز وجل الذي هو أصدق كلام وأحسن الحديث وهو الكتاب الذي {أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ}؟! إن حقيقة قول المتأولين: "إن ظاهر القرآن والحديث هو الكفر والضلال وأنه ليس فيه بيان لما يصلح من الاعتقاد ولا فيه بيان التوحيد والتنزيه" هذا هو حقيقة قولهم عندما يتأولون.

والحق أن ما دل عليه القرآن فهو الحق، وما كان باطلا لم يدل عليه، والمنازعون يدعون دلالة على الباطل الذي يتعين صرفه، فيقال لهم هذا الباب الذي فتحتموه، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة، فقد فتحتم عليكم بابا لأنواع المشركين والمبتدعين، لا تقدرون على سده، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دلالة المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ تأويله؟

عندنا أهل البدع يأولون القرآن بحسب بدعهم، يأولونه تأويلا فاسدا، ويحرفونه عن موضعه، فيقولون {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} أن استوى بمعنى استولى، فتأولوه تأويلا فاسدا، ونقول لهم هذا الباب الذي فتحتموه وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون حيث يلجئون لهذا التأويل حتى ينزهوا الباري، فنقول لهم إنكم تنتصرون على أهل السنة الذين يخالفونكم ويقولون أن النصوص تبقى على مراد الله ومراد رسول الله، فإنكم وإن تنازلنا عنكم، فقد فتحتم عليكم بابا لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سده، فإنكم إن سوغتم صرف القرآن عن دلالة المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضابط فيما يسوغ تأويله وما لا يسوغ؟

فإن قلتم ما دل القاطع العقلي على استحالة تأويلناه، وإلا أقرناه، يقال لكم بأي عقل نزن؟ وإلى عقل من نحتكم؟ فإن القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشرع [الباطنية يزعمون أن الدين له ظاهر وباطن]، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد [الفلاسفة ينكرون حشر الأجساد]، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى (ينكر المعتزلة رؤية الله تعالى لأنها تخالف العقل ووو....) وباب التأويلات التي يدعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تحصر في هذا المقام.

◀ ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

١. أن لا نقر بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بجوئا طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل، وكل طائفة من المخالفين في الكتاب يدعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلى الحيرة وإلى الضياع، وإلى انفلات الأمر، هذا من باب التنزل والمجادلة.

٢. أن القلوب تنحل على الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن ذكرنا في الحلقة الأولى معنى العقيدة، وأن معناها تدور على الشد والعقد والربط، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد والتأويلات مضطربة، فيلزم عزل الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصة النبي صلى الله عليه وسلم هي الإنباء، -أي الإخبار- والقرآن هو النبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوص الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد، وأهل السنة يذكرونها للاعتماد عليها، أما أهل الكلام والبدع فإنهم يذكرون الأدلة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل عليه؛ وإن خالفته أولوه، وهذا فتح باب الزندقة والانحلال، نسأل الله العافية.

قول المؤلف رحمه الله "ومن لم يتوق النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه" النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، فإن أمراض القلوب نوعان:

١. مرض شبهة ٢. مرض شهوة.

وكلاهما مذكور في القرآن، قال تعالى { فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ } فهذا مرض الشهوة، وقال تعالى { فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا } وقال تعالى { وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ } فهذا مرض الشبهة، وهو أردأ من مرض الشهوة، إذ مرض الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة وزوال موجبها، ومرض الشبهة لا شفاء له إلا لم يتداركه الله برحمته.

فمثلا عند تقدم السن فإن الشهوات التي كانت فتنة للشباب ستزول وقت الكبر، لأنه زال موجبها، لذلك تُوعَد كبير السن إذا فعل معاصٍ بأكثَر مما يتوعد به الشباب كما جاء في الحديث، تغليظ العقوبة على الأشيمط الزاني لأنه تقدم به العمر فصار داعي الزنا عنده أقل من داعي الزنا عند الشباب، فمرض الشهوة يرجى له الشفاء أو زوال مسبب هذه الشهوة، ومرض الشبهة لا شفاء له إلا لم يتداركه الله برحمته.

لذلك يقول العلماء إن الشهوة وفتنة الشهوة ومرض الشهوة أخف وطأة وضررا على مرض الشبهة، فصاحب الشهوة إذا انقضت هذه الشهوة أو زال موجبها انتهت وانطفأت نارها، لكن الشبهة متى ستنطفئ ما دام يظن أنه على الحق وهو على الضلال؟؟ { أَقْمَنَ زَيْنٌ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ قَرَءَهُ حَسَنًا } وهذا في الحقيقة ما يقع في هذه الأيام من أصحاب التفجيرات من الإرهابيين، وهم من يطلق عليهم الفئة الضالة ومن يسلك مسلكهم من الخوارج، بل تعدوا هذا المصطلح إلى القرمطة، فهم يسرقون ويكذبون ويتزبون بزي النساء، ويفعلون أعمالا لم يفعلها الخوارج المبتدعة في زمانهم، والخوارج كانت عندهم مرض الشبهة، فخرجوا على الأئمة وعلى ولادة الأمور، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في وصفهم (إنهم قوم تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وقراءتكم عند قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) فهذه الشبهة لا يظن زوالها إلا أن يتدارك الله صاحبها برحمته، والشبهة في مسألة الصفات نتحدث عنها في الحلقة القادمة، والله أعلم.

الحلقة (٣٢)

وحديثنا موصول عن ما كنت أتكلم عنه في الحلقة الماضية قول المؤلف رحمه الله رحمة واسعة "ومن لم يتوق النفي والتشبيه

زل ولم يصب التنزيه" وقد بينت في الحلقة الماضية ما يقع في هذه الأيام من أصحاب التفجيرات من الإرهابيين، إذ وقعوا في أكثر بدع الخوارج بل تعدوا هذا المصطلح فأصبحوا كالقرامطة.

والشبهة التي في مسألة الصفات نفيها وتشبيهها، وشبهة النفي أردأ من شبهة التشبيه، فإن شبهة النفي رد وتكذيب لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وشبهة التشبيه غلو ومجاوزة للحد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وتشبيه الله بخلقه كفر، فإن الله تعالى يقول {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} ونفي الصفات كفر، فإن الله تعالى يقول {وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} وهذا أحد نوعي التشبيه، فإن التشبيه نوعان:

١. تشبيه الخالق بال مخلوق ٢. تشبيه المخلوق بالخالق.

تشبيه الخالق بالمخلوق وهذا الذي يتعب أهل الكلام في رده وإبطاله، وأهله في الناس أقل من النوع الثاني الذين هم أهل تشبيه المخلوق بالخالق، كعباد المسيح وعزير والشمس والقمر والأصنام والملائكة والنار والماء والعجل والقبور والجن، وغير ذلك مما يعبد من دون الله سبحانه وتعالى، وهؤلاء هم الذين أرسلت إليهم الرسل، يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ووقع التشبيه الأول أقل من وقوع الثاني.

قول المؤلف رحمه الله "فإن ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوجدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية" يشير الشيخ رحمه الله إلى أن تنزيه الرب تعالى هو وصفه كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً، وكلام الشيخ مأخوذ هنا من معنى صورة الإخلاص فقلوه "موصوف بصفات الوجدانية" مأخوذ من قول الله عز وجل {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وقوله "منعوت بنعوت الفردانية" مأخوذ من قول الله عز وجل {اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}،

وقوله "ليس في معناه أحد من البرية" من قوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}، وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفي التشبيه، والوصف والنعوت مترادفان، وقيل متقاربان، فالوصف: للذات، والنعوت: للفعل، وكذلك الوجدانية والفردانية، فقل في الفرق بينهما أن الوجدانية: للذات، والفردانية: للصفات، فهو تعالى متوحد بذاته متفرد بصفاته، وهذا المعنى حق ولم ينازع فيه أحد، ولكن في اللفظ نوع تكرير، وللشيخ رحمه الله نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة، وهو بالخطب والأدعية أشبه منه بالعقائد، والتسجيع بالخطب أليق، قول الله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} أكمل في التنزيه من قوله "ليس في معناه أحد من البرية"، كلام الله {وَمَنْ أَضَدُّقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً} لا يغلوه كلام ولن يأتي أحد بمثله أبداً.

قول المؤلف "وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات" للناس في إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثة أقوال:

١- النفي: طائفة تنفي هذه الألفاظ (الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات) وتقول: لا يجوز أن تطلق في حق الله تعالى وتستعمل في حق الله.

٢- الإثبات على الإطلاق.

٣- وطائفة تفصل، وهم أهل الحق فهم متبعون للسلف، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بُيّن ما أثبت بها فهو ثابت، وما نفي بها فهو منفي، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحاتهم، فيها إجمال، صار يستعملها أهل الكلام ولا يُدرى ما يريدون منها، لأن فيها إجمالاً وإبهاماً، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية، فليس كلهم يستعملها في معناها اللغوي، ولهذا كان النفاة ينفون بها حقاً وباطلاً، ويذكرون عن مثبتيتها ما لا يقولون به، وبعض المثبتين لها يدخل فيها معنى باطلاً مخالفاً لقول السلف، ولما دل عليه الكتاب والميزان، ولم يرد نص من الكتاب ولا من السنة بنفيها ولا إثبات هذه الألفاظ [الحدود

والغايات والأركان والأعضاء والأدوات] هذه لم يرد نص من الكتاب ولا من السنة، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه، ولا وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم نفياً ولا إثباتاً، وإنما نحن متبعون لا مبتدعون، فالواجب أن ينظر في هذا الباب، أعني باب الصفات، فما أثبتته الله ورسوله ثبتته، وما نفاه الله ورسوله نفيناه، والألفاظ التي ورد بها النص يعتصم بها في الإثبات والنفي، فنثبت ما أثبتته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وننفي ما نفته نصوصهما من الألفاظ والمعاني، أما الألفاظ التي لم يرد نفياً أو إثباتاً، وهذا القول الثالث، لا تطلق حتى ينظر في مقصود، قائلها فإن كان معنى صحيحاً قبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة مع قرائن تبين المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه، إن لم يخاطب بها أو نحو ذلك، يعني يكون من الفلاسفة أو ممن ينحى أو ممن يقدر هذه الألفاظ.

الشيخ رحمه الله أراد الرد بهذا الكلام على المشبهة كداود الجواربي وأمثاله القائلين إن الله جسم وأنه جثة وأعضاء وغير ذلك، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فالمعنى الذي أراده الشيخ الطحاوي رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق، ولكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقاً وباطلاً، فيحتاج إلى بيان ذلك، وهو أن السلف رحمهم الله متفقون على أن البشر لا يعلمون الله حداً، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته.

يقول أبو داود الطيالسي كان سفيان وشعبة وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وشريك وأبو عوانة لا يحدون ولا يشبهون ولا يمثلون، يروون الحديث ولا يقولون كيف، وإذا سئلوا قالوا بالأثر، يعني بما ورد بالآثار.

وسأتي قوله: "وقد أعجز عن الإحاطة خلقه" فعلم أن مراده أن الله يتعالى عن أن يحيط أحد بجمده، لا أن المعنى أنه غير متميز عن خلقه منفصل عنهم مباين لهم، - كما أدخل ذلك بعض من جاء بعد الشيخ رحمه الله - سئل الإمام عبد الله بن المبارك رحمه الله بما نعرف ربنا قال: "بأنه على العرش، بآن من خلقه، قيل بحد قال بحد" انتهى وقد أورد هذا الأثر البيهقي في الأسماء والصفات.

ومعلوم أن الحد يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، كما في الحدود بين الدول، فالحد يطلق على: ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره، والله تعالى غير حال في خلقه، ولا قائم بهم، بل هو القيوم القائم بنفسه، المقيم لما سواه، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً، فإنه ليس وراء نفيه وجود الرب ونفي حقيقته، هذا تحقيق معنى الحد الضابط له.

أما الحد بمعنى العلم والقول وهو أن يحده العباد، فهذا منتف بلا منازعة، لا يستطيعون أن يحدوه سبحانه.

قال أبو قاسم القشيري الأشعري في رسالته القشيرية: "سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي قال سمعت منصور ابن عبد الله يقول سمعت أبا الحسن العنبري قال سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول وقد سئل عن ذات الله فقال: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان من غير حد ولا إحاطة ولا حلول، وتراه العيون في العقبي - أي في الآخرة - ظاهراً في ملكه وقدرته، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته، ودلهم عليه بآياته، فالقلوب تعرفه، والعيون لا تدركه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

أما لفظ الأركان والأعضاء والأدوات فيتسلط بها النفاة على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية، كاليد والوجه، يقول أبو حنيفة رحمه الله في كتاب الفقه الأكبر "له يد ووجه ونفس - يقصد الباري جل وعلا - كما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يقال إن يده قدرته ونعمته لأن فيه إبطال الصفة" انتهى.

وهذا الذي قاله الإمام أبو حنيفة رحمه الله ثابت عنه بالأدلة القاطعة، يقول الله تعالى {وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ}، ويقول تعالى {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ}، ويقول تعالى {وَبَيَّنَّا وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}، ويقول تعالى {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، ويقول تعالى {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}، ويقول تعالى {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي} ويقول تعالى {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ}، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (لما يأتي الناس آدم فيقولون له خلقك الله بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء)، ولا يصح تأويل من قال إن المراد باليد القدرة، فإن قوله تعالى {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} لا يصح أن يكون معناه بقدرتي مع تثنية اليد، ولو صح ذلك لقال إبليس: وأنا أيضا خلقتني بقدرتك، فلا فضل لآدم علي بذلك، فإبليس مع كفره كان أعرف بربه من الجهمية.

- في بعض المرات شياطين الإنس يغلبون شياطين الجن، نسأل الله العافية والسلامة، فهم قد تفوقوا في ضلالهم على إبليس نسأل الله العافية والسلامة- ولا دليل لهم في قوله تعالى {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ} لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ليتناسب الجمعان اللفظيان للدلالة على الملك والعظمة، ولم يقل أيدي مضاف إلى ضمير المفرد، ولا يدينا بتثنية اليد مضافة إلى ضمير الجمع، فلم يكن في قوله {مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} نظير قوله {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل (حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) ولكن لا يقال لهذه الصفات أنها أعضاء أو جوارح أو أدوات أو أركان، لأن الركن جزء الماهية، والله تعالى هو الأحد الصمد لا يتجزء سبحانه وتعالى، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية -التقسيم إلى أعضاء- تعالى الله عن ذلك، ومن هذا المعنى قوله تعالى {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع، وكذلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ودفع المضرة، وكل هذه المعاني منتفية عن الله سبحانه وتعالى، ولهذا لم يرد ذكرها في صفات الله تعالى، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعاني سالمة من الاحتمالات الفاسدة، فلذلك يجب ألا يُعدل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً، لئلا يثبت معنى فاسد أو ينفي معنى صحيح، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحقق والمبطل.

الحلقة (٣٣)

◀ مسألة ما يراد بلفظ الجهة وما هو موجود وما هو معدوم؟

لفظ الجهة قد يراد به ما هو موجود، وقد يراد به ما هو معدوم، ومن المعلوم أنه لا يوجد إلا خالق أو مخلوق في هذا الوجود، فالخالق هو سبحانه وتعالى، وبقية المخلوقات هي المخلوقة، فإذا أريد بالجهة أمر موجود غير الله تعالى كان مخلوقاً، والله تعالى لا يحصره مخلوق، فالله سبحانه منزه عن ذلك لا يحصره شيء ولا يحيط به شيء من المخلوقات تعالى الله عن ذلك.

وإن أريد بالجهة أمر عديم وهو ما فوق العالم، فليس هناك إلا الله تعالى، فإذا قيل إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح، ومعناه أنه فوق العالم، حيث انتهت المخلوقات فهو فوق الجميع عال عليهم سبحانه وتعالى، ونفاة لفظ الجهة الذين يريدون بذلك نفي العلو، يقولون الله تعالى لا في جهة، يريدون بذلك نفي العلو كي لا يثبتون أن الله تعالى عال على خلقه، فالله تعالى عال على خلقه ويجب أن نثبت له صفة العلو الله سبحانه وتعالى.

يذكرون من أدلتهم "أن الجهات كلها مخلوقة، وأنه كان قبل الجهات -كيف يرتبون للدليل ويصفونه حتى يأتي على هوتهم!!- وأن من قال إنه في جهة يلزمه القول بقدوم شيء من العالم، أو أنه كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها"، وهذه الألفاظ لم يرد في الشرع لفظ الجهة، لذلك استعملها يجب أن يكون استعمالاً حذراً، فإنها إذا أطلقت فقد يراد بها حق وقد يراد بها

باطل، فهذه الألفاظ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات، سواء سمي جهة أو لم يسم، وهذا حق، لكن الجهة ليست أمراً وجودياً، بل أمر اعتباري، لفظ الجهة ليست أمر وجودي ليس شيء يمسك باليد إنما هي أمر اعتباري، يرد عليهم فيقال: لفظ الجهة يراد به شيء اعتباري، ليس شيء موجوداً نحمله ونضعه وهكذا، ولا شك أن الجهات لا نهاية لها، وما لا نهاية له فليس موجود، فهو أمر اعتباري.

قول الشيخ رحمه الله تعالى "لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات" هو حق باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته بل هو محيط بكل شيء وفوقه.

وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخ رحمه الله تعالى لما يأتي في كلامه "أن الله محيط بكل شيء وفوقه"، وكلامه الثاني يقيد الأول الذي يكون لأهل البدع مدخل فيه واستدلال، فإذا جمع كلاميه رحمه الله وهو قوله "لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات" وبين قوله "إنه محيط بكل شيء وفوقه" علم أن مراد الطحاوي رحمه الله أن الله لا يحويه شيء ولا يحيط به شيء، كما يكون لغيره من المخلوقات، وأنه تعالى هو المحيط بكل الشيء، العالي على كل شيء سبحانه وتعالى.

لكن بقي في كلامه شيان

أحدهما: أن إطلاق مثل هذا اللفظ مع ما فيه من الإجمال والاحتمال - كان في تركه أولى، لو تركه لعافانا منه ومن الاحتراز له - وإلا تُسلط عليه وألزم بالتناقض لإثبات الإحاطة والفوقية ونفي جهة العلو، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه إنما نفى أن يحويه شيء من مخلوقاته فالاعتصام بالألفاظ الشرعية أولى.

الأمر الثاني: أن قوله كسائر المبتدعات، يفهم من كلام الطحاوي أن ما من مبتدع إلا وهو محوي، وفي هذا نظر، فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي فممنوع، فإن العالم ليس في عالم آخر، وإن أراد أمراً عدمياً فليس كل مبتدع في العدم، بل منها ما هو داخل في غيره كالسموات والأرض، فالسموات والأرض داخل في الكرسي، ومنه ما هو منتهى المخلوقات كالعرش، فسطح العالم ليس فيه غيره من المخلوقات، فقوله كسائر المبتدعات فيه نظر، قطعاً للتسلسل كما تقدم.

ويمكن أن يجاب عن هذا الإشكال: بأن كلمة سائر بمعنى البقية، يعني لا بمعنى الجميع، وهذا أصل معناها، ومنها السؤر وهو ما يبقيه الشارب في الإناء، فيكون مراده غالب المخلوقات لا جميعها، إذ السائر على الغالب أدل منه على الجميع، فيكون المعنى أن الله تعالى غير محوي كما يكون أكثر المخلوقات محوياً، بل هو غير محوي بشيء تعالى الله عن ذلك.

الشيخ رحمه الله لا يظن به أنه ممن يقول إن الله ليس بداخل العالم ولا خارجه بنفي بالنقيضين، كما ظنه بعض الشارحين لمتن الطحاوية، بل مراده أن الله تعالى منزّه عن أن يحيط به شيء من مخلوقاته، أو أن يكون مفتقراً إلى شيء منها، العرش أو غيره.

وفي ثبوت هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر، فإن أضداده قد شنعوا عليه بأشياء أهون منه، فلوا سمعوا مثل هذا الكلام لشاع عنهم تشنيعهم عليه، وقد نقل أبو مطيع البلخي عنه إثبات العلو كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيه، ولم يرد بمثله كتاب ولا سنة، فلذلك يقال أن في ثبوت مثل هذا الكلام عن الإمام نظر، وإن الأولى التوقف في إطلاقه، فإن الكلام بمثله خطر، بخلاف الكلام بما ورد عن الشارع كالاستواء والنزول ونحو ذلك، فمن ظن من الجهال أنه إذا نزل الباري سبحانه إلى السماء كما أخبر الرسول أن (الباري تعالى ينزل في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا، فيقول هل من داع فأستجيب له؟ هل من سال فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟) سبحانه وتعالى، فهل يكون العرش فوقه؟ أو أن يكون محصوراً بين طبقتين من العالم؟ فهذا القول مخالف لإجماع السلف ومخالف للكتاب

والسنة، من ظن من الجهال أن الله سبحانه إذا نزل إلى السماء الدنيا في الثلث من الليل كما أخبر الصادق المصدوق: بأن العرش يكون خالياً منه، أو أن العرش سيكون فوقه، أو أنه يكون محصوراً بين طبقتين من العالم، فقله مخالف لإجماع السلف، مخالف للكتاب والسنة، كيف ذلك؟ قد يستشكل استشكل وهو معاصر أي في العصر الحاضر، يستشكله بعض الطلاب ألا وهو أنهم يقولون: إن الليل في هذه البلد يختلف عنه في بلد آخر، كأن يكون عندنا في السعودية الثلث الأخير من الليل الساعة الثالثة أو نحوه، يختلف عنه في اليابان، أو عنه في أوروبا وأمريكا، ويقولون كيف يكون نزل الباري جل وعلا والوقت مختلف؟

نقول كلمة كيف ممنوعة في حق الله وتعالى، والله سبحانه له نزول لا كنزول المخلوقين، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، بل له نزول يليق بجلاله، فلا يجوز أن نقيس نزول الباري جل وعلا بنقيسه بنزول المخلوق الضعيف، فالله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير يتنزل في الثلث الأخير من الليل، والكيف ممنوع كما قال الإمام مالك بن أنس: الكيف مجهول.

إذا دخلت في صفات الله بكيف ستضل، ليس في مسألة النزول فقط، ولا في مسألة الاستواء فقط، بل في كل صفات الله تعالى، إذا تدخلت بكيف فإنك ستلحد في أسماء الله وصفاته، فالله سبحانه منعنا من الكيف، وحجب عنا هذا الكيف، بل لا نستطيع أن ندرك هذا الكيف عن الله سبحانه، فطلب موسى عليه السلام من أولي العزم كليم الله طلب من الباري جل وعلا أن يراه، وقال له الباري لن تراني، ولكن الباري تجل للجبل، وليس الجبل بأكرم على الله من موسى، ومع ذلك فقوى البشر لا يستطيع هذا الأمر، لأن الله في ذلك حكمة وابتلاء وامتحان، فكل صفات الباري عز وجل لا ندخل فيها بكيف، لأن الكيف هنا ممنوع، ولا يجوز في حق الله سبحانه وتعالى.

يقول الشارح "ومن ظن من الجهال أنه ظن إذا نزل إلى السماء الدنيا كما أخبر الصادق المصدوق، يكون العرش فوقه ويكون محصوراً بين طبقتيه" العرش أعظم المخلوقات، ومع ذلك لا نعلم كيفية العرش وصفته؛ وإن وردت بعض الصفات في هذا الحديث، لكن هو خلق من مخلوقات الله لا نعرفه، جبريل عليه السلام عندما أتى النبي رآه مرتين فقط، وكيفية الملك لا يستطيع الناس تحمل هذه الكيفية والتعامل معها، لذلك كان يأتي جبريل بصورة رجل لا يعرفه أحد، ومرة بصورة دحية الكلبي، فرؤية الباري جل وعلا ثابتة في الكتاب والسنة في الآخرة وليست ثابتة في الدنيا.

يقول شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن محمد بن عبد الرحمن الصابوني رحمه الله قال سمعت الأستاذ أبا منصور بن حمشاذ بعد روايته حديث النزول يقول: سئل أبو حنيفة فقال: ينزل بلا كيف، أبو حنيفة يثبت النزول ويمتنع عن الكيفية، فالاستواء والنزول والعلو معلوم، والكيف مجهول، وإنما توقف من توقف في نفي ذلك لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة وأقوال السلف، ولذلك ينكر بعضهم أن يكون فوق العرش، بل يقول لا مابين ولا محاييد، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بالعدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش، ويقول بعضهم بجلوله في كل موجود، أو يقول هو وجود كل موجود ونحو ذلك، تعالى الله عما يقول الجاحدون والظالمون علو كبيراً.

الحلقة (٣٤)

والحديث في هذه الحلقة سيكون متما لما كان في الحلقات الأولى، وهو التفصيل فيما مر علينا من بعض المسائل، ولعل من أولى المسائل التي هي أولى بالتفصيل هي كلمة التوحيد لا إله إلا الله ثم أنواع التوحيد، فكلمة التوحيد، هي أساس الدين وحصنه الحصين وطريقه القويم، وصراطه المستقيم، وهذه الكلمة المكنة العظمى في الدين، فهي أول ركن من أركان الإسلام

وأعلى شعبة من شعب الإيمان، وهي أول واجب على المكلف، وآخر واجب عليه: (من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا الله دخل الجنة)، وقبول الأعمال متوقف على النطق بها والعمل بمقتضاها، فما معناها؟

فمعناها الحق الذي لا ينبغي العدول عنه، الحقيقي لا إله إلا الله أي: لا معبود حق إلا الله، ولا يجوز لنا أن نقول إن معناها، لا خالق إلا الله، أو لا قادر على الاختراع إلا الله، فهذه المعاني ليست حقيقة معنى لا إله إلا الله، لعدة أمور:

الأول: أن كلمة إله عند العرب **فَعَال بمعنى مفعول** غراس بمعنى مغروس، وإله على وزن فعال بمعنى مفعول أي مألوه، والتأله في لغة العرب معناه: التنسك والتعبد، فمألوه معناه معبود ومنه قول رؤبة:

لله درب الغايات المدهي *** سبحن واسترجعن من تأله

وقد سمت العرب الشمس لما عبدوها آلهة.

الثاني: أن كفار قريش والمشركين في الجاهلية لا ينكرون أنه لا خالق إلا الله، أو لا قادر إلا الله، يقول الله تعالى {وَلَيْئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} فالكفار يقرون بهذا المعنى، وأشعار العرب مليئة بالإقرار بهذا الأمر، أي توحيد الربوبية، إذا قلنا لا خالق إلا الله كأنا فسرنا لا إله إلا الله فقط بتوحيد الربوبية وتركنا بقية أنواع التوحيد، يقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم *** ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر *** ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وكذلك حاتم الطائي الكريم، في الجاهلية كان يقول:

أما والذي لا يعلم السر غيره *** ويحيي العظام البيض وهي رميم

إذن أثبت لله الإعادة والإحياء وهو كافر جاهل.

الثالث: أن كفار قريش لما قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: قولوا لا إله إلا الله، قالوا وأخبر الله عنهم {أَجْعَلِ آلِهَةً إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ} فما الذي فهمه كفار قريش عندما أمرهم النبي أن يقولوا لا إله إلا الله؟ هل فهموا من أن لا إله إلا الله أن معناها لا خالق إلا الله؟ كلا الجواب لا، لأنهم لا ينكرون ذلك، وإنما أنكروا أن تكون العبادة كلها لله وحده.

إذن فمعنى لا إله إلا الله: لا معبود حق إلا الله، وتقدر كلمة حق، لأن المعبودات كثيرة، والمعبود الحق هو الله قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ}.

هذه الكلمة لها أركان:

الأول: ركن النفي: في قوله (لا إله)

الثاني: الإثبات: في قوله (إلا الله)

فعندنا ركنان، نفي وإثبات، ف"لا إله" نفت الألوهية عن كل ما سوى الله، و"إلا الله" أثبتت الألوهية لله وحده لا شريك له، وهذا الأسلوب يعرف عند العرب بأسلوب **القصر**، فهو أسلوب عربي معروف، وجملة القصر الواحدة بقوة جملتين، إحداها مثبتة والأخرى منفية، وهذا الأسلوب من أقوى الأساليب التي يأتي بها لتمكين الكلام وتقديره في الذهن، لدفع ما فيه من إنكار أو شك، وطريق القصر من كلمة التوحيد: النفي والاستثناء، و"لا إله إلا الله" في قوة قوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا}

◀ هل يكفي النطق بلا إله إلا الله؟ كما مر قبل قليل أن الشهادة معناها لا معبود حق إلا الله، فلا يعبد إلا الله، ولا يصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله، فمن قال هذه الكلمة عالماً بمعناها، وعاملاً بمقتضاها من نفي الشرك وإثبات الوحدانية،

مع الاعتقاد الجازم لما تضمنته والعمل به، فهو المسلم حقا، ومن عمل بها من غير اعتقاد فهو المنافق، ومن عمل بخلافها من الشرك فهو المشرك الكافر وإن قالها بلسانه.

ذكر العلماء لكلمة الإخلاص شروطا سبعة، لا تصح إلا إذا اجتمعت هذه الشروط، واستكملها العبد والتزمها بدون مناقضة لشيء منها، وليس المراد من ذلك عد ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها ولو قيل له عددها لم يحسن ذلك، وكم حافظا لألفاظها يجري فيها كالسهم وتراه يقع كثيرا فيما يناقضها، هذه الشروط مأخوذة بالتتابع والاستقراء، وقد نظمها الشيخ حافظ حكيمي بقوله:

العلم واليقين والقبول*** والانقياد فادر ما أقول
والصدق والإخلاص والمحبة*** وفقك الله لما أحبه

ونظمها بعضهم بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع*** محبة وانقياد والقبول لها
وأضاف بعضهم شرطاً ثامناً ونظمه بقوله:

وزيد ثامنها الكفران منك بما*** سوى الإله من الأوثان قد أُلها

وهذا الشرط من قوله صلى الله عليه وسلم (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه) هذه هي الشروط السبعة مع زيادة الشرط الثامن.

وتفصيل هذه الشروط

الشرط الأول: العلم والمراد به العلم بمعناها نفياً وإثباتاً، وما تستلزمه من عمل، فإذا علم العبد أن الله عز وجل هو المعبود وحده وأن عبادة غيره باطلة، وعمل بمقتضى ذلك، فهو عالم بمعناها، وضد العلم الجهل بحيث لا يعلم وجوب أفراد الله بالعبادة، كأن يرى جواز عبادة غير الله مع الله، لقوله تعالى {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} ويقول تعالى {إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} أي من شهد بلا إله إلا الله وهم يعلمون بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم، ويقول تعالى {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} ويقول تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} ويقول تعالى {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} ويقول تعالى {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ}، وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه أنه قال، قال الرسول (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة).

الشرط الثاني: اليقين وهو أن ينطق بالشهادة عن يقين ويطمئن إليه قلبه، دون تسرب شيء من الشكوك التي يبذرها شياطين الجن والإنس، بل يقولها موقناً بمجموعها يقيناً جازماً، فلا بد لمن أتى بها أن يوقن بقلبه، ويعتقد صحة ما يقوله من أحقية إلهية الله تعالى، وبطلان إلهية من سواه، وأنه لا يجوز أن يصرف لغيره شيء من أنواع التأله والتعبد، فإن شك في شهادته أو توقف في بطلان عبادة غير الله، كأن يقول: أجزم بألوهية الله لكني متردد ببطلان إلهية غيره، بطلت شهادته، ولم ينفعه قول لا إله إلا الله، والسبب تطرق الشك فزال اليقين.

يقول الله تعالى مثنيا على المؤمنين {وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} ومدحهم أيضاً بقوله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} وذم المنافقين بقوله: {وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَتَرَدَّدُونَ}، وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني

رسول الله، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة) وعنه أن النبي قال (من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة) بشرى من الرسول صلى الله عليه وسلم بشرط الإيقان، يشهد الشهادة مستيقنا به قلبه لا شاكاً.

الشرط الثالث: القبول: والقبول يعني أن يقبل كل ما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، فيصدق بالأخبار، ويطيع الأوامر، ويؤمن بكل ما جاء عن الله، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، ويقبل ذلك كله، ولا يرد منه شيئاً، ولا يجني على النصوص بالتأويل الفاسد، والتحريف الذي نهى الله عنه، بل يصدق الخبر، ويمثل الأمر، ويقبل كل ما جاءت به هذه الكلمة واقتضته، بكل رضا وطمأنينة وانسراح صدر، يقول تعالى واصفا المؤمنين {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} يقول الباري عز وجل: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} وضد هذا الشرط: الرفض والرد، فإن هناك من يعلم بمعنى الشهادة ويوقن بمدلولها ولكنه يردّها كبرا وحسداً، وهذا حال علماء اليهود والنصارى كما قال تعالى عنهم {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} ويقول تعالى: {حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ}، وكذلك المشركون يعرفون معنى لا إله إلا الله، وصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لكنهم يستكبرون عن قبول الحق، كما قال تعالى {إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ} ويقول تعالى: {فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون} وكذلك كان شأن فرعون لعنه الله مع موسى عليه السلام.

ويدخل في الرد وعدم القبول من يعترض على بعض الأحكام الشرعية أو الحدود، كالذين يعترضون على حد الزنا والسرقة والمواريث، فهذا داخل في الرد وعدم القبول، لأن الله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} ويقول تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} ويدخل أيضا في الرد المناقض للمنافي للقبول: من يعطل من أسماء الله صفات، أو يمثلها بصفات المخلوقين.

الشرط الرابع: الانقياد وذلك بأن ينقاد لما دلت عليه كلمة الإخلاص، ولعل الفرق بين الانقياد والقبول أن القبول إظهار صحة معنى ذلك بالقول، وأما الانقياد فهو الإتيان بالأفعال، ويلزم منهما جميعا الإتيان، فالانقياد هو: الاستسلام والإذعان وعدم التعقب لشيء من أحكام الله سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى: {وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ} ويقول تعالى {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} ويقول تعالى: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى} وقال تعالى مثنيا على إبراهيم {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمِ قَالَ أَسْلَمْتُ} انقياد، ومن الانقياد أن ينقاد العبد لما جاء به النبي برضا وعمل دون تعقب أو زيادة أو نقصان، يقول تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، وإذا علم أحد معنى لا إله إلا الله وأيقن بها وقبلها، ولكنه لم ينقد لها ويعمل بمقتضاها، فإن ذلك لا ينفعه، كما هو حال أبي طالب، كما يقول مدافعا عن الرسول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم*** حتى أوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك لا عليك غضاضة*** وافرح وقر بذات منك عيونا

ولقد علمت بأن دين محمد*** من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة*** لوجدتني سمحا بذلك مبيناً

◀ فما الذي نقص أبا طالب؟ الذي نقصه الانقياد لله تعالى، وكذلك الحال لبعض المستشرقين المعجبين بالإسلام ويعرفون

أنه الحق، لكنهم لم ينقادوا وهذا لا يفيدهم، وتجذب بعض المسلمين يعجبون بهم ويسمونهم بالموضوعية، ولكن إعجاب هؤلاء المستشرقين لا يكفي بل لابد من الانقياد، ومن عدم الانقياد عدم التحاكم إلى شريعة الله، واستبدالها بأحكام وضعية فرنسية كانت أو انجليزية أو غيرها، عوضاً عن أحكام الله تعالى، هذا من عدم الانقياد الذي هو شرط من شروط لا إله إلا الله.

الحلقة (٣٥)

الشرط الخامس: الصدق وهو الصدق مع الله، وذلك بأن يكون العبد صادقاً في إيمانه وفي عقيدته، فمتى كان ذلك فإنه سيكون مصدقاً لما جاء في كتاب الله وسنة نبيه، فالصدق أساس الأقوال، ومن الصدق أن يصدق في دعوته، وأن يبذل الجهد في طاعة ربه وحفظ حدوده يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} وقال في وصف الصحابة رضي الله عنهم: {رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} ويقول تعالى: {وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ} وقد ورد اشتراط الصدق في الحديث الصحيح، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من قال لا إله إلا الله صادقاً من قلبه دخل الجنة) كما روى ذلك الإمام أحمد.

و ضد الصدق الكذب، فإذا كان العبد كاذباً في إيمانه فإنه لا يعد مؤمناً، ويعد منافقاً، وإن نطق بالشهادة بلسانه، وحاله هذه أشد من حال الكافر الذي يظهر كفره، فإن قال الشهادة بلسانه وأنكر مدلولها بقلبه فإنها لا تنجيه، ويدخل في عداد المنافقين الذين قال الله عنهم أنهم قالوا {نُشْهِدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} فرد الله عليهم تلك الدعوى بقوله {وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ}، وقال تعالى في شأن هؤلاء {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} يقول تعالى {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} والأدلة في ذلك كثيرة، وهي مبسطة في أوائل سورة البقرة وفي سورة التوبة وغيرها من السور.

إذا قامت أعمال الإنسان واعتقاداته على عقيدة قوية سليمة كان إيمانه قوياً سليماً، وبالتالي يكون عمله مقبولاً بإذن الله، والعكس بالعكس، ثم إن الناس يتفاوتون في الصدق تفاوتاً عظيماً.

ومما ينافي الصدق بالشهادة تكذيب ما جاء به الرسول أو تكذيب بعضه، لأن الله أمرنا بطاعة الرسول وقرن ذلك بطاعته عز وجل، قال تعالى {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} وقد يلتبس على بعض الناس الأمر في موضوع اليقين والصدق، شرط اليقين وشرط الصدق، لذا يقال أن اليقين أعم من التصديق، وعلى ذلك يكون كل موقن مصدقاً، وليس كل مصدق موقناً، أي بينهما عموم وخصوص، كما يقول أهل الأصول، أي أن الموقن قد مر بمرحلة التصديق ثم انتقل إلى الإيقان.

الشرط السادس: الإخلاص وهو تصفية الإنسان عمله بصلاح النية من جميع شوائب الشرك، وذلك بأن تصدر منه جميع الأقوال والأفعال خالصة لله عز وجل وابتغاء مرضاته، ليس فيها شائبة رياء أو سمعة أو قصد نفع أو غرض شخصي أو شهوة ظاهرة أو خفية مما يتعبد به لله تعالى، أو يندفع للعمل لمحبة شخص أو مذهب أو مبدأ أو حزب يستسلم له بغير هدى من الله، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) لا تقبل منه هذه الهجرة، كما حدث من مهاجر أم قيس، هاجر إلى امرأة كي يتزوجها، لا إلى الله ورسوله، فكانت هجرته إلى ما هاجر إليه، والإخلاص كذلك مهم في الدعوة إلى الله وفي جميع الأعمال، فلا يجعل الإنسان عمله من أعمال القربى وسيلة لجمع المال أو الوصول إلى السلطان ويهدم بذلك عمله، بل يكون بذلك مبتغياً لوجه الله تعالى، ولا يلتفت بقلبه لأحد من الخلق يريد منه جزاء أو شكورا.

والقرآن والسنة حافلان بذكر الإخلاص والحث عليه والتحذير من ضده، من ذلك قوله تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} وقوله: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، وقوله تعالى {قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي}. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه) وفي الصحيحين من حديث عتبان (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

ويدخل في ذلك الإخلاص في إتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك بالاعتصام على سنته وتحكيمه، وترك البدع والمخالفات ونبذ ما يخالف شرعه من التحاكم إلى ما وضعه البشر من عادات أو قوانين، فإن رضيها أو حكم بها لم يكن من المخلصين.

و ضد الإخلاص الشرك والرياء وابتغاء غير وجه الله، فإن فقد العبد أصل الإخلاص فإن الشهادة لا تنفعه أبداً، يقول الله تعالى {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا} فلا ينفعه حينئذ أي عمل يعمل له لأنه فقد الأصل، والله سبحانه يقول {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا}.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال الله تبارك وتعالى (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه) حديث رواه مسلم، وإن فقد الإخلاص في عمل من الأعمال ذهب أجر ذلك العمل، وبالجملة فالإخلاص هو تصفية العمل من كل شوب بحيث لا يمازجه ما يشوبه من شوائب الشرك شيء، أو إرادات النفس إما طلب التزين في قلوب الخلق وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم أو طلب أموالهم أو طلب محبتهم أو خدمتهم إلى غير ذلك من الشوائب التي عقد متفرقها إرادة ماسوى الله بالعمل، أو إذن مدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أولاً امتثال أمر الله، ولا حرج بعد هذا على من يطمح إلى شيء آخر بعد ذلك كال فوز بنعيم الآخرة أو النجاة من عذاب أليم، أو ما يتبع ذلك من لوازم لا تدخل قلب صاحبها، بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله أن يخطر في بال العبد أن للعمل الصالح آثاراً في هذه الحياة، كطمأنينة النفس وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهوان، إلى غير هذا من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد به إقبال النفوس على الطاعات قوة على قوة.

الشرط السابع: المحبة أي المحبة لهذه الكلمة، "لا إله إلا الله" ولما دلت عليه واقتضته، فيحب الله ورسوله، ويقدم محبتهم على كل محبة، ويقوم بشروط المحبة ولوازمها، فيحب الله محبة مقرونة بالإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء، ويجب ما يحبه الله من الممكنة، كمكة والمدينة والمساجد عموماً، والأزمنة كرمضان وعشر ذي الحجة وغيرها، وما يحبه من الأشخاص كالرسل والملائكة والصديقين والصالحين، وما يحبه من الأفعال كالصلاة والزكاة والذكر، ومن المحبة أيضاً تقديم محبوبات الله على محبوبات النفس وشهواتها، وذلك لأن النار حفت بالشهوات والجنة حفت بالمكاره، ومن لوازم تلك المحبة أن يكره ما يكرهه الله ورسوله، فيكره الكفار ويبغضهم ويعاديهم، ويكره الكفر والفسوق والعصيان.

يقول تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ} ويقول الباري جل وعلا {لَا تَحِذُ قَوْمًا يُّؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ} ويقول تعالى {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) الحديث رواه

البخاري.

وعلاوة هذه المحبة الانقياد لشرع الله وإتباع النبي صلى الله عليه وسلم، يقول تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ}.

و ضد المحبة الكراهية لهذه الكلمة ولما دلت عليه وما اقتضته، أو محبة غير الله مع الله يقول تعالى {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ} ويقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ} فهؤلاء الذين بين الله شأنهم في هذه الآية يحبون الله، ولكنهم يحبون معه غيره مثل محبته على أحد التفسيرين، ومع ذلك سماهم الله ظالمين بدليل قوله تعالى في الآية التالية: {وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ}، فإذا كان هذا هو شأن من أحب الله وأحب معه غير مثل حبه؟! فكيف بمن أحب غير الله أكثر من حب الله؟! أو لم يحب الله؟! وكيف بمن يحب غير الله وكره الله وحاربه تعالى الله عن هذا؟

ومما ينافي المحبة بغض الرسول أو بغض ما جاء به الرسول أو بغض بعض ما جاء به الرسول وكذلك مما ينافي المحبة موالاة أعداء الله من اليهود والنصارى وسائر الكفار، ومما ينافي المحبة معادة أولياء الله المؤمنين، ومما ينافي كمالها المعاصي والذنوب عموماً.

❖ توحيد الربوبية ❖

فهذا مبحث من مباحث العقيدة، وذلك لأنه متعلق بأصل الأصول و بأوجب الواجبات وهو الإيمان بالله عز وجل، فمما يتضمنه الإيمان بالله: الإيمان بربوبيته وتفرد بالخلق والرزق والتدبير.

ومما يدل على أهميته ما يثمره من الثمرات العظيمة؛ فالعلم به والإيمان بمقتضاه يثمر إجلال الرب وتعظيمه ورجاءه ومحبته، إلى غير ذلك، فلا ينبغي التقليل من شأنه ولا ترك الحديث عنه، كما لا ينبغي أن يجعل توحيد الربوبية هو الغاية من التوحيد، كما هو شأن أهل الكلام، بل إن الغاية من التوحيد هو توحيد الألوهية.

تعريف توحيد الربوبية: هو الإقرار الجازم بأن الله وحده رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق للعالم المحيى المميت الرزاق ذو القوة المتين، لم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الذل، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له، ولا مماثل، ولا سمي، ولا منازع له بشيء من معاني ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته.

وكما ذكرنا في المرة الماضية: هو توحيد الله بأفعاله.

هذا النوع من التوحيد كما مر معنا أن له أسماء:

فمن أسمائه توحيد الربوبية وهو الأشهر، وأيضاً من أسمائه التوحيد العلمي، والتوحيد الخبري، وتوحيد المعرفة والإثبات، ويدخل معه توحيد الأسماء والصفات، والتوحيد الاعتقادي.

كلمة الربوبية نسبة إلى الرب، وكلمة الرب في اللغة تطلق على عدة معاني قال ابن منظور: الرب يطلق في اللغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيّم والمنعم، وقال: ولا يطلق غير مضاف إلا على الله، وقد جاء في الشعر مطلقاً على غير الله، وليس بالكثير ولم يذكر في غير الشعر.

قال: ورب كل شيء مالكة ومستحقه وقيل: صاحبه ويقال: فلان رب هذا الشيء أي: ملكه له، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال رب الدابة ورب الدار وفلان رب البيت.

أما الرب من حيث أنه اسم من أسماء الله معناه: من له الخلق والأمر والملك يقول الله تعالى {أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ}

ويقول تعالى {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَهُ الْمُلْكُ} يقول ابن المنذر في اللسان "الرب هو الله عز وجل، هو رب كل شيء أي: مالكة وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو رب الأرباب ومالك الملوك والأملاك" هذا ما يتعلق بكلمة الرب وتوحيد الربوبية.

الحلقة (٣٦)

تكلمت في الحلقة الماضية عن معنى الرب وعن أسماء هذا التوحيد، وأتكلم في هذه الحلقة عن أدلة توحيد الربوبية وما يتيسر بعدها من المفردات:

❖ أدلة توحيد الربوبية

أدلة توحيد الربوبية كثيرة ومتنوعة تدل على تفرد الله بالربوبية على خلقه أجمعين، فقد جعل الله لخلقه أموراً لوتأملوها حق التأمل وتفكروا بها لدلتهم إلى أن هناك خالقاً مدبراً لهذا الكون، والقرآن مليء بذكر الأدلة على ربوبيته عز وجل، فمن ذلك قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} وقوله تعالى {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} وقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}. ومن الدلالات على ربوبية الله سبحانه وتعالى على خلقه دلالة الفطرة، ذلك أن الله سبحانه وتعالى فطر خلقه على الإقرار بربوبيته، وأنه الخالق الرازق المدبر المحيي المميت، فالإيمان بالربوبية أمر جبلي مركوز في فطرة كل إنسان ولا يستطيع أحد دفعه ولا رفعه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولما كان الإقرار بالصانع فطرياً كما قال صلى الله عليه وسلم (كل مولود يولد على الفطرة) الحديث، فإن الفطرة تتضمن الإقرار بالله والإجابة إليه وهو معنى لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي يعرف ويعبد". انتهى كلامه رحمه الله من مجموع الفتاوى.

ولهذا فإن المشركين في الجاهلية كانوا مقرين بتوحيد الربوبية مع شركهم في توحيد الألوهية، ومما يدل على ذلك ما هو موجود ومثبت في ثنايا أشعارهم ومن ذلك قول عنترة بن شداد العبسي:

يا عبلُ أين من المنية مهربي *** إن كان ربي في السماء قضاها

ويقول زهير بن أبي سلمى:

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم *** ليخفي ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر ويوضع في كتاب فيدخر *** ليوم الحساب أو يعجل فينقم

ولقد بين الله سبحانه وتعالى ذلك في القرآن الكريم كما في قوله تعالى {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}.

أيضاً من الأدلة على ربوبية الله سبحانه وتعالى دلالة الأنفس، فالنفس آية كبيرة من آيات الله الدالة على ربوبيته، ولو أمعن الإنسان النظر في نفسه وما فيها من العجائب لعلم أن وراء ذلك ربا حكيماً خالقاً قديراً، يقول الباري {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} ويقول الباري جل وعلا: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا}.

أيضا من الدلالات على ربوبية الله دلالة الآفاق، كما قال سبحانه وتعالى: {سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} فلو تأمل الإنسان الآفاق وما أودع الله فيها من الغرائب والعجائب؛ لأدرك أن هناك خالقاً لهذه الأكوان وأنه عليم حكيم.

لم ينكر توحيد الربوبية أحد من البشر، إلا طائفة ممن شذوا من المكابرين والمعاندين المنكرين لما هو متقرر في فطرهم أو في أنفسهم، فإنكارهم إنما كان بالسنتهم مع اعترافهم بذلك في قرارة أنفسهم.

ومن أشهر من عرف بذلك فرعون الذي قال لقومه كما أخبر الله عنه قال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي}، وكلامه هذا مجرد دعوى ولم يقم عليها بينة ولا دليل، بل كان هو نفسه غير مؤمن بما يقول، قال سبحانه وتعالى على لسان موسى عليه السلام {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} وأخبر عز وجل وهو العليم بذات الصدور أن كلام فرعون ودعواه لم يكن عن عقيدة ويقين، وإنما هو مكابرة وعناد، يقول الله تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}.

ومن أنكر ذلك أيضا الشيوعيون بقولهم لا إله، والدين أفيون الشعوب، والحياة مادة، فقد أنكروا ربوبية الله تعالى بأن أنكروا وجوده بناء على عقيدتهم الخبيثة، وهم في الحقيقة لم يزدوا على أن سمو الله بغير اسمه بحيث أنه الطبيعة، حيث قال أن الحياة مادة، ونعتوها بنعوت الكمال التي لا تليق بأحد إلا لله عز وجل، فقالوا الطبيعة حكيمة، الطبيعة تخلق، إلى غير ذلك، وكلامهم هذا باطل متهافت، بل إن أصحاب هذا المبدأ انشقوا على أنفسهم ولعن بعضهم بعضاً، وكفر بعضهم ببعض.

أنواع ربوبية الله سبحانه وتعالى على خلقه على نوعين: ربوبية عامة وربوبية خاصة.

النوع الأول: الربوبية العامة وهي لجميع الناس، برهم وفاجرهم، ومؤمنهم وكافرهم، وهي خلقه للمخلوقين ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

النوع الثاني: الربوبية الخاصة وهي تربيته لأوليائه المؤمنين، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة.

توحيد الربوبية هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من التوحيد، فهو حق وأمره عظيم، ولا يصح إيمان العبد إذا لم يؤمن به، ولكن هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية التي جاءت بها الرسل وأنزلت من أجلها الكتب، وليس الغاية التي من جاء بها فقد جاء بالتوحيد كاملاً وكمل توحيد، ذلك أن الله أمر بعبادته التي هي كمال النفوس وصلاحتها وغايتها، ولم يقتصر على مجرد الإقرار به كما هو غاية الطريقة الكلامية، أضف إلى ذلك أن المشركين كانوا مقرين به كما مر، ومع ذلك لم يدخلهم في الإسلام، لأن الإقرار بتوحيد الربوبية لا يكفي وحده بل لا بد من توحيد الألوهية، ثم إن توحيد الربوبية مركوز في الفطر كلها، فلو كان هو الغاية لما كان هناك حاجة من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

هذا التوحيد له فوائد عظيمة وله آثار وثمرات كثيرة، فإذا أيقن المؤمن أن له رباً خالقاً هو الله سبحانه وتعالى، وهذا الرب هو رب كل شيء ومليكه ومصرف الأمور، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض؛ أنست روحه بالله واطمأنت نفسه بذكره، ولم تنزل الفتنة والأعاصير، واتجه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والالتجاء والاستعانة، وكان دائماً خائفاً من تقصيره وذنبه، لأنه يعلم قدرة ربه عليه ووقوعه تحت قهره وسلطانه، فتحصل له بذلك

التقوى، والتقوى رأس الأمر بل هي غاية الوجود الإنساني، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا).

ومن ثمراته أن الإنسان إذا علم أن الله هو الرازق وآمن بذلك، وأيقن أن الله بيده خزائن السموات والأرض لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، قطع الطمع من المخلوقين، واستغنى عما بأيديهم، وانبعث إلى إفراء الله بالدعاء، والإرادة والقصد، ثم إذا علم أن الله هو المحي المميت النافع الضار، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أمره كله بيد الله، انبعث إلى الإقدام والشجاعة غير هَيَّاب، وتحرر من رق المخلوقين ولم يعد في قلبه خوف من سوى الله عز وجل، وهكذا نجد أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، والكلام في مقتضيات الربوبية وما تثمره من ثمرات يفوق الحصر والعد وهذه بعض الإشارات.

«ما ضد توحيد الربوبية؟»

يضاد توحيد الربوبية الإلحاد، والإلحاد هو: إنكار وجود الرب عز وجل، ويزاده أيضا اعتقاد الند المتصرف مع الله عز وجل في أي شيء من تدبير الكون من إيجاد أو إعدام، أو إحياء أو إماتة، أو جلب خير أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب أو كالعظمة والكبرياء ونحو ذلك، كما ويزاده أيضا اعتقاد مشرع مع الله عز وجل لأنه الرب وحده، وربوبيته شاملة لأمره الكوني والشرعي.

وهناك فِرَق أشركت في توحيد الربوبية، وليس أُلحَدَت، أي أنها جعلت مع الله رباً غيره، ومن هؤلاء

■ المجوس الأصلية، المجوس قالوا بالأصلين: النور والظلمة، وقالوا إن النور أزلي، والظلمة محدثة، فيقولون إن النور هو الله، والظلمة محدثة، فهم جعلوا الظلمة مع الله سبحانه وتعالى في الربوبية.

■ الثانوية من المجوس أصحاب الاثنين الأزليين، يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، لكن قالوا باختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخبر والمكان والأجناس والأبدان والأرواح، ولم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال، ويقال بتساويهما في القدم، فهم جعلوا إله النور والظلمة، فالمجوس والثانوية كلهم حتى القائلين بالأصلين وأنهما قديمان أيضا وقعوا في الإشراك في الربوبية.

■ المانوية أصحاب ماني بن فاثك الحكيم قالوا إن العالم مصنوع من أصليين قديمين، لكن قالوا باختلافهما في النفس والصورة والفعل والتدبير.

■ النصارى القائلين بالتثليث فالنصارى لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون على أنه صانع واحد يقولون باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون واحد بالذات وثلاثة بالأقلام أو بالخواص أو بالصفات، فهم لم يستطيعوا أن يفسروا ثلاثة بالأقلام، والأقلام هذه عجزوا عن تفسيرها، قالوا قولاً ولم يستطيعوا تفسيره، فقد سماهم الله الضالين كما في سورة الفاتحة، وأمرنا أن نستعيز من طريقهم ومنهجهم والمسلك الذي سلكوه، فلو اجتمع عشرة من النصارى على أن يخرجوا بقول واحد لخرجوا بأحد عشر قولاً.

وقولهم هذا في الربوبية متناقض أيما تناقض، وتصوره كاف في رده، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى "ولهذا قالت طائفة من العقلاء إن عامة مقالات الناس يمكن تصورها إلا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل وجمعوا في كلامهم بين النقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لفرقوا عن أحد عشر قولاً، وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولاً وامرأته قولاً آخر وابنه قولاً ثالثاً" انتهى

كلامه.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده عليهم: "أما خير ما عندكم أنتم فلا نعلم أمة أشد اختلافا في معبودها منكم -النصارى- فلو سألت رجلا وامرأته وابنته وأمه وأباه عن دينهم، لأجابك كل منهم بغير جواب الآخر" أورد ذلك في هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى.

بل قيل فيهم لو توجهت إلى أي نصراني على وجه الأرض، وطلبت منه أن يصور لك حقيقة دينه وما يعتقد في طبيعة المسيح عليه السلام تصويرا دقيقا، لما استطاع ذلك، ومعلوم انحراف النصارى، ومحاولة اليهود قتل عيسى عليه السلام، ونزول الشبه على غيره، وقتلهم لمن أشبه عيسى عليه السلام، فظنوا أنهم قتلوه وأنهم صلبوه، وهم ما قتلوه ولا صلبوه ولكن شبه لهم، وهذه العقيدة التي استمرت معهم وظنهم أن عيسى عليه السلام مقتولا وتكذيب الله سبحانه وتعالى لهم في كتابه الكريم.

وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه "ظهر الحق" ما عندهم من التناقض وكذلك بعض المؤلفين في النصرانية وبينوا زيف ذلك وكذبهم، وأنا أقول: من أراد أن يعرف نعمة الله عليه، ونعمة الإسلام التي هو فيها، فليحاور نصرانيا، فبضدها تتبين أو تتميز الأشياء، وبضده يعرف الضد، إذن إذا أردت أن تعرف ما أنت عليه من الحق وأن تقدر ما أنت عليه من الحق وتلمس هذه النعمة العظيمة التي وهبها لك الله تعالى نعمة التوحيد ونعمة السنة، فحاور نصرانيا، فإنك بذلك ستعرف النعمة التي أنت عليها وسيزيد إيمانك.

■ الخامس: من الفرق التي أشركت في توحيد الربوبية هم القدرية فهم في الحقيقة مشركون في الربوبية، وهذا لازم لمذهبهم، لأنهم يرون أن الإنسان خالق لفعله، فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خلق فعله، والله سبحانه وتعالى اختص بذلك بقوله: (والله خلقكم وما تعملون)، وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه عز وجل فالله خلق الصانع وصنعتة.

■ السادس: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية الفلاسفة الدّهريّة في قولهم في حركة الأفلاك بأنها تسعة، وأن التاسع منها هو الأطلس يحرك الأفلاك كلها فجعلوه مبدأ الحوادث وزعموا أن الله يحدث ما يقدره في الأرض.

■ السابع: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية بعض عبدة الأصنام من مشركي العرب وغيرهم ممن كانوا يعتقدون أن الأصنام تضر وتنفع، فيتقربون إليها وينذرون لها ويتبركون بها.

■ الثامن: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية غلاة الصوفية لغلوهم في الأولياء وزعمهم أنهم يضرون وينفعون، ويتصرفون في الأكوان، ويعلمون الغيب، ولقولهم بوحدة الوجود وربوبية كل شيء.

■ التاسع: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية الروافض لقولهم أن الدنيا والآخرة للإمام يتصرف بها كيف يشاء، وأن تراب الحسين شفاء من كل داء، وأمان من كل خوف، ولقولهم أن أئمتهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون ولا يموتون إلا بإذنهم، وهذا باطل وبطلانه لا يحتاج إلى دليل، بل إن فساده يغني عن إفساده فهو ظاهر الفساد.

■ العاشر: ممن وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية النصيرية لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه متصرف في الكون، ووصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله عز وجل، مع اختلاف أقوالهم في هذا، فبعضهم يقول إنه يسكن في الشمس ويسمون بالشمسية، وبعضهم يقول إنه يسكن في القمر ويسمون بالقمرية، وبعضهم يقول يسكن في السحاب، ولذا إذا رأوا السحاب قالوا السلام عليك يا أمير النحل.

■ الدروز وقع منهم الشرك في توحيد الربوبية، لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيدي وغلوهم فيه، ووصفه بأوصاف لا

تليق إلا بالله وحده، كقولهم عنه إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، هؤلاء وقع منهم الشرك في الربوبية، هذا ما لدي من كلام عن توحيد الربوبية.

الحلقة (٣٧)

في هذه الحلقة نتحدث عن:

❖ توحيد الألوهية ❖

وغير خاف على من عنده أدنى إلمام بعلم العقيدة ما لتوحيد الألوهية من الأهمية فهو توحيد العبادة والعبادة هي الغاية المرضية والمحبوكة لله عز وجل وهي الغاية العظمى والمقصود الأسمى، فلأجلها خلقت الجنة والنار، وقام سوق الجهاد بين المؤمنين والكافرين، ولأجلها أنزلت الكتب وأرسلت الرسل (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، ثم إن توحيد الألوهية دعوة جميع الأنبياء والمرسلين ومن اقتفى أثرهم من العلماء والدعاة والمصلحين.

فتعريف توحيد الألوهية: عرفه العلماء بتعريفات متقاربة إلا أن بعضها قد يكون أطول من بعض فمن تلك التعريفات: أفراد الله بأفعال العباد، وإفراد الله بالعبادة، وإفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا من كان.

وعرفه ابن سعدي رحمه الله عليه تعريف جامع، جمع فيه حد هذا التعريف وتفسيره وأركانه فقال: "فأما حده وتفسيره وأركانه فهو أن: يعلم ويعترف على وجه العلم واليقين أن الله هو المألوه وحده، المعبود على الحقيقة، وأن صفات الألوهية ومعانيها ليست موجودة بأحد من المخلوقين ولا يستحقها إلا الله، فإذا عرف ذلك واعترف به حقاً أفرد بالعبادة كلها الظاهرة والباطنة، فيقوم بشرائع الإسلام الظاهرة كالصلاة والزكاة، والصوم والحج والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين وصلة الأرحام، والقيام بحقوق الله وحقوق خلقه، ويقوم بأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ولا يقصد به غرضاً من الأغراض غير رضا ربه، وطلب ثوابه، متابعا في ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعقيدته ما دل عليه الكتاب والسنة، وأعماله وأفعاله ما شرعه الله ورسوله، وأخلاقه وآدابه الاقتداء بنبية صلى الله عليه وسلم في هديه وسمته وكل أحواله" انتهى كلام الشيخ.

ويقول الشيخ حافظ حكيم رحمه الله عن هذا النوع في منظومته سلم الوصول:

هذا وثاني نوعي التوحيد*** أفراد رب العرش عن نديد

أن تعبد الله إله واحدا*** معترفا بحقه لا جاحداً

هذا النوع من التوحيد له أسماء، فيسمى توحيد الألوهية وسمي بذلك باعتبار إضافته إلى الله عز وجل أو باعتبار الموحّد، والموحّد هو الله عز وجل، ولأنه مبني على إخلاص التّأله، وهو أشد المحبة لله وحده وذلك يستلزم إخلاص العبادة، ويسمى توحيد العبادة باعتبار إضافته إلى الموحّد وهو العبد، ولتضمنه إخلاص العبادة لله وحده.

الاسم الثالث توحيد الإرادة لتضمنه الإخلاص وتوحيد الإرادة والمراد، فهو مبني على إرادة وجه الله تعالى بالأعمال.

الاسم الرابع توحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده.

الاسم الخامس التوحيد الطلبي لتضمنه الطلب والدعاء من العبد لله عز وجل.

الاسم السادس التوحيد الفعلي لتضمنه لأفعال القلوب والجوارح.

الاسم السابع توحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده.

■ وأهمية هذا التوحيد: فهو أهم أنواع التوحيد فمن أجل تحقيقه أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وفرق بين المؤمنين والكافرين، يقول الشيخ حافظ حكيم عن أهمية هذا النوع من التوحيد في منظومته:

وهو الذي به الإله أرسلنا *** رسله يدعون إليه أو لا
وأنزل الكتاب والتبيان له *** من أجله وفرق الفرقان
وكلف الله الرسول المجتبي *** قتال من عنه تولى وأبى
حتى يكون الدين خالصا له *** سرا وجهرا دقه وجله
وهكذا أمته قد كلفوا بذا *** وفي نص الكتاب وصفوا

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مبينا أهمية توحيد العبادة: "وذلك أن العبادة لله وحده هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}.

إلى أن قال وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى: {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} وذم المستكبرين عنها بقوله: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ}، ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال سبحانه وتعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} وقال سبحانه: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا}.

وقال رحمه الله عليه في موطن آخر: (واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئا ليس له نذير فيقاس عليه، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله، فلا تطمئن بالدنيا إلا بذكره، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل يتنقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بها في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم ولا ملتذ له، بل قد يؤديه اتصاله به ووجوده عنده فيضره ذلك. وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وفي كل وقت وأينما كان فهو معه، ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: {لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ} وكانت أعظم آية في كتاب الله {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}.

وقال رحمه الله: "فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا الله سبحانه، ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التلذذ بأكل الطعام المسموم". وقال: "واعلم أن كل من أحب شيئا غير الله فلا بد أن يضره محبوبه ويكون ذلك سببا لعذابه"، وقال: "فمن أحب شيئا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار بالاستقراء، وكل من أحب شيئا دون الله لغير الله فإن مضرت أكثر من نفعه، فصارت المخلوقات وبالا عليه، إلا ما كان لله وفي الله، فإنه كمال وجهال للعبد، وهذا معنى ما يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه).

وقال الشيخ ابن سعدي رحمه الله مبينا أهمية هذا النوع من التوحيد: "وهذا الأصل أعظم الأصول على الإطلاق وأكملها

وأفضلها وأوجبها وألزمها لصلاح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقدته يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينه وبين المشركين" انتهى كلامه.

ومما يدل على أهميته: أن قبول الأعمال متوقف عليه، وأنه يتضمن جميع أنواع التوحيد فكلها تدخل فيه، فمن اعتقده فهو معتقد لغيره من توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، ومن اكتفى بغيره دونه لم يدخل في دين الإسلام.

هذا النوع من التوحيد له أدلته، فقد تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة وتنوعت دلالاتها في وجوب إفراد الله بالعبادة، فتارة تأتي نصوص الكتاب أمرة بتوحيد الله أمراً مباشراً، وتارة تأتي مبينة الغاية من خلق الجن والإنس، وتارة تأتي موضحة الهدف من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وتارة تأتي محذرة من مخالفته، وتارة تأتي لبيان ثواب من عمل به في الدنيا والآخرة، وتارة لبيان عقوبة من تركه وتخلي عنه أو ناوأه وحارب أهله.

فمن تلك الأدلة من الكتاب: على وجوب إفراد الله بالعبادة قوله تعالى {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} وقوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} وقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ} وقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} وقوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} وقوله تعالى: {وَقَضَىٰ رَبِّيَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ} وقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وقوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا} وقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ} وقوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}.

ومن السنة: ما رواه الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: (كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار فقال لي (يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟) قلت الله ورسوله أعلم قال: (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً). قلت أفلا أبشر الناس، قال (لا تبشرهم فيتكلوا).

أما ما يتعلق بأركان هذا التوحيد فإنه يقوم على أركان ثلاثة ومنها: الإخلاص والصدق وتوحيد الطريق، وهذا تقسيم للشيخ ابن سعدي رحمه الله،

الركن الأول: توحيد الإخلاص يسمى توحيد المراد فلا يكون للعبد مراد إلا مراد واحد وهو الله سبحانه وتعالى فلا يزاحمه مراد آخر.

الثاني: توحيد الصدق ويسمى توحيد إرادة العبد وذلك بأن يبذل جهده وطاقته في عبادة ربه.

الركن الثالث: توحيد الطريق، وهو المتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن القيم: في الواحد كن واحداً في واحد*** أعني سبيل الحق والإيمان

فقوله في الواحد: أي في الله وهو توحيد المراد، وقوله كن واحداً في عزمك وصدقك وإرادتك وهذا هو توحيد الإرادة، وقوله في واحد هو متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي هو طريق الحق والإيمان فهو توحيد الطريق.

والأدلة على هذه الأركان كثيرة، فمن أدلة الإخلاص قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}.

ودليل الصدق قوله تعالى: {قُلُوا صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ}، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ}. ودليل المتابعة قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}.

فمن اجتمعت له هذه الثلاثة نال كل كمال وسعادة وفلاح، ولا ينقص كمال العبد إلا بنقص واحد من هذه الأشياء.

☐ توحيد الألوهية هو : توحيد العبادة

وتعريف العبادة في اللغة : هي التذلل والخضوع، فيقال طريق معبد أو بعير معبد أي مذل ذلته الأقدام، ومنه قول طرفة

بن العبد في معلقته المشهورة يصف ناقته:

تباري عتاقاً ناجيات واتبعت *** وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ معبد

ف قوله فوق مورٍ معبد: أي فوق طريق معبد مذل من كثرة السير عليه، فالمور هو الطريق.

تعريف العبادة في الاصطلاح

عرفت بعدة تعريفات منها: عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بأنها: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال

والأفعال الباطنة والظاهرة.

وعرفها ابن القيم رحمه الله: بأنها كمال المحبة مع كمال الذل، يقول في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه *** مع ذل عابده هما قطبان

وعرفها الشيخ ابن سعدي رحمه الله بعدة تعريفات منها قوله: العبادة روحها وحقيقتها تحقيق الحب والخضوع لله، فالحب

التام والخضوع الكامل لله هو حقيقة العبادة، فمتى خلت العبادة من هذين الأمرين أو أحدهما فليست عبادة، فإن حقيقتها

الذل والانكسار لله، ولا يكون ذلك إلا مع محبته، والمحبة التامة التي تتبعها المحاب كلها.

وعرفها بتعريف ثان فقال: العبادة والعبودية لله اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال

الجوارح، فكل ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة، ولهذا كان تارك المعصية لله متعبد متقرب إلى ربه بذلك.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن العبادة تطلق إطلاقين: الفعل الذي هو التعبد والمفعول الذي هو المتعبد به أو القرية، مثال ذلك

الصلاة فعلها عبادة وهو التعبد، وهي نفسها عبادة، وهي المتعبد به، فعلى الإطلاق الثاني تعرف العبادة بتعريف شيخ

الإسلام، وعلى الإطلاق الأول تعرف بالتعريف الثاني والثالث.

أما التعريف الرابع الأعمال الصالحة الإرادية التي تؤدي لله تعالى، ويفرد بها، وهذا يشمل الإطلاقين أيضاً.

◀ الفرق بين العبادة وتوحيد العبادة

الفرق بينهما ظاهر فالعبادة هي ذات القرية أو فعلها، وأما توحيدها فصرفها لله وحده لا شريك له.

◀ متى تقبل العبادة؟ لا تقبل العبادة إلا إذا توفرت فيها شرطان مهمان:

■ الشرط الأول: الإخلاص لله.

■ والشرط الثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول شيخ الإسلام: "وجماع الدين أصلان، ألا نعبد إلا الله ولا نعبد إلا بما شرع، ولا نعبد بالبدع، كم قال تعالى: {قَمَنْ

كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} وذلك تحقيق الشهادتين، شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة

أن محمداً رسول الله، ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية أن محمداً هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع

أمره، فمن أراد عبادة الله فلا بد له من توفر الشرطين، ولسان حاله يقول "إياك أريد بما تريد" يعني لله سبحانه وتعالى".

قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} قال "أخلصه وأصوبه" قالوا يا أبا علي: ما أخلصه

وأصوبه؟ قال "إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون

خالصا صوابا" والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، فإذا فقد الشرطان أو أحدهما بطلت العبادة.

الحلقة (٣٨)

فالحديث موصول عما كنت أتحديث عنه، متى تقبل العبادة، أو شروط قبول العمل، وذكرت أن للعمل شرطان مهمان إذا توفرا فإنه يقبل، وإذا تخلف أحدهما فإن العمل لا يقبل، ألا وهما الإخلاص لله والمتابعة لرسوله صلى الله عليه وسلم.

◀ فما أهمية هذان الشرطان ؟

مما يدل على أهمية الإخلاص والمتابعة الذين هما شرطي قبول العبادة، أن الله أمر بإخلاص العبادة له يقول الله تعالى: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}، وأن الله اختص نفسه بالتشريع فهو حقه وحده ومن تعبد الله بغير ما شرع فقد شارك الله عز وجل في تشريعه، يقول جل وعلا: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} ويقول تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ} الله سبحانه وتعالى أنكر على من يشرع من عند نفسه يقول تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} والله سبحانه وتعالى أكمل لنا الدين ورضيه لنا يقول الباري جل وعلا: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} فالابتداع في الدين إنما هو في الحقيقة استدراك على الله وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، واتهام للدين بالنقص، ثم إنه لو جاز للناس أن يتعبدوا الله بما شاءوا كيفما شاءوا لأصبح لكل إنسان طريقته الخاصة بالعبادة، ولأصبحت حياة الناس جحيما لا يطاق، إذ يسود التنافر والتنافر لاختلاف الأذواق مما يؤدي إلى الشقاق والافتراق.

و اتباع الشرع وترك الابتداع أعظم سبب للالتلاف والاجتماع، ثم إنه لو جاز للناس أن يعبدوا الله بما شاءوا كيفما شاءوا لترتب على ذلك عدم حاجة الناس إلى الرسل ولا يقول بهذا عاقل.

■ العبادة لها أركان وركنا العبادة:

الحب والتعظيم وجعلها بعض أهل العلم أربعة أركان: ١/ الحب ٢/ والتعظيم ٣/ والخوف ٤/ والرجاء، ولا تعارض بين الأمرين، فإن الرجاء ينشأ من الحب فلا يرجو الإنسان إلا من يحب، وكذلك الخوف ينشأ من التعظيم فلا يخاف الإنسان إلا من عظيم، وقد أثنى الله على أهل الخوف والرجاء من النبيين والمرسلين فقال: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} ومدح القائمين بها من سائر عباده فقال: {أَمْ مَنْ هُوَ قَانِثُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} ويقول الله: {يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} ويقول سبحانه: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}.

كما أمر عز وجل باستحضار ذلك وقصده فقال: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} هذه عبادة الأنبياء والمرسلين، وعباد الله المؤمنين، فمن ذا الذي هو أحسن منهم وأكمل من هديهم، وهل تقبل دعواه؟

الجواب: لا، فالخوف والرجاء متلازمان فكلاهما بريد الفوز بالجنة والنجاة من النار، فلو سألت من لا يزني من المؤمنين مثلا مع قدرته عليه: لم لا تزني؟ لبادر بقوله إني أخاف الله وأرجو ثوابه، ولو سألت المصلي: لم تصلي؟ لقال خوفا من الله وطمعا في ثوابه، وهكذا، فغير الله قد يحب لكن لا يخاف منه، وقد يخاف منه ولكن لا يحب، أما الله عز وجل فيجتمع الأمران في حقه فيخاف ويحب، فلا بد للمؤمن إذن من الجمع بين الحب والخوف والرجاء والتعظيم.

أما العبادة بالحب وحده فلا تكفي، وليست صحيحة، لأنها لا تتضمن تعظيما لله، ولا خشية منه، إذ أن صاحبها يجعل الله سبحانه وتعالى بمنزلة الوالد والصديق، فلا يتورع من اقتراف المحرمات بل يستهين بها بحجة أن الحبيب لا يعذب حبيبه،

كما قالت اليهود والنصارى: {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} وكما يقول غلاة الصوفية نحن نعبد الله لا خوفا من عقابه ولا طمعا في ثوابه، إنما نعبد الله حبا له، كما عبر بذلك كثير منهم، فرابعة العدوية تقول:

أحبك حبين حب الهوى*** وحب لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى*** فشغلي بذكرك عمن سواك

وأما الذي أنت أهل له*** فكشفك لي الحجب حتى أراك

وكما قال ابن العربي:

أدين بدين الحب أنا توجهت*** ركائبه فالحب ديني وإيماني

وهذه الطريقة لها آثار وخيمة منها الأمن من مكر الله، وغايته الخروج من الملة، فالذي يتمادى في التفريط والخطايا ويرجو رحمة الله بلا عمل، يقع في الغرور والأمانى الباطلة والرجاء الكاذب.

كذلك العبادة بالخوف وحده دون الحب والرجاء ليست صحيحة بل هي باطلة فاسدة، وهي طريقة الخوارج الذين لا يجعلون تعبدهم لله مقرونا بالمحبة، فلا يجدون للعبادة لذة ولا إليها رغبة، فتكون منزلة الخالق عندهم كمنزلة سلطان جائر أو ملك ظالم، وهذا مما يورث اليأس أو القنوط من رحمة الله، وغايته الكفر بالله وإساءة الظن به، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني)، وعن جابر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته بثلاث: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) رواه مسلم.

وحسن الظن هو الباعث على العمل، الذي يلزم منه تحري الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرة عند الاستغفار، والإثابة عند العمل، أما ظن المغفرة والإجابة والإثابة مع الإصرار على الذنوب والتقصير في العمل فليس من حسن الظن في شيء، بل هو سفه وجهل وغرور، فلا بد للعابد أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء، فالرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله سبحانه وتعالى فإنك إذا خفته فررت إليه، فالحائف من الله هارب إليه، يقول الله تعالى: {فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ} وهناك مقولة مشهورة عند السلف وهي قولهم: "من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجي، ومن عبده بالخوف والرجاء والحب فهو مؤمن موحد"، إذن حب وخوف ورجاء هذه هي طريقة الموحد.

إذا قلنا أيهما يغلب الرجاء أو الخوف فالجواب أنه اختلف في ذلك على أقوال:

- ١- ينبغي للإنسان أن يغلب جانب الخوف ليحمله على فعل الطاعة وترك المعصية.
- ٢- أن يغلب جانب الرجاء ليكون متفائلا والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل.
- ٣- أنه في فعل الطاعة يغلب الرجاء لينبعث إلى العمل، فالذي منَّ عليه بالطاعة سيمن عليه بالقبول، ولهذا قال بعض السلف: "إذا وفقك الله للدعاء فانتظر الإجابة لأنه يقول: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}" وفي فعل المعصية يغلب جانب الخوف لأجل أن يمنعك ذلك من فعل المعصية يقول الله تبارك وتعالى {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهذا قريب، ولكن ليس بالقرب الكامل، إذ قد يعترض عليه بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ}.
- ٤- أنه يغلب جانب الخوف في الصحة وجانب الرجاء في المرض.

٥- وقيل الخوف والرجاء كجناحي الطائر، فالمؤمن يسير إلى الله بجناحين، هما الرجاء والخوف، فإذا استويا تم طيرانه، وإذا

نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهب صار الطائر في حد الموت لا يستطيع الطيران، والمحبة كالرأس للطائر.
٦- وقيل يختلف من شخص إلى شخص ومن حال إلى حال والله أعلم.

الخوف الواجب والخوف المستحب:

الخوف الواجب: هو ما يملك على فعل الواجبات وترك المحرمات.
والخوف المستحب: هو ما يملك على فعل المستحبات وترك المكروهات.
أنواع العبادة:

١- قولِي: كشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

٢- فعلي: كالجهاد في سبيل الله وإمطة الأذى عن الطريق.

٣- قلبي: الحياء والمحبة والخوف والرجاء وغيرها.

٤- مشترك: كالصلاة مثلاً فإنها تجمع ذلك كله.

ومن أنواعها أيضاً الزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للمنافقين والكفار، والإحسان إلى الحيوان والأيتام والمساكين وابن السبيل، والدعاء، والذكر، وكذلك الذبح، والنذر، والاستعاذة، والاستغاثة، والاستعانة، والتوكل، والتوبة، والاستغفار، كل هذه عبادات لا يجوز صرفها إلا لله ومن صرفها لغيره فقد أشرك.

تنقسم عبودية الخلق لله سبحانه إلى ثلاثة:

١- عبودية عامة: يشترك فيها كافة الخلق برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، يقول الله تعالى: {إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا} فهذه عبودية الربوبية فالخلق كلهم عبيد لله مريبون له.

٢- عبودية خاصة: وهي عبودية الألوهية وهي عبودية عباد الله الصالحين، وهم كل من تعبد الله بشرعه، وأخلص في عبادته، يقول الله تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} ولهذا أضافهم إلى اسمه إشارة إلى أنهم وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته وهذه إضافة تشريف.

٣- عبودية خاصة الخاصة: وهي أيضاً عبودية الألوهية وهي للأنبياء والمرسلين الذين لا يباريهم ولا يدانيهم أحد في عبادتهم لله، قال تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ} وقال عن نوح عليه السلام: {إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا} وقال عن داود عليه السلام: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} وقال عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} وقال: {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}.

❖ توحيد الألوهية له فضائل منها:

١- أنه أعظم نعمة أنعمها الله على عباده حيث هداهم إليه، كما جاء في سورة النحل التي تسمى سورة النعم، فالله عز وجل قد قدم نعمة التوحيد على كل نعمة فقال في أول السورة: {يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ}.

٢- أنه الغاية من خلق الجن والإنس يقول الباري جل وعلا: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

٣- أنه الغاية من إنزال الكتب ومنها القرآن يقول، تعالى فيه: {الرَّ* كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ*} أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ.

- ٤- أنه السبب الأعظم لتفريج كربات الدنيا والآخرة ودفع عقوباتهما كما في قصة يونس عليه السلام.
- ٥- أنه يمتنع من الخلود في النار من حقق توحيد الألوهية إذا كان في القلب منه أدنى مثقال حبة من خردل، حتى ولو عذب فإنه لا يخلد في النار.
- ٦- أنه إذا كمل في القلب يمنع دخول النار بالكلية كما في حديث عتبان في الصحيحين قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).
- ٧- حصول الاهتداء بالكامل، والأمن التام لأهله في الدنيا والآخرة قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}.
- ٨- أنه السبب الأعظم لنيل رضا الله وثوابه.
- ٩- أن أسعد الناس بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه.
- ١٠- أن جميع الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة متوقفة في قبولها وفي كمالها وفي ترتيب الثواب عليها على التوحيد، فكلما قوي التوحيد والإخلاص لله كملت هذه الأمور وتمت.
- ١١- أنه يُسهل على العبد فعل الخيرات وترك المنكرات ويسليه عن المصيبات فالمخلص لله في إيمانه وتوحيده تخف عليه الطاعات لما يرجوه من ثواب ربه ورضوانه، ويهون عليه ترك ما تهواه النفس من المعاصي لما يخشى من سخطه وأليم عقابه.
- ١٢- أن التوحيد إذا كمل في القلب حب الله لصاحبه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان وجعله من الراشدين كما جاء ذلك في القرآن الكريم.
- ١٣- أنه يخفف على العبد المكروه ويهون عليه الآلام فيحسب تكميل العبد للتوحيد والإيمان يتلقى المكروه والآلام بقلب منشراح ونفس مطمئنة وتسليم ورضا بأقدار الله المؤلمة.
- ١٤- أنه يحرر العبد من رق المخلوقين ومن التعلق بهم وخوفهم ورجائهم والعمل لأجلهم، وهذا هو العز الحقيقي والشرف العالي.

الحلقة (٣٩)

◀ علاقة توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية:

أنواع التوحيد متلازمة ومرتبطة بعضها ببعض

- ١- فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية، بمعنى أن الإقرار بتوحيد الربوبية يوجب الإقرار بتوحيد الألوهية، فمن عرف أن الله ربه وخالقه ومدبر أموره قد دعاه هذا الخالق إلى عبادته وجب عليه أن يعبد وحده لا شريك له، فإذا كان هو الخالق الرازق النافع الضار وحده لزم إفراده بالعبادة.
- ٢- أن توحيد الألوهية متضمن التوحيد الربوبية بمعنى أن توحيد الربوبية يدخل ضمنا في توحيد الألوهية، فمن عبد الله وحده لا شريك له فلا بد أن يكون معتقدا أن الله ربه وخالقه ورازقه، إذ لا يعبد إلا من بيده النفع والضر وله الخلق والأمر
- ٣- توحيد الربوبية عمل قلبي لا يتعد القلب، لهذا سمي توحيد المعرفة والإثبات أو التوحيد العلمي، أما توحيد الألوهية فهو عمل قلبي وبدني فلا يكفي فيه عمل القلب بل يتعداه إلى السلوك والعمل لله قصدا له وحده.
- ٤- أن توحيد الربوبية لا يكفي وحده لأنه مركوز في الفطر، فلو كان كافيا لما احتاج الناس إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب، فلا يكفي أن يقر الإنسان بما يستحقه الرب من الصفات وأنه الرب الخالق وحده، ولا يكون موحدا إلا إذا شهد أن لا إله

إلا الله، فيقر بأن الله هو المألوه المعبود وحده ويعبده بمقتضى هذه المعرفة.

٥- توحيد الألوهية هو الذي جاءت به الرسل وهو الذي حصل به النزاع بين الرسل وأممهم، كما قال قوم هود لهود عليه السلام عندما قال لهم {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} قالوا {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا}، وكما قال كفار قريش عندما أمروا بإفراد العبادة لله وحده {أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ}. أما توحيد الربوبية فلم ينكروه، بل إبليس لم ينكره، قال {رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} فهو أقر بتوحيد الربوبية ولكنه أخل بتوحيد العبادة وطاعته والتسليم له.

٦- أن توحيد الربوبية والألوهية إذا اجتماعا افترقا وإذا افترقا اجتماعا، معنى ذلك أنه إذا ذكرا جميعا فلكل لفظ ما يراد به، كما في قوله تعالى {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ} فيكون معنى الرب هو المالك المتصرف وهذا توحيد الربوبية، ويكون معنى الإله المعبود بحق المستحق للعبادة دون سواه وهذا هو توحيد الألوهية، وتارة يذكر أحدهما مفردا عن الآخر فيجتمعان في المعنى، كما في قول الملكين للميت في القبر: من ربك؟ ومعناها من إلهك، وكما في قوله تعالى {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} وقوله {أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا} وقوله عن إبراهيم عليه السلام {رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ} وكما في قوله {أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}.

٧- لا بد لسلامة التوحيد والفوز بالدارين من تحقيق هذين الأمرين.

← مسألة: ما ضد توحيد الإلهية:

ضده الشرك الذي يذهب بالتوحيد بالكلية فمن أشرك حبط عمله، والبدع الذي يذهب بكماله الواجب، والمعاصي تقدرح فيه وتنقص ثوابه.

❖ توحيد الأسماء والصفات ❖

فالعلم بأسماء الله وصفاته أشرف ما اكتسبته القلوب، وأزكى ما أدركته العقول، فهو زبدة الرسالة الإلهية، وطريقة معرفة الله وعبادته وحده لا شريك له.

فتوحيد الأسماء والصفات: التعريف الأول: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، أو وصفه به رسوله، من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وإمرارها كما جاءت على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، [هذا التعريف ذكره الشيخ حافظ حكيم في أعلام السنة المنشورة].

التعريف الثاني: هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه، بنعوت العظمة والجلال والجمال، وذلك بإثبات ما أثبتته لنفسه، أو أثبتته له رسوله، من الأسماء والصفات ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة.

التعريف الثالث: تعريف ابن سعدي عرفه بتعريف جامع هو اعتقاد انفراد الله بالكمال المطلق من جميع الوجوه، بنعوت العظمة والجلال والجمال، التي لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه، وذلك بإثبات ما أثبتته الله لنفسه أو أثبتته له رسوله، من جميع الأسماء الحسنى والصفات العلى ومعانيها وأحكامها الواردة في الكتاب والسنة، على الوجه اللائق بعظمته وجلاله، من غير نفى لشيء منها، ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف، ونفى ما نفى بها عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من النقائص والعيوب، ومن كل ما ينافي كمالها، ذكر ذلك في القول السديد في مقاصد التوحيد.

❖ أهمية توحيد الأسماء والصفات:

- ١- أن الإيمان به داخل في الإيمان بالله عز وجل، إذ لا يستقيم الإيمان بالله حتى يؤمن العبد بأسمائه وصفاته.
- ٢- أن معرفة توحيد الأسماء والصفات والإيمان به كما آمن السلف الصالح عبادة لله، فالله أمرنا بذلك وطاعته واجبة.
- ٣- الإيمان به كما آمن السلف الصالح طريق سلامة من الانحراف والزلل الذي وقع فيه أهل التعطيل والتمثيل وغيرهم من انحراف في هذا الباب.
- ٤- أن الإيمان به على وجه الحقيقة سلامة من وعيد الله قال تعالى {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.
- ٥- أن هذا العلم من أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، فالاشتغال بفهمه والبحث فيه اشتغال بأعلى المطالب وأشرف المواهب.
- ٦- أن أعظم آية في القرآن آية الكرسي وإنما كانت أعظم آية لاشتمالها هذا النوع في التوحيد.
- ٧- أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن لأنها أخلصت في وصف الله عز وجل.
- ٨- أن الإيمان به يثمر ثمرات عظيمة وعبوديات متنوعة ويتبين لنا شيء من ذلك عند الحديث عن ثمرات الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات.

❖ ثمرات الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات:

- ١- العلم بأسماء الله وصفاته هو الطريق إلى معرفة الله، فالله خالق الخلق ليعرفوه ويعبدوه، وهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فلاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته، وإذا شاء العباد معرفة ربهم فليس لهم سبيل إلى ذلك إلا التعرف عليه من خلال النصوص الواصفة له، المصرحة بأفعاله وأسمائه، كما في آية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وسورة الصمد وغيرها من السور.
- ٢- أن معرفة الله تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العباد ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه بمعانيها وأحكامها ومقتضياتها.
- ٣- تزكية النفوس وإقامتها على منهج العبودية لله الواحد الأحد، وهذه الثمرة من أجل الثمرات التي تحصل بمعرفة أسماء الله وصفاته، فالشريعة تهدف إلى إصلاح الإنسان وطريق الإصلاح هو إقامة العبد على منهج العبودية لله وحده لا شريك له، والعلم بأسماء الله وصفاته يعصم بإذن الله من الزلل، ويفتح للعباد أبواب الأمل، ويثبت الإيمان، ويعين على الصبر، فإذا عرف العبد ربه بأسمائه وصفاته الله وصفاته واستحضر معانيها أثر ذلك فيه أيما تأثير، وامتلاً قلبه بأجل المعارف والألطف، فمثلاً من صفات الله العظيمة ومن أسمائه العظيم يملأ القلب تعظيماً وإجلالاً لله، وأسماء الجمال والجلال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ قلب العبد محبة له وشوقاً إليه ورغبة بما عنده، وأسماء العزة والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعاً وخشوعاً وانكساراً بين يديه عز وجل، وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والملاحظة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات في الجلوات والخلووات وحراسة للخواطر عن الأفكار الرديئة والإرادات الفاسدة، وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتخاراً واضطراراً والتفاتاً إليه في كل وقت.
- ٤- الانزجار عن المعاصي ذلك أن النفوس قد تهفو إلى مقارفة المعاصي فتذكر أن الله يبصرها ويراه فتذكر وقوفها بين يديها فتنزجر وتجنب المعصية.

٥- أن النفوس طلعة تتطلع وتتشوق إلى ما في أيدي الآخرين، فربما وقع فيها شيء من الاعتراض أو الحسد، فعندما تتذكر أن الله من أسمائه الحكيم، والحكيم هو الذي يضع الأشياء في مواضعها عند إذن تنقطع عن حسدها وتنظم عن غيها، وتقنع بما لديه فتعيش سعيدة مرتاحة البال.

٦- أن العبد يقع في المعصية فتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويأتيه الشيطان فيجعله يسيء الظن بالله، فيتذكر أن من أسمائه الرحيم التواب الغفور فلا يتمادى في خطيئته، بل ينزع عنها ويتوب إلى ربه ويستغفره فإنه سيجده غفورا وإنه غفور تواب رحيم.

٧- أن العبد تتناوشه المصائب فيلجأ إلى الركن الركين الحصن الحصين، فيذهب عنه الجزع والهلع فتفتح له أبواب الأمل.

٨- أن الإنسان يعيش في جهاد، ومقارعة الأشرار وأعداء دين الله من الكفار والفجار، فيجدون في عداوته وإيذاهه ويمنعون عنه الرزق وقصم عمره، فيعلم أن الأرزاق والأعمار بيد الله وحده، فعلمه بذلك يثمر له الشجاعة وعبودية التوكل على الله في الظاهر والباطن.

٩- الإنسان تصيبه الأمراض وربما عزَّ علاجها وربما استبد به الألم ودب اليأس إلى قلبه وذهب به كل مذهب، حينئذ يتذكر أن الله هو الشافي، فيرفع يديه يسأله الشفاء فتفتح له أبواب الأمل، فربما شفاه الله سبحانه وتعالى من مرضه، أو صرف عنه ما هو أعظم، أو عوضه عن ذلك صبرا وثباتا ويقينا هو عند العبد أفضل.

١٠- أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها حتى أن العارف به حقيقة المعرفة يستدل بما علم بصفاته وأفعاله على ما يفعله ويشعره من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والرحمة والحكمة.

١١- زيادة الإيمان، فالعلم بأسماء الله وصفاته من أعظم أبواب زيادة الإيمان وذلك بما يورثه في قلوب العابدين من المحبة والإنابة والإخبات والتعظيم للباري، قال تعالى {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}.

للسلف الصالح وأهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته طريقة معروفة هي طريقة الكتاب والسنة، فأهل السنة والجماعة هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة النبي والعمل بها ظاهرا وباطنا في العمل والقول والاعتقاد، فطريقتهم في أسماء الله وصفاته طريقة معروفة:

في الإثبات: يثبتون ما أثبتته الله لنفسه في الكتاب أو أثبتته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. وفي النفي ينفون ما نفاه الله عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله تعالى، إذ أن كل ما نفاه الله عن نفسه فهي صفات نقص تنافي كماله الواجب، فجميع صفات النقص كالنوم والموت والعجز ممتنعة عن الله لوجوب كماله، وما نفاه عن نفسه فالمراد به انتفاء تلك الصفات المنفية، وإثبات كمال ضدها، وذلك أن النفي المحض لا يدل على الكمال حتى يكون متضمن لصفة ثبوتية يحمد عليها كما في قوله تعالى {لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} وقوله {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}.

وقد مضى الكلام على ذلك، قال ابن تيمية "ينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال، لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء فضلا على أن يكون مدحا أو كمالا، ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال".

بقي التوقف من طريقة أهل السنة والجماعة فيما لم يرد إثباته، وقد مضى الكلام عليه بالنسبة للفظ الجهة والغايات وتنزيه

الله عن الأعضاء والأركان، هذا طريقة أهل السنة والجماعة فيه، التوقف والسؤال والاستفصال عنه لأنه مجمل وقد مضى الكلام عنه.

الحلقة (٤٠)

□ قواعد في الصفات:

١- أن صفات الله كلها صفات كمال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه كالحياء والعلم والقدرة والسمع والبصر والعظمة وغير ذلك، وقد دل على ذلك السمع والعقل والفطرة، والدليل من السمع قال تعالى {لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} والمثل الأعلى الوصف الأعلى الكامل، أما العقل فوجهه أن كل موجود حقيقة لا بد أن تكون له صفة، إما صفة كمال، أو صفة نقص، والثاني ممتنع عن الله الكامل المستحق للعبادة، فيتعين الأول لله عز وجل، ثم إنه ثبت بالحس والمشاهدة أن للمخلوق صفات كمال، فمعطي الكمال أولى بها، وأما الفطرة فلأن النفوس السليمة مجبولة على حب الله وتعظيمه وعبادته، وهل تحب وتعبد وتعظم إلا من علمت أنه متصف بصفات الكمال اللائق بربوبيته وألوهيته؟! والصفات منها ما هو صفات كمال على الإطلاق كالصفات السابقة فهذه ثابتة لله عز وجل، ومنها نقص على الإطلاق فهذه منفية عن الله سبحانه تعالى مثل العمى والصمم، ومنها ما هو كمال من وجه ونقص من وجه فهذه يوصف بها الله في حال كمالها ويمتنع وصفه بها في حال نقصها، بحيث يوصف بها وصفا مقيدا مثل المكر والكيد والمخادعة.

٢- باب الصفات أوسع من باب الأسماء لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس العكس، ولأن من الصفات ما هو متعلق بأفعال الله، وأفعاله لا تنتهي لها، قال تعالى {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ومن أمثلة ذلك أن من صفات الله الإتيان والإمساك والأخذ والمجيء والبطش، فنصف الله بذلك على الوجه الوارد، ولا نسميه بها، فلا نقول أن من أسمائه الجائي، والباطش، والأخذ، والممسك، والمريد، وغير ذلك، وإن كنا نخبر عنه بذلك ونصفه به، فهذا ملحظ مهم.

٣- صفات الله تنقسم إلى ثبوتية وسلبية:

فالثبوتية: هي ما أثبتته الله لنفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات كمال لانقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياء والعلم والقدرة واليدين فيجب إثباتها لله على الوجه اللائق به، كما جاء في طريقة أهل السنة والجماعة بأسماء الله وصفاته.

وأما السلبية أو المنفية فهي ما نفاه الله عن نفسه في كتابه، أو نفاه عن رسوله، مثل النوم والصمم وغير ذلك من صفات النقص، فيجب نفيها عن الله عز وجل.

٤- الصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر من السلبية، فالقاعدة في ذلك: الإثبات المفصل والنفي المجمل.

فالإثبات مقصود لذاته، أما النفي فلم يذكر غالبا إلا على الأحوال التالية:

- ١- بيان عموم كماله قال تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقوله {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}.
- ٢- في نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون قال تعالى {أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا}.
- ٣- دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر قال تعالى {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ} وقوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} ثم إن النفي مع أنه مجمل بالنسبة للإثبات إلا أن فيه

تفصيل وإجمال بالنسبة لنفسه، فالإجمال في النفي أن ينفي عن الله كل ما يضاد كماله من العيوب والنقائص كقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} وقوله تعالى {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} وقوله تعالى {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ}، وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه كل واحد من العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عن الولد والصاحبة والسنة والنوم، وغير ذلك مما ينزه الله عنه.

٥- الصفات الثبوتية تنقسم إلى أ/ ذاتية ب / فعلية

أ) الذاتية هي التي لم يزل ولا يزال الله متصفا بها، والتي لا تنفك عنه سبحانه تعالى، كالعلم والقدرة والبصر والسمع والقوة والعزة والحكمة والوجه واليدين....

ب) الفعلية هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، كالنزول إلى السماء الدنيا والاستواء على العرش، وقد تكون الصفة ذاتية وفعلية باعتبارين، فإنه باعتبار أصله كما مر معنا في صفة الكلام، فهي صفة فعلية باعتبار، وذاتية باعتبار، فإن الكلام باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله مازال ولا يزال متكلماً، وباعتبار آحاد الكلام كلامه لموسى صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بمشيئته، فهو يتكلم بما شاء متى شاء، وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته، وقد تكون الحكمة معلومة لنا وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم يقيناً أن الله لا يشاء شيئاً إلا وهو موافق لحكمته، كما يشير إليه قوله تعالى {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}.

٦- الصفات الذاتية والفعلية تنقسم إلى: أ / عقلية ب / خبرية

أ) العقلية هي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي، والدليل العقلي، وهي أغلب صفات الله مثل السمع والبصر والقوة والقدرة....

ب) الخبرية هي التي لا تُعرف إلا عن طريق النص فقط، مع أن العقل السليم لا ينافيها، مثل صفة اليدين والنزول إلى السماء الدنيا.

٧- أن صفات الله توقيفية، فلا نصفه إلا بما وصف به نفسه في كتابه، أو على لسان رسول صلى الله عليه وسلم، ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاث أوجه:

أ / التصريح بالصفة كالعزة والقوة والرحمة كقوله تعالى {فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا} وقوله {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ} وقوله {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}.

ب / تضمن الاسم لها كالعزيز الغفور قال تعالى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} فالعزيز متضمن لصفة العزة، والغفور متضمن لصفة المغفرة.

ج / التصريح بفعل أو وصف دال عليها كالاستواء على العرش والمجيء قال تعالى {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} وقال {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا}.

٨- المضافات إلى الله عز وجل إن كانت أعيان فهي من جملة المخلوقات، وإن كانت أوصاف فهي من صفات الله، وبيان ذلك أن المضافات لله نوعين:

■ النوع الأول: أعيان قائمة بذاتها مثل عبد الله، وناقة الله، فهذه من جملة المخلوقات، وإضافتها إلى الله من باب إضافة المخلوق خالقه وقد تقتضي تشريفاً مثل بيت الله وناقة الله، وقد لا تقتضي تشريفاً مثل أرض الله، وسماء الله.

■ النوع الثاني: أن يكون المضاف أوصافاً غير قائمة بذاتها مثل سمع الله، وقدرة الله، وبصر الله، فهذه الإضافة تقتضي أن هذه الصفة قائمة بالله، وأن الله متصف بها، وهذا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

٩- أن القول في بعض الصفات كالقول في بعض، وهي قاعدة يرد بها على من فرق بين الصفات كالمعتزلة فأثبتوا بعض الصفات ونفوا البعض، فيقال لمن فعل ذلك أثبت الجميع أو أنف الجميع، ومن أثبت بعضها ونفى بعضها فهو مضطرب متناقض، وتناقض القول دليل على فساد رأيه وعلى بطلانه.

١٠- القول في الصفات كالقول في الذات، وذلك أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقة لا تماثل الذات فالذات متصفة بصفات حقيقية لا تماثل الصفات، وكذلك الأفعال، فنثبت لله من أفعاله كيفية لا نعلمها، ولا نُشابهه كيفية المخلوقين.

١١- أن ظواهر نصوص الصفات معلومة لنا باعتبار ومجهولة لنا باعتبار، فباعتبار المعنى معلومة، وباعتبار الكيفية مجهولة، وهذا كما ورد عن الإمام مالك: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" وقال للرجل السائل: أظنك رجل سوء، فأمر بإخراجه وأخرج من حلقتة في المسجد، فالاستواء معناه معلوم لنا، فهو بمعنى العلو والارتفاع والصعود والاستقرار، أما كيفية الاستواء فمجهولة، لأن الله أخبرنا بأنه استوى ولم يخبرنا عن كيفية استوائه سبحانه وتعالى.

ضد توحيد الأسماء والصفات:

الإلحاد فيها ويدخل فيها التعطيل والتحريف والتكيف والتمثيل والتفويض.

الإلحاد في اللغة: هو الميل، ومنه اللحد في القبر ومنه الميل عن الحق.

اصطلاحاً: العدول عما يجب اعتقاده أو عمله، والإلحاد في أسماء الله هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها.

ومن أنواع الإلحاد في أسماء الله وصفاته:

أ / أن ينكر شيئاً مما دلت عليه من الصفات كفعل المعطلة.

ب / أن يجعلها دالة على تشبيه الله بخلقه كفعل المثلة.

ج / أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، لأن أسماء الله توقيفية كتسمية النصارى لله أباً، وتسمية الفلاسفة له تعالى علة فاعلة، أو العقل المدبر، أو بمهندس الكون، أو غير ذلك.

د / أن يشتق من أسمائه أسماء للأصنام كاشتقاق اللات من الإله، والعزى من العزيز.

هـ / وصف الله بما لا يليق وبما ينزه عنه كقول اليهود {إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} وقولهم إن الله تعب من خلق السماوات والأرض واستراح يوم السبت.

التعطيل والتمثيل والتكيف والتحريف هذه الألفاظ مضى شرحها في الحلقات الماضية، هناك فرق ضلت في باب الأسماء والصفات مرت علينا منها الجهمية والمعتزلة والأشاعرة و **الماتوريدية والمثلة**، وفي كتب الفرق بيان وتوضيح بماهية هذه الفرق، وكيف ضلت وانحرفت خاصة في هذا الباب.

مفردات المقرر:

وتدرس فيه الموضوعات التالية:

أصول الدين، وجوب بما جاء به الرسول إيماناً عاماً مجملاً على كل أحد، المعرفة التفصيلية فرض كفاية، عموم دعوة الرسول إلى يوم القيامة ووجوب طاعته، كفاية ما جاء به الرسول، العلم بالكلام هو الجهل بالكلام والوصول إلى علم الأصول لا يكون بغير اتباع ما جاء به الرسول، التوحيد ومعانيه، التوحيد المطلوب هو توحيد الألوهية الذي يتضمن توحيد الربوبية، أنواع التوحيد الذي دعت إليه الرسل، معاني الشهادة ومراتبها، الإعراض عن أقوال علماء الكلام في التوحيد فإن أكمل الناس توحيداً الأنبياء والمرسلون.

معنى قوله تعالى: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } الموجود في الخارج لا يوجد كلياً بل يوجد معيناً مختصاً، توقف فهم المعاني عند المخاطب على معرفة عين مسماهها أو ما يناسب عينها، الحقائق الشرعية وكيفية دلالة الألفاظ عليها، قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء، التعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية هو سبيل أهل السنة، والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات، تفسير لا إله إلا الله، معنى الأول والآخر، قديم بلا ابتداء ودائم لا انتهاء، القديم ليس من الأسماء الحسنى ولكنه تعبير المتكلمين، لا يفنى ولا يبيد ولا يكون إلا ما يريد والرد على القدرية والمعتزلة، الفرق بين الإرادة الدينية والإرادة الكونية، الرد على المشبهة، الله حي لا يموت، قيوم لا ينام، وهو الخالق الرازق، وهو المميت الباعث، لم يزل متصفاً بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، الصفات وهل هي زائدة على الذات، الاسم عين المسمى أو غيره؟ الرد على الجهمية والمعتزلة في الصفات، البحث عن التسلسل، هو الخالق الباري، الأقوال في هذا العالم من مادة أم لا؟ هو الرب قبل أن يوجد مربوب والخالق قبل أن يوجد مخلوق، وهو كل شيء قدير، وكل شيء إليه فقير، الإيمان بربوبية الله العامة التامة، لله المثل الأعلى، إعراب { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } خلق الله الخلق بعلمه، تقدير الأقدار وضرب الآجال، الدعاء المشروع وأثاره، مشيئة الله تنفذ لا مشيئة العباد، المشيئة غير الرضا، الهدى والضلال والرد على المعتزلة في قولهم الواجب والأصلح، وجوب الإيمان بنبوة رسول الله ﷺ ورسالته، البحث في المعجزات ودلائلها على النبوة، القرائن والدلائل التي احتجت بها خديجة ثم النجاشي ثم هرقل على صدق رسالة رسول الله ﷺ - إنكار رسالته طعن في الرب سبحانه وتعالى، الفرق بين النبي ﷺ، محمد خاتم الأنبياء وإمام الأتقياء، وسيد المرسلين، التفضيل بين الأنبياء، محمد ﷺ حبيب الله، الفرق بين المحبة والحلة، كذب من يدعي النبوة بعد رسول الله ﷺ، عموم بعثته إلى الإنس والجن، إعراب { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ }.

القرآن كلام الله، افتراق الناس في مسألة الكلام تسع فرق، مذهب أهل السنة في كلام الله والرد على مخالفهم، تكليم الله لأهل الجنة وغيرهم، الرد على من ادعى أن كلام الله مخلوق، إلزام عبد العزيز الكنانى لبشر الميرسي في مسألة خلق القرآن، الرد على من ادعى خلق القرآن، أهل السنة كلهم متفقون على أن كلام الله غير مخلوق.

الرد على بعض متأخري الحنفية في زعمهم أن كلام الله معنى واحد، الذي في المصحف هو كلام الله، كلام الله بلا كيفية، مذاهب الناس في مسمى الكلام والقول، عود إلى الرد على من قال أن الكلام معنى واحد، واستنكار استدلالهم بشعر الأخطل بأعلى بيان، تكفير من أنكر أن القرآن كلام الله وزعم أنه قول البشر أو يشبه قول البشر، كفر من وصف الله بمعنى من معاني البشر، رؤية الله حق لأهل الجنة والرد على من خالف في ذلك من الجهمية والمعتزلة والخوارج والإمامية، وتوفير الأحاديث الدالة على الرؤية والقطع بصحتها، لا تعلم أصول دين الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله، لا يتكلم في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة، الخلاف في رؤية رسول الله ﷺ ربه ليلة المعراج، تأويل المعتزلة نصوص الكتاب والسنة

تحريف لكلام الله ورسوله عن موضعه، من لم يسلم لنصوص الكتاب والسنة واعترض عليها بالشكوك، والشبه والتأويلات وادعى أنه يقدم عقله على النقل لم يكن سليم العقيدة، الواجب كمال التسليم للرسول والانقياد لأمره دون معارضه بخيال باطل يسميه معقولاً، توحيد المرسل وتوحيد متابعة الرسول، لا نجاة إلا بهما فلا تحاكم إلى غيره ولا نرضى بحكم غيره، لا يثبت إسلام من لم يسلم لنصوص الوحيين، العقل من النقل كالعامي المقلد مع العالم المجتهد، التحذير من الكلام في أصول الدين وغيرها بغير علم، من لم يسلم للرسول نقص توحيده، الملوك وأحبار السوء والرهبان، علم الجدل والكلام، ما قاله الله ورسوله هو الأصل.

اصطلاحات المتكلمين بألفاظ توقع في الشبه والحيرة، سبب الإضلال هو الإعراض عن كلام الله ورسوله والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة، اعتراف أساطين الكلام بوقوعهم في الحيرة والشك، من طلب الدين بالكلام تزندق، الرد على من أنكر الرؤية أو تأويلها، معنى التأويل في الكتاب والسنة، معنى التأويل في كلام المتأخرين وفتحهم بهذا باباً للشرك والابتداع، النفي والتشبيه مرضان من أمراض القلوب، تنزه الله عن الحدود والغايات وما لا يليق بمجالاته في باب الصفات، إثبات ما أثبتته الله ورسوله وكذلك النفي، وجوب نفي الحد عن الله وصفاته، معنى لفظ الجهة.